الى رئيسه الدكتور فيليب حتي
مع تقدير المؤلف
حلب ١٩/٦/٩٤٦

سيف الدولة

وعصر الحمدانيين

بقلم

سامي الكيالي

١٩٣٩

المطبعة الحديثة ● حلب

الإهداء

كانت سوريا ، قبل ألف عام ، أي بعد انفراط عقد الامبراطورية الكبرى بتصدع ملك العباسيين في بغداد - مطمعاً للزحفات البيزنطية، ولكن بطولة الحلبيين الأشاوس الذين بذلوا دماءهم بسخاء في الدفاع عن ذرى الوطن هي التي حالت دون تحقيق ذلك الحلم البيزنطي القديم .

فالى روح ذلك « **الجندي المجهول** » الذي أنبتته تربة هذا الوطن المقدس - الى ذلك الحلبي المغوار الذي كان أول من حمل رايات سيف الدولة أهدي هذه الصفحات .

لئن خُلق الانام لحسو كأسٍ ومزمار وطنبور وعود
فلم يخلق بنو حمدان الاّ لمجدٍ أو لبأسٍ او لجود

ابو فراس

ليس الاك ياعلي همام سيفه دون عرضه مسلول
كيف لا تأمن العراق ومصر وسراياك دونها والخيول
لو تحرفت عن طريق الاعادي ربط السدر خيلهم والنخيل
ودرى مَنْ اعزه الدفع عنه فيهما انه الحقير الذليل
انت طول الحياة للروم غازٍ فمتى الوعد ان يكون القفول
وسوى الروم خلف ظهرك رومٌ فعلى اي جانبيك تميل
قعد الناس كلهم عن مساعيك وقامت بها القنا والنصول
ما الذي عنده تدار المنايا كالذي عنده تدار الشمول

المتنبي

اجتمع لسيف الدولة بن حمدان مالم يجتمع لغيره من الملوك ، كان خطيبه ابن نباته الفارقي، ومعلمه ابن خالويه، ومطربه الفارابي، وطباخه كشاجم وخزان كتبه الخالديان والصنوبري، ومداحه المتنبي والسلامي والوأواء الدمشقي والرفاء والنامي وابن نباتة السعدى والصنوبري وغير ذلك .

الثعالبى

مقدمة

بقلم

الدكتور اسماعيل احمد ادهم

عضو أكاديمية العلوم الروسية

*****

في نفوس الناس اليوم صورة جديدة عن التاريخ ، وهي صورة على الرغم مما فيها من الغموض والابهام ، فأنها صادقة الدلالة على التطور الذي حدث في نفوس الناس فجعلهم لا يطمئنون الى اعتبار التاريخ مجرد الرواية للماضي وتدوين حوادثه كما كان يفعل القدماء من مؤرخي العرب ، وكما هو الحال في الآثار التي تمت الى التاريخ بصلة، والتي انتهت الينا من مؤرخي العصور الوسطى من كتاب الاسلام.

على ان هذه الصورة الجديدة ، تعود بأصل من جهة ، لتغير مفهوم التاريخ في الغرب . ماشتها من جهة أخرى أسباب في الشرق الادنى فجعلتها تأخذ من هذا التغاير بطرف . وأهم هذه الاسباب : التحول الحادث في الشرق الادنى . ونقطة التحول يقظة العالم الناطق بالعربية بعد فترة خمسة قرون ذهب يغط فيها نوماً .

وكان تحركه نتيجة تفاعل حضارته التي خرج بها من ماضيه والتي تحجرت مع الزمن في صورة جامدة مع الحضارة الاوروبية التي كانت تغزو الشرق بقوة . ومن هنا كانت التيارات المتباينة التي اخذت تجتاح جو الشرق الأدنى . والتي كانت تسمح بأقامة بيئات ثقافية مختلفة ، وهكذا كان هذا العصر في تاريخ الشرق الأدنى فترة من الزمن تسمح للعبقريات ان تظهر ، وللأذهان الألمعية ان تبدو وقد أخذ الصدأ الذي تراكم على أهل المشرق ينجلي تحت تأثير مدنية الغرب الجارفة .

وكان يقابل أسباب الانتفاض الخارجية ، أسباب ماشئها من الداخل ، قامت على أساس احياء تراث الماضي وبعثه للحياة بقوة من جديد . فحدث ان حمل الفكر العربي الحديث صوراً من الماضي ، ولكن معروضة في قالب جديد يتكافأ والحياة الثقافيه التي أخذ بها المحيط الشرقي . غير ان هذا القالب كان شكلياً في العلوم ، لأن العقلية التي خلص بها رجالات الشرق الأدنى من أسباب محيطهم الشرقي ايام طفولتهم كانت تفعل فعلها فيهم ، ولم تكن لتجعل أذهنتهم لتستقيم لها أسباب عقليتها من الذهنية الغربية الحديثة .

ولما كانت الذهنية العربية الخالصة غير تاريخية في تجلّيها الزمني من حيث تأخذ الأشياء جنباً الى جنب دون ان تعنى بالتفاصيل ، ودون ان تعمل للنفوذ الى ما وراء أشكال الأشياء لترى رابطة الاتصال الداخلي بينها ، وحدّ التطور الزمني فيها . فأن غزو الأساليب الغربية للعالم العربي نجحت في ان تغلف الذهنية العربية بطرائقها الشكلية تغليفاً انتهى الى حدّ أخذ الذهنية العربية الحديثة بالطريقة الوصفية في كتابة التاريخ ، لأنها تمثل مرحلة من مراحل تطور الذهنية التاريخية من الحالة التدوينية للحالة الفلسفية التي هي مقدمة لتناول التاريخ تناولاً علمياً تحليلياً .

-١-

لا يخرج التاريخ عن حد العرض للماضي ، ماضي الكل الاجتماعي المتدرج في الزمن ، ومنحى العرض هو الذي يقوّم التاريخ بتلك الطرائق المختلفة والمذاهب المتباينة ، فالوقوف عند حدّ تدوين حوادث الماضي بعد نقدها وتمحيصها يقف بالتاريخ عند الحالة التدوينية الانتقادية ، كما وان الرجوع بصفحات من الماضي الى الحياة ، وابرازها في اطار فني يقفان بالتاريخ عند الحالة الوصفية ، فأذا ما تعارضت بعض التأملات الفلسفية في خيوط الشبكة التاريخية التي تحاك من حوادث تروى ، ووقائع تقصّ ، وأمور تدوّن ؛ ونجح المؤرخ في ان يقع على البواعث والقواسر والأسباب التي يستطيع بها ان يعلل حوادث التاريخ التي

يعرض لها ، بحيث يخرج منها بصورة فيها ألفة واتساق ، مستمداً تعليلاته من طبيعة الحالات في العصر الذي يؤرخ له ، فأن التاريخ يرتقي الى الحالة الفلسفية. وتلك خطوة أولى ينتهجها المؤرخ لينتهي بها عن طريق طرائق التحليل والتحقيق العلمي الى الحالة العلمية .

والمرحلة التي أخذ بها الشرق العربي في فهم التاريخ ، مرحلة تنقلية من الحالة التدوينية الى الحالة الفلسفية، وهكذا اختلط عند الشرقيين بعض مناحي الطريقة الوصفية ببعض وجهات الطريقة الفلسفية ، فأنت تجد بعض كتب التاريخ الحديثة التي ظهرت بالعربية في هذا الجيل والجيل الذي أنصرم بقيام الحرب الكبرى تعرض لبعض الحوادث والوقائع التي ذهبت طيّ التاريخ في صورة تتعارض في شبكتها المتصلة بعض التدبر في استقصاء الأسباب وربط النتائج لها . وهكذا خرجت هذه الكتب لا هي آخذة الاسباب بالطريقة التدوينيـة الصرفة التي تقرر وقائع التاريخ كما هي ، ولا بالطريقة الفلسفية المحضة التي تعلل حوادث التاريخ تعليلا يستمد مقوماته من طبيعة الحالات القائمة في العصر الذي يؤرخ له .

هذا فضلا عن ان الطريقة التدوينية الانتقادية لم يعرفهـا كتاب العربية من حيث تمحيص حوادث الماضي وتنقيدها ، فهذا التمحيص والانتقاد لا يمكن ان يستقيم للمؤرخ الا بنظرة فلسفية تتغلغل في صفحات المـاضي وتستمد من طبيعة الحالات القائمة في الماضي صورة تقيمها في ذهنهـا يمحص على أساسها المؤرخ ما يعرض له من حوادث العصر ووقائعه تلك التي رونها الكتب الاخبارية والحوليات الزمانية .

على أنه بجانب هذه الحـالات المتخالطة في فهم التاريخ عند الشرقيين ، قامت الحالة الوصفية في صورة مستكملة اسبابها ، ذلك انها غير محتاجة لصدق الحدس التاريخي وقوة المنطق التاريخي Intuition ، لأنها تتقوّم بأصول أدبية ومبادئ فنية صرفة . وقد نجح بعض كتاب العربية ـ نذكر منهم طه حسين في كتابه «على هامش السيرة» ومعروف الارناؤوط في كتابه عن «سيد قريش» في ان يبرزوا في اطار فني بعض صفحات الماضي ، ذلك ان الطريقة الوصفية في التاريخ

تعود الى أصل ان المؤرخ مصور تخط ريشته لأهل زمانه الصور التي تنعكس من مرآة نفسه من مراجعة لحوادث الازمان الغابرة ، تلك الازمان التي لم نعرف من حقائقها ، الا بقدر ، يتسق مع ما تركت من أثر في نفوس المؤرخين لها . فالمؤرخ الوصفي – كما يقول البحاثة مظهر – يستمد من خيالات غيره ومن انفعالات غيره ومشاعر غيره ليستخرج صورة جديدة تستحيل اليها نفسه ويكون خطأوها او صوابها راجعاً الى خطأ نظر الذين صوروا ذلك العصر او صحتهم . من هنا فقط يمكننا ان نفهم حقيقة الاتجاه الوصفي في كتابة التاريخ ، ذلك الاتجاه الذي أخذ به الاستاذان «سبنسر» و «سيلي» ودافعا عنه . ذلك ان التاريخ في نظر هذا المنحى في تناول التاريخ لا يخرج عن كونه كما يقول اللورد ما كولي – «صفحات من الزمن تتعاقب عليها صور الجماعات البشرية بشكل وقائعها وحوادثها وانفعالاتها ، وهي من هنا لا تخرج عن كونها كالمنظر الذي تراه في صفحة السماء يوماً ، يستحيل عليك ان تراه بذاته يوماً آخر بما فيه من اختلاف الصور والالوان والاشكال . ومن هنا يصبح أهل الشهادة لحوادث التاريخ كأهل الشهادة لمناظر الطبيعة ، ان رأوها وتناولوها بوصف وأخذت عنهم ذلك الوصف او تلقيت عنهم تلك الصورة لتقيس عليها أو لتستنتج منها أو لتقارنها بغيرها من الصور التي تقع تحت الحس ، فأنما انت تنظر بنظر غير نظرك ، وتنعكس على مرآة نفسك صور وانفعالات وبواعث وعواطف ومشاعر قد تشعر بما يناقضها لو نظرت اليها بعين نفسك وتحت تأثير مشاعرك وعواطفك وانفعالاتك الخاصة» .

على ضوء هذا الكلام – الذي يقدره الاستاذ ما كولي ويلخصه عنه البحاثة مظهر – نرى ان كاتب التاريخ من الناحية الوصفية يحاول ان يتغلغل قبل كل شيء في روح العصر الذي يؤرخ له ، ويتعمق في درس حوادثها تعمقاً فنياً حتى يتسنى له ان يخلق في ذهنه جوا قريباً من الجو الذي كان عليه العصر الذي يؤرخ له ، ثم يندمج الكاتب في هذا الجو الذي خلقه بعد ان يستوعب كل ما يستطيع استيعابه من حالات العصر الذي يسبق الفترة التي يؤرخها وحالات العصر التي اعقبت طي ذلك في اكفان الزمان ، ليخلص من جماع ذلك بصورة اقرب الى

الفن التصويري منها الى الدرس التحليلي والنظر التأملي الذي هو قرارة المنحى الفلسفي في كتابة التاريخ .

على ان قيمة مثل هذا الاتجاه في كتابة التاريخ فنية محضة تقوم على اساس تنبيه العواطف والانفعالات البشرية ، ذلك باعتبار ان الانسان يعيش في حاضره محفوفاً بذكريات الماضي والامس ، من حيث كون الحاضر مجموع الماضي الذي اسلم نفسه لهنيهة لها صورتها الشكلية المستجدة ، ولهذا كانت روح الانسان - عادة - محلقة في اجواء الماضي، تستعيد صورها بذكرياتها الحلوة والمرة ، واجدة في ذلك العزاء عما في الحاضر ، منفسة عما في نفسها من المشاعر المكبوتة .

وهذا يفسر لنا نجاح هذه الطريقة في كتابة التاريخ لا عند الشرقيين فحسب ، ولكن عند الغربيين ايضاً ، ولهذا نجد بعض فناني الغرب يعرضون لبعض صفحات الماضي ، يبرزونها بصورة أدبية ترضي ناحية الفن اكثر مما ترضي ناحية البحث الانتقادي والتحليل العلمي والتأمل الفلسفي . وهذا لا يمنع ان يتعارض في خيوط الشبكة التاريخية التي يكون المؤرخ الفنان قد تناولها ، بعض البحث الانتقادي وبعض التحليل العلمي وبعض التأمل الفلسفي ، ولكن في العموم لا نجد عناية مباشرة بهذه المسائل ولا عناية بتفاصيل العصر الذي يكون قد عرض له المؤرخ الفنان ، لكونه يأخذ من العصر صورته الحية ويلج بك بواسطة اللمسات التصويرية المحكمة التي تكاد لا ترى بالعين الى التفاصيل التي يبثها في ذهنك عن طريق الايحاء الذي تبعثه في نفسك استجابتك لعوامل الحياة التي تضطرب في تضاعيف العصر واجواء ذلك الزمان .

على ان هذه الطريقة الوصفية اذا اتصلت من الماضي بشخص ، انقلبت الى فن التراجم ، وهذا الفن لا يفترق في شيء عن الطريقة الوصفية الا في انها أخص منها من حيث تدور في الترجمة عن بطل أو انسان مبرّز في التاريخ ، عائدة به الى الحياة التي كان يحياها ، مشعرة الانسان بهذه الحياة ، وعلى قدر نجاح المترجم تكون مقدرته على الترجمة واستيعابه لفن الوصف التاريخي .

- ٢ -

من بين الكتب التي تعرض للتاريخ من الناحية الوصفية كتاب «سيف الدولة وعصر الحمدانيين» لصديقنا الاديب السوري الكبير الاستاذ سامي الكيالي. وهو كتاب يترجم لسيف الدولة ويؤرخ لعصر الحمدانيين، وقيمته ترجع لما يخلقه في ذهن القارئ من الجو الذي يشعر فيه بأنه آخذ بطرف من عصر الحمدانيين وعلى مشهد من سيف الدولة فيختلجه من الاحساسات والمشاعر ما كان يختلج في ذلك العصر لما يدور بسيف الدولة من وقائع ترفعه وحوادث تهبط به، وسيف الدولة بعد ذلك جلد على الزمان لا يتأثر بصدماته الا بقدر، حتى يعاود بقوة شخصيته الجهاد مهيئاً الاسباب للارتفاع.

وسيف الدولة مؤسس الدولة الحمدانية أحد أبطال التاريخ، صاحب شخصية حافلة بالحياة والنشاط، وذو نواح متعددة تتراقص على جنباتها المغامرة والشعر والسيف والقلم والبطولة والادب، فهو، من هنا، من الشخصيات التي تثير الاعجاب وتسترعي النظر، مر بتاريخ العرب في فترة كانت الفوضى تقتلها فنجح في ان يلجم الفوضى وأخرج منها نظاماً وخلق من ضعف العرب قوة، وصمد لقوات الروم وقاد جموع العرب لمحاربة البيزانس يذود عن دولته التي اقامها بحد سيفه، وهو في هذا كله يذود عن العرب والاسلام.

وقد عاش في زمنه شاعر العرب ابو الطيب المتنبي وكان على صلات قوية به، وكانت هذه الصلات تلبس حسب الظروف لبوسها، على انها في العموم كانت قوية تجليها للنظر ما قاله المتنبي من الشعر في سيف الدولة، وهو يشكل أهم جانب من شعر شاعر العرب الفذ. ولقد غطت شخصية المتنبي بعبقريتها الفذة شخصية سيف الدولة، حتى ذاع في الناس ان سيف الدولة خلد على الزمن بما قاله فيه ابو الطيب من الشعر الخالد. وكان ان انتبه جمهور أدباء العربية وكتابها الى ان واجب الوفاء نحو تاريخهم أن يحتفلوا بأعلامه، فكانت من هنا فكرة الذكرى الألفية لشاعر العربية الفذ المتنبي، فكتب الدكتور طه حسين كتابه الادبي القيم

عن المتنبي ، ووضع الاستاذ محمد محمود شاكر بحثه النفيس عن المتنبي ، ودرس المستشرقون حياة ابي الطيب من مناهجهم ، وتلفت الاستاذ سامي الكيالي فرأى ان حياة المتنبي قد درست من جميع نواحيها ، ولم يترك الباحثون فيها له مجالا لبحث ، والرجل طموح يريد ان يستحدث ضرباً جديداً في دراسته للمتنبي فرجع بباصرته للوراء واتخذ من صلات المتنبي بسيف الدولة تكأة يقيم منها أساس بحثه ، ولكن هذه الصلات يمكن ان تدرس من ناحية المتنبي ، ومثل هذا الدرس ادخل في حياة المتنبي منها في حياة سيف الدولة ، هذا ، والاستاذ شاكر قد طرق هذا الموضوع البكر ببحث نفيس اذن ، فليمل الى الناحية الاخرى ، ناحية سيف الدولة ، وبفكر في ان يدرس شخصه ويستقصي اخبار عصره ، ويضع بحثاً عنه يرجعه بها الى الحياة بعد الف عام . وهنا يصطدم بالفكرة الذائعة عن ان المتنبي هو الذي خلد سيف الدوله بما قاله فيه من الشعر الرائع . ولكن حياة البطل العربي كما انكشفت له تجعله متردداً في الجزم بهذه الفكرة : وهنا يقف موقف الحيرة يتساءل :

أترى المتنبي مديناً بشهرته الى سيف الدولة ام ان الامر بالعكس ؟ ام كلاهما عصاميان قد ربطت بين قلبيهما العظمة فتلاقيا على ضفاف الماضي ، وما ان تقدم الشاعر الى الامير بقصيدة من قصائده الغر حتى تعارفا وظلا في صحبة بعضهما هذه الفترة من الزمن حتى فرق الدهر بينهما أو قل نفث الحساد سمومهم في شعبات قلبيهما فترك الشاعر أميره ؟

يقف الاستاذ سامي موقفاً وسطاً في هذا الموضوع : فالأمير الحمداني عنده هو الذي ألهب شاعرية المتنبي بغزواته وحروبه وعطاياه وهباته ، وهو بهذا يمهد السبيل لذيوع اسم المتنبي وخلود ذكره بهذا العطف الذي حباه به وبتفضيله على غيره من الشعراء ، وهذا الذي جعله ان يرسل الكلم المطرب وان تتفجر الحكمة ريانة من جوانب قلبه وطوايا نفسه .

غير ان هذا الموقف يميل به بعض الميل الى جانب سيف الدولة ، وهو في هذا مدفوع بفكرته ان يتناول حياة سيف الدولة ببحث ، ومادام سيف الدولة

موضوع البحث وركنه ، فالشاعر العربي الفذ يمر في اطار من حياة الأمير الحمداني يستمد منها لعبقريته وسائل الظهور ، وهذا الميل يظهر في كلام الاستاذ الكيالي حين يقول :

« لقد نشأ على هامش الدول الاسلامية امرآء كثيرون ، واتصل بهم شعراء كبار نفحوهم بشعر قوي وبعاطفة رزينة . فما كانت تلك القصائد لترفع بأولئك الامرآء الى المكانة السامقة التي تربّع عليها سيف الدولة في صدر التاريخ . . . ومردّ هذا على ما أعتقد ، عظمة سيف الدوله ، والشاعر مهما عمد الى المبالغة في رسم صفات ممدوحه فهو لا يستطيع ان ينأى عن الحقيقة .. وفي حياة سيف الدولة حقيقتان بالغتان : مغامراته الفذة كأمير خاض مئات المعارك الدامية في حروبه مع الروم ، ونفسه الكبيرة التي تراقصت على أشعة ضوئها مئات السجايا النبيلة التي حار الشعرآء في رسم صورها ووصف الوانها ، هاتان الحقيقتان هما اللتان ايقظتا مئات المعاني الجديدة في نفس المتنبي ... واذن ، فلسنا نبتعد عن الواقع اذا هزرنا هذا الاتجاه الذي يردده بعض مؤرخي الادب بأن المتنبي هو الذي خلدسيف الدولة وانه لو لا المتنبي لكان الأمير الحمداني نسياً منسياً ؛فسيف الدولة لم يشتر قصائدشعرآئه بالمال ، بل كانت اعطياته صدى حقيقياً لتذوقه الادب واكرامه لرجال الادب لأن من يحاول ان يبتاع ضمير الشعراء بماله يكون في حاجة الى المجد و العظمة ؛أماسيف الدولةفكانت العظمة والمجدبعض نثاربردتيه، لهذا نحب ان ننصف سيف الدولة من ظالميه دون ان نغمط الشاعر المتنبي ـ مالئ الدنيا وشاغل الناس ـ، ولاغضاضة اذا قلنا ان المتنبي كان مديناً ـ الى حدما ـ بشهرته الى سيف الدولة بن حمدان . »

على ان هذا الميل يكاد لايستبان ، واذاً يمكننا ان نقول ان الاستاذ سامي الكيالي كان موفقاً كل التوفيق في الموقف الذي اتخذه ، وهو موقف يشهد له بصحة النظر ونفوذ البصر والاقتراب من الواقع .

وهكذا اتخذ الباحث لنفسه طريق بحثه ، مستنزلاً الموضوع في شيء من الدقة والواقع؛ مستمداً هذه الالفة والاتساق اللذين كشف عنها بحدس صحيح من

طبيعة العصر الذي عاش فيه الامير الحمداني وشاعر العرب .

- ٣ -

استقامت الفكرة أذن - في ذهن الكاتب - فحاول ان يخلعها حية في البحث الذي يكتبه عن الأمير الحمداني . فكتب طرفاً من طفولة الرجل وصباه ، ثم عاد يمهد لها بالمامة عن الحمدانيين والاحوال التي كانوا عليها ليبين طبيعة الموقف الذي واجهه سيف الدولة حين خرج للحياة من صلب الحمدانيين يضع اساساً للدولة الحمدانيـة التي قامت في التاريخ في أرض الشهبـاء . ولكن هل يصح ان يطلق على النظام الذي أقامه سيف الدولة ، والبقاع التي دانت له اصطلاح الدولة ؟ وهل يجوز ان يقال عن الاراضي التي دانت لآله في الجزيرة ، أنها دولة ؟

يقرر المؤلف جواز هذا الامر بعد تحقيق جدلي ، ومن هنا يتحدث عن الدولة الحمدانية ، وينتهي منها بمحاولة سيف الدولة ان يقيم أسس دولته الجديدة في أرض بكر بعيدة عن آله ، وعن لوثات الاعاجم ودسائس المتغلبين .

لقد هداه ضميره الى أرض الشهباء . وهنا فصل تعارضت في شبكة حوادثه بعض الصور الفنية والتأملات الفلسفية .

وهو في هذه الفصول يأخذ بيد سيف الدولة ، هذا الامير الحمداني - من ربوع آله في الجزيرة، متنقلاً معه حتى ينتهي به الى دخوله حلب ، منتزعاً اياها من حكم الاخشيديين حكام مصر وولاتها . وهو يعرض لك الحوادث التي مرت بالامير الحمداني في حلب حتى وطد سلطته فيها . واذا بك بمعرض من فتوحات سيف الدولة وحروبه ، وهو يصور الامير الحمداني في شجاعته وقسوته ، ودهائه ورقته وحزمه تصويراً حياً ، وهو يظهر شخص الامير سيف الدولة في حافل مناحيها والدوافع التي كانت تضطرب في طوايا نفسه فتميل به الى الحركة ، والاهداف التي يرمي اليها ، حتى اذا انتهى من قصة حياة الامير العربي التي تتقلب بين رفعة وذل وعلو وهبوط ، أراك أواخر أيام الرجل وقد انتهت بمأساة ، مَثَله في ذلك مثل ابطال التاريخ التي تنتهي حياتهم في فاجعة او في صورة أشبه بالمأساة ، حيث تتحطم

بهم آمالهم او تخونهم أهدافهم ، مثل الاسكندر الذي يموت في روعة الشباب في بابل ، او قيصر الذي يقتل في روما ، او نابليون الذي يقذف به في جزيرة «سنت هيلانة» أو يبقى وقد صدم في آماله ، وهجره اصدقاؤه وتقطعت بينه وبين أنصاره الاسباب، تحفه الخواطر المزعجة والافكار المرعبة حتى يدانيه أجله مثل سيف الدولة

وقد مضى الباحث في بحثه لايبتعد عن المصادر التاريخية الابقدر يسترسل فيه مع التخيل لاستكمال الصورة التي يرسمها ، أو التصوير الذي يخطه ، وهو في هذا الاسترسال في التخيل لا يذهب في عوالم من الأبهام ، ولا يحلق في سماوات الخيال، وانما يبدو قريباً من الواقع من حيث يملأ به الثغرات التي تركها مؤرخو ذلك العصر في حياة الأمير الحمداني .

وفي ذيل تاريخ حياة الأمير الحمداني لحق يتناول صلاتهم مع آل بويه في فصل وكلام عن صلات المتنبي بسيف الدولة في فصل آخر ، ثم فصول أخرى سريعة عن بعض الشخوص التي مرت في اطار حياة الامير الحمداني فقومت تاريخه ، وكان على جذب ودفع مع شخصه . وموقف الاستاذ الكيالي من مختلف هؤلاء موقف الحيدة ، وان كان هنالك بعض الميل نحو الامير سيف الدولة ، غير ان هذا الميل يكاد لا يستشفه البصر من كتاباته الا بصعوبة .

*****

تستشف ،وأنت بمعرض من حياة الامير الحمداني كما أجلاه الكاتب المحقق الاستاذ سامي الكيالي ، تداخل قوة شخصية سيف الدولة والظروف التي أحاطت به في حياته وفي تلوين حياته بهذا اللون الذي غمس الكاتب فيه ريشته ثم لعب بها على الصفحات التي تجمع بين دفتيها سيرته، فأذا بقصة حياته تبدو في نبضاتها وخلجاتها وما لازمها من التوفيق والنجاح وما أصابها من الفشل والسقوط . كل هذا ،وأنت ازاء الدراسة التي وضعها الاستاذ الكيالي هذه الدراسة التي اشتملت على أسباب تتسق مع الطبيعة التي ركب عليها الامير الحمداني فأوصلته الى ما وصل اليه . وهو في هذا شبيه بعصبة المغامرين أمثال نابليون وموسوليني وهتلر .

غير ان شخصية الأمير الحمداني كما جلاها الكاتب في الدراسة التي وضعها

شخصية مغامرة ، قل ما تشاء عن ذكائها وشجاعتها ودهائها ، وانطباع ذهنيتها على الحيلة والحيطة والتدبير وحسن البلاء في الملمات والاقتدار في الساعات العصيبة ، غير ان روح المغامرة من جانب تجعلها تجازف مستسلمة للقدر ، وهكذا اختلطت شخصية الحيطة مع المجازفة والتدبير والاستسلام للقدر ، فكان من ذلك مزيج ، هو الذي يكوّن تاريخ حياة الأمير الحمداني ويقوّم من جهة شخصيته .

على ان المزيج والخليط من المعلوم والمجهول ليس بالشيء الذي ينفرد به سيف الدولة ، انما هو خاصة من خصائص المغامرين ، الذين يحركون التاريخ من حيث تحركهم وقائعه ، ويخلقون حوادثه من حيث يمضون في الطريق الى اهدافهم . ولم يكن الأمير الحمداني غير واحد من هؤلاء . يرتفع ويهبط ، وهو جلد على الزمان لا يتأثر بهبوطها الا بقدر ، ليعاود بقوة شخصيته الجهاد ، مهيئاً الأسباب للارتفاع ، مقتنصاً المقوّمات ليبلغ هدفه وهو بعد ذلك كله ذلك الانسان الذي يخونه التقدير - مهما أحكمه - ذلك من حيث يتعامل مع المجهول فيستسلم للغيب وما يمكن ان يكون مخبئاً في طياته ، واذا به بعد رفعة يهبط ويذهب طيّ التاريخ بعد ان ترك في صفحته سيرة منشورة ، تتعارض في خيوطها آمال تحطمت ، وعظمة بدت ثم أختفت ، وبطولة لمعت حيناً ثم سرعان ماخبت .

- ٤ -

هنالك بعض الانقسام في شخصية الامير الحمداني سيف الدولة ، وشخصيته في الواقع كما نراها منحلة في شخصيتين متباينتين كل التباين : الشخصية الاولى شخص الذكر Animus والشخصية الثانية شخص الأنثى Anima وهذا الانحلال في شخصية الرجل سبب من اسباب عظمته التي خلدته على الزمن بين ابطال العرب ويمكن للباحث ان يلمس هذا الانقسام في الشخصية عند الامير الحمداني في حبه اقتناص الفرص وتصرفه في الأحوال وامتلاك الظروف وتوجيهها من جهة واستلامه من جهة أخرى للغيب وللقدر . على ان هذا الانقسام الملحوظ في شخص

سيف الدولة ، ملحوظ ايضاً في اشخـاص جميع المغامرين من الاحياء الذين ذهبوا طيّ الزمن . على انه من المهم ان نلاحظ ان روح الرجل Animus من شخص الامير الحمداني كان يتقوّم بها جهاده وجلاده وروحه الحربية كما كانت تتقوّم بروح المرأة Anima من شخصه روحه الشاعرة وطبيعته الفنيـة ، والشخصية الاولى شخصية الرجل تبدو لك قوية من سيرة الامير الحمداني بينما شخصية الانثى تبدو ضعيفة بجانبها ، على ان هذا الضعف يعود بأصل الى تغلب شخص الذكر في روحه على شخص الانثى .

اما شخصية الامير الحمداني سيف الدولة كما اجلاها الكاتب المحقق الاستاذ سامي الكيالي فأهم شيء فيها توكيده ظهور جانب الشخصية على جانب الظروف والاحوال على ان هذا التوكيد منه يحتاج لابراز شخصية متعاملة مع الظروف في سورة تخلق الحوادث وتوجد الوقائع : ذلك ان شخصية الامير الحمداني ، عن طريق التعامل مع الشخصيات الأخرى ، مدفوعة الى ذلك بطبيعته التي ركبت عليها تخلق مجرى السيرة التي تركها في مجرى التاريخ . على ان الكاتب عفي في كتابه مغلباً طريقة العرض ، وهذه تتسق مع منطق الحوادث لا منطق الشخصيات . ومن هنا كان عيب ملحوظ بين توكيد المؤلف لظهور جانب الشخصية في كتابه وأظهاره الشخص في معرض من حركة الحوادث .

على هذا يمكننا ان نتكلم عن منحى أبداع الكاتب في السيرة التي كتبها عن الأمير الحمداني ، في أنها تتقوّم بفن الحوادث ، تسودها طريقة العرض فتتشابك الحوادث والوقائع في صفحة تتعارض في شبكتها الشخصية التي تقص سيرتها . وهذه الطريقة لا تلقي ظلا كبيراً على الشخصية التي تقص سيرتها ولا تقيم لها اطاراً ولا تتقوّم بالتصوير الذي يجعلك ترى العصر والرجل بمشهد من نفسك وبمرأى من بصرك

على ان هذا المنحى في الابداع يلوّن الكتاب بلون خاص من حيث يتسق مع طريقة التفنن في العرض ومنحاه . ذلك ان فن الحوادث يتطلب حركة عالية كثيرة الاصوات ، ظاهرة النبرات ، واضحة الخلجات ، وهذا ما تلمسه في الكتاب

خصوصاً في وصف الكاتب حيث يحمل الأسلوب حركة ويعطي اللوحة سعة ويعمل على التناسب في الخطوط والألوان .

غير ان الحركة في الاسلوب والسعة في التصوير تحتاجان ان تكون الخطوط والالوان قوية رغم تناسبها، ظاهرة رغم أنساقها ، وتكاد تكون هذه من أخص ما يميز أسلوب الاستاذ الكيالي في دراسته هذه ، وفي كتابه «شهر في اوروبا» الذي أصدره من اعوام خلت .

هذه الحركة في الاسلوب، والسعة في اللوحة، والقوة في الألوان، والظهور في الخطوط تذهب مع العاطفة المتقدة والمشاعر الفائرة ، فتعطي الكتاب طابعاً «رومانسياً» من جهة الشكل . والواقع ، ان الاستاذ الكيالي يتناول في دراسته هذه شخص الأمير الحمداني بحرارة ، وهذه الحرارة يسلطها على عصر الرجل وحياته فينبض بالحياة التي تغمرك وتجعلك تعيش فيها برهة من الزمان .

*****

أسلوب الكتاب تنقصه الدقة التعبيرية وشيء من صقل الألفاظ ، والواقع، ان هذا النقص يغطي عليه ما يتوهج في الكتاب من عواطف ومشاعر؛ والحقيقة، ان المؤلف يشترك في هذا الوضع التعبيري مع كل كتّاب سوريا ولبنان على وجه عام، ذلك ان الحيوية التي يمتازون بها ، والنشاط والحركة التي تقوم بها أرواحهم لا تترك لهم مجالا للتأني في أختيار الشكل الذي يصوغون فيه المعنى والفكرة. أو فرصة لصقل العبارة؛ وهم في ذلك على نقيض أخوانهم من كتّاب مصر الذين تساعدهم طبيعتهم الساكنة وروحهم التي لها طابع الاستقرار . ان يصقلوا عباراتهم ويصوغوا ما في عقولهم من المعاني او الفكر في أشكال تمتاز بدقتها التعبيرية وطابعها المصقول ، فأن كان في جهة مصر دقة التعبير وصقل العبارة ففي سوريا ولبنان توهج الشعور، وغلبة العاطفة، وبروز الروح، وحركة الأسلوب، وسعة اللوحة، وظهور الألوان ، ووضوح الخطوط . وما كان يستطاع الاستاذ الكيالي الا ان يكون من جانب سوريا ولبنان نزولا على حكم مولده وأصله ومنشأه وثقافته.

خاتمة

اما وقد انتهينا من التقدمة الى هذا الحد ، فلي ان أختتمها بكلمة عن صديقنا صاحب الدراسة .

الواقع ان الكاتب المدقق الاستاذ سامي الكيالي كاتب نابه على جانب كبير من النشاط . نجح في ان يجعل حلب - عاصمة الحمدانيين على عهد سيف الدولة - مركز نشاط أدبي قوي ملحوظ من كل العالم العربي ، ومدار هذا النشاط كان ولايزال مجلته الراقية «الحديث» التي خطت لليوم ثلاثة عشرة عاماً ، ولا شك ان هذا حدث عظيم في تاريخ هذه المدينة التي غرق حاضرها في لجة ماضيها والتي لم تكن مركز أي نشاط ادبي ملحوظ في الأزمنة الاخيرة .

لقد كانت الروح الاقتصادية والنشاط التجاري تطغيان على كل شيء ، من حيث كانت تتمثل فيها روح المدينة . على ان هذا النشاط التجاري من حيث افتقد مقوماته الخارجية نتيجة للاوضاع السياسية التي قامت بعد الحرب العظمى في الرقعة التي تمتد من صحراء بلاد العرب حتى آسيا الصغرى ، فقد تحول ببعض ابنائها هذا النشاط الى الجانب الثقافي ، فكان ان اصبحت حلب في السنين الاخيرة مركز نشاط أدبي وحملت مشعل الثقافة في سوريا الشمالية . على ان ما شهدته مدينة حلب من ألوان النشاط الأدبي كان محوره الاستاذ سامي الكيالي الذي افتتح حياته الأدبية عقب الحرب العظمى بمقالات كان يرسلها على صفحات كبرى المجلات الادبية المصرية . ولقد جمع منها باكورة آثاره في كتاب «نظرات في الادب والاجتماع» ، ثم كان ان أصدر عام ١٩٣٥ كتابه «شهر في اوروبا» وهو عرض سريع لما ترآى له في رحلته القصيرة الحافلة بمختلف الصور في بلاد الغرب وفي هذا الكتاب يبدو فن الاستاذ سامي الذي يتميز بالحركة في الاسلوب ، والسعة في اللوحة ، والزخور في الصور الفنية ، والاطلاق للمشاعر المترعة من الوجدان

تفيض بالحياة والحرارة . واذا نحن نظرنا الى كتابه «سيف الدولة وعصر الحمدانيين» وجدنا الاستاذ سامي يكشف عن ناحية قوية من نواحي نشاطه .

واذا كنت الآن أخلي بين القارئ وكتاب الاستاذ سامي الكيالي فأني أشعر بأن القارئ سينعم فترة من الزمن في هذا الجو الفني الذي خلقه المؤلف في كتابه وأني أشكر لصديقي هذه الفرصة التي مهدّ لي فيها ان أعيش في كتابه ، آملا ان يجد القرآء ما وجدته في الكتاب من متعة ولذّة .

اسماعيل احمد ادهم

عضو أكاديمية العلوم الروسية

أول مايو ١٩٣٩

١١ ربيع الاول ١٣٥٨

توطئة

أترى المتنبي مديناً بشهرته الى سيف الدولة ام أن الأمر بالعكس؟..
ام كلاهما عصاميان قد ربطت بين قلبيهما العظمة فتلاقيا على ضفاف
العاصي وما ان تقدم الشاعر الى الامير بقصيدة من قصائده الغرحتى
تعارفا وظلا في صحبة بعضهما عشر سنوات كاملة الى ان فرق الدهر
بينهما او قل نفث الحساد سمومهم في شعبات قلبيها فترك الشاعر اميره
وقلبه يردد هذه الحرقات :

أزل حسد الحساد عني بكبتهم	فأنت الذي صيرتهم لي حسدا
اذا شد زندي حسن رأيك فيهم	ضربت بسيف يقطع الهام مغمدا
وما انا الا سمهري حملته	فزين معروضاً وراع مسددا
وما الدهر الا من رواة قصائدي	اذا قلت شعراً اصبح الدهر منشدا (١)

---

(١) لم تكن هذه الابيات هي آخر ماقاله قبل مغادرته حلب ، ولكننا اخترناها لأنها تصور منازع نفسه اصدق تصوير ، ويتفق المؤرخون على ان آخر ما أنشده من الشعر الميمية التي يقول في اولها :

عقبى اليمين على عقبى الوغى ندم ماذا يزيدك في اقدامك القسم

يذهب البعض الى ان المتنبي هو الذى خلد سيف الدولة بقصائده التي قد تزيد على ثلث ديوانه !.. وانه لولا المتنبي لما دوى اسم سيف الدولة هذا الدوي القوي الذي يغيب في طواياه الكثير من ذكرى امراء الاسلام .. وقد يكون في هذا بعض الحق .. اما نحن فلسنا من هذا الرأي .. نحن نذهب الى ان الامير الحمداني هو الذي ألهب شاعرية المتنبي بغزواته وحروبه، وبعطاياه وهباته ، وهو الذي ساعد على ذيوع اسمه وخلود ذكره بهذا العطف الذي حباه به وبتفضيله على غيره من الشعراء فأبدع وأطرب وتفجرت الحكمة ريانه من جوانب قلبه وطوايا نفسه!.. ثم أليس في اصطفاء سيف الدولة للمتنبي الشاعر الذي قدمه اليه والى انطاكيه ابو العشائر الحمداني ما ينم على ماكان يتقد به قلب امير حلب من حب ٍ صميمي عميق للادب الزاخر بروائع الحكمة ، ومن إجلال خالص لشاعر عبقري عرف كيف يذيع اسم اميره عالياً ويرتفع به الى السماكين !..

لقد نشأ على هامش الدول الاسلامية امراء كثيرون، واتصل بهم شعراء كبار نفحوهم بشعر قوي وبعاطفة رزينة فما كانت تلك القصائد لترفع بأولئك الامراء الى المكانة السامقة التي يتربع عليها الامير سيف الدولة في صدر التاريخ .. ومرد هذا ، على ما اعتقد ، عظمة

سيف الدولة . والشاعر مهما عمد الى المبالغة في رسم صفات ممدوحه فهو لايستطيع ان ينأى عن الحقيقة..(وفي حياة سيف الدولة حقيقتان بالغتان :(مغامراته الفذه كأمير خاض مئات المعارك الدامية في حروبه مع الروم (ونفسه الكبيرة التي تراقصت على اشعة ضوئها مئات السجايا النبيلة التي حار الشعراء في رسم صورها ووصف الوانها)هاتان الحقيقتان هما اللتان ايقظتا مئات المعاني الجديدة في نفس المتنبي .. واذن ، فلسنا نبتعد عن الواقع اذا هززنا هذا الاتجاه الذي يردده بعض مؤرخي الادب بأن المتنبي هو الذي خلد سيف الدولة وانه لولا المتنبي لكان ـ الامير الحمداني ـ نسياً منسياً !، فسيف الدولة لم يشتر قصائد شعرائه بالمال ؛ بل كانت اعطياته صدى حقيقياً لتذوقه الادب واكرامه لرجال الادب . لأن من يحاول ان يبتاع ضمير الشعراء عاله يكون في حاجة الى المجد والعظمة اما سيف الدولة فكانت العظمة والمجد بعض نثار برديه ،. لهذا ، نحب ان ننصف سيف الدولة من ظالميه دون ان نغمط الشاعر المتنبي ـ مالئ الدنيا وشاغل الناس ـ ولا غضاضة اذا قلنا ان المتنبي كان مديناً ـ الى حد ما ـ بشهرته الى سيف الدولة بن حمدان ، هذا (الامير العربي الذي لم تكن فروسيته وغزواته وحبه العميق للادب موضع اعجاب المؤرخين العرب فحسب

بل هزت مناقبه وعبقريته المغامرة في الجدب والحروب مشاعر مؤرخي الافرنج فخصوه بالكثير من بحوثهم ودراساتهم مما جعله في طليعة الامراء الذين تحاك حول اسمائهم هالة مضيئة من المجد).

(يقول غوستاف سيشامبرجر «شغل سيف الدولة اذهان المؤرخين والكتاب والشعراء في القرن العاشر فما ان تقرأ صفحة لمؤرخ بزنطي، او قطعة لكاتب من كتاب ذلك العصر، او قصيدة من قصائد شاعر من شعراء العرب او اليونان حتى يستهويك الوصف والحديث عن هذا العدو الجذاب الذي حارب الامبراطورية البيزانطية بفرسان كان نصفهم من شعراء البوادي وكان نصفهم الآخر من امراء الحواضر (١)..»

ويقول الكاتب في موضع آخر:

«لقد اقسم مؤرخ بزنطي زار حلب في عصر سيف الدولة ان قصور الخلفاء في بغداد وقصور ملوك الروم في القسطنطينية كانت اقل بهاء من قصور سيف الدولة. وقال هذا المؤرخ ان الفنون على تباين انواعها كانت مضطهدة في عاصمة المسيحية. ولكنها كانت تنعم بتسامح كبير في عاصمة الدولة الحمدانيه.. وقد كان المصورون والمثالون من الروم يخرجون من ديارهم على كره منهم لان قيصر

قد أرادهم على هذا التشريد .. فكانت حلب تستقبل جميع هؤلاء، وكان سيف الدولة يكرمهم ثم يستفيد منهم ويمتحن عبقرياتهم ثم يستغلها استغلالاً حسناً ويقبس من تحاسينها وتزاويقها ما يزيد في تحاسين حضارة بلاده (٢)..»

وقد يكون من الغضاضة بمكان الازدراء بمفاخرنا القومية واهمال دراسة هذا الامير العربي الفذ وله من خصومه هذه المكانة التي يحسده عليها أكابر القواد المغامرين ليس في العصور القديمة بل حتى في هذا العصر .. في الواقع ان سيف الدولة يختلف عن غيره من امراء الاسلام بل يمتاز عليهم بمفاخر كثيرة : بفروسيته ، بتذوقه الرفيع للادب ، بروحه الكبيرة التي كانت تحلم بالسيطرة وتأسيس مملكة عربية مترامية الاطراف ، بايقاده نيران الفتح في صدور فتيان العرب ، بغزواته وحروبه التي صدت عاديات الروم عن بلاد الشام واطراف العراق غير مرة، وبمغامراته وحبه ، وبكرمه وعطاياه التي كان ينفح بها جيوب الشعراء فيهز قرائحهم هزاً مثمراً ، ثم بهذه المجالس الادبية التي كان يرأسها، وباشياء كثيرة نحب ان نعرض اليها في هذه الدراسة لنجلي بعض هذه المناقب المثلى المبعثرة في كتب

(٢) الاستاذ معروف الارناووط في فتى العرب عدد ٣٢٣٥ (١ اذار ١٩٣٣)

الادب والتاريخ ولنربط بين هذه الصور وبين تاريخ حلب الأدبي في العصر الرابع الهجري .. بلى .. وانا انحب ان نرافق هذا الامير في مراحل حياته وان نبعث بعض هذه الذكريات الدفينة من قلب التاريخ ففي تقصي هذه المراحل مايثير امامنا الكثير من القصص المليئة بشتى الصور التي نرى في اصباغها هذه الالوان الجديدة التي كادت تغيب في احشاء العدم !

* * * * *

(ولد سيف الدولة ، ابو الحسن ، على بن عبد الله بن حمدان التغلبي الربعي سنة ٣٠٣هـ - ٩١٥م وفي رواية سنة ٣٠١هـ في ميّافارقين - او مدينة الشهداء - اشهر مدن دياربكر .. وهي المدينة القديمة التي يحدثنا ياقوت في معجمه احاديث طويلة عن ازدهارها بالابراج الكنائسية وبصور القديسين واقاصيصهم منذ عهد البزنطيين)..

ولسنا نعلم شيئاً عن طفولة اميرنا ، ولكن هذا لايمنع ان نلمس صورها على ضوء الخيال والافتراض .. في الواقع .. ان اميرنا الطفل لم يولد في بيت زري ، ولم يحتوه كوخ قد ازورّت في جوانبه الاقدار .. كلا . فقد ولد في بيت تشرق الشموس في آفاقه

وتفوح العطور من اجوائه .(ولاشك ان اباه قد رعاه هذه الرعاية الارستوقراطية التي جعلت عينيه تتفتح على مباهج الحياة ومفاخر المجد وان يتطال عنقه الى صولجان الملك .. وتشاء الاقدار الباسمة ان تقترن ولادة سيف الدولة بارتقاء ابيه امارة الموصل وأرض الرافدين فأية نشوة فرح هذه التي هزت قلوب الحمدانيين ؟.. ان اميرنا الطفل في غفوة عن هذه المباهج فهو في سرير الطفوله ينعم بأحلامه الذهبيه ، تهزه يد جواريه أو يدٌ رحيمة هي يد أمه الحنون التي تقرأ في وجهه الصبوح مخائل الملك . واذ تهز سريره كأنها تهز اعصابه ليشب سريعاً وايكون عضد ابيه في رفع هذا البيت الحمداني الكريم ..

(يقول المستشرق اندره دافنتس متحدثاً عن طفولته في روايته الطريفة التي كتبها عن تاريخ حياته : «انه منذما ابتدأ الامير سيف بالمشي عرف الناس انه سيكون الاكثر جمالاً بين ابناء حمدان ، وكان وجهه يبتسم كما يبتسم الياسمين في الربيع ، وبرقت عيناه بنور النجوم ، وامتلأ قلب والدته انتعاشاً وكانت ابتسامته تتفتح على الناس كما تتفتح براعم الازهار عند الصباح . وكان ذكاؤه حاداً ومستغرباً) لهذا وضعه والده بين ايدى حكماء الموصل العظماء الذين لقنوه العلوم

والشعر ، وكان يريد ان يجعله عالماً يفوق جميع علماء بلاطه ، انما الله وحده يعرف مايعرف .. وما قُدِّر يكون !! » .

(اذن ، فلم يكد الامير سيف يبلغ العقد الاول من حياته حتى اسلمه ابوه الى العلماء والحكماء يدربونه ويلقنونه الحكمة وصنوف العلم ، وقد كان ذكاؤه الحاد خير مشجع له على ان يزدرد حكمة وعلوم ذلك العصر ، أي ان يأخذ من كل شيء بطرف ، وان يهز قلبه الادب والشعر اكثر من كل شيء .. وان يكون لهوه في القنص وركب الخيل والرمي ، وان تخفق قلوب الفاتنات بحبه ، وان تكون اقاصيص الغزوات والحروب هي أشهى مايستهوي فؤاده ..

ويشب اميرنا الطفل ، ويصحب اخاه الى بعض الغزوات ، ويظهر شجاعة نادرة واقداماً عظيماً وصبراً على المكاره وبلاءً حسناً في خوض المعارك ، ويذيع اسمه في الموصل واطراف الجزيرة ثم يسافر الى بغداد وينعم بعطف الخليفة المقتدر وتزداد الاحاديث عن شجاعته ومغامراته ويشاهد عن كثب او عن قرب هذه الاضطرابات التي انتهت بقتل ابيه وخلع الخليفة المقتدر فيزداد حنقاً وثورة ووثوقاً من نفسه وايماناً بالله)

(وسيف الدولة شاب عصامي ، وفتى مغامر ، ورجل تشع مخائل

الفتوة من بريق عينيه ، أحس وسط هذه الزعازع العصبية ان الامارة قد القت اعباءها على كتفيه . فاقدم ولم يحجم ، ولم يخف تجهم الزمن وعبس الاقدار بل ادرع للاهوال بنفس مليئة وقلب جياش وايمان قوي وعزم يصارع الاحداث ..

ولو ان غير سيف الدولة ولد في هذا العصر الذي كان يعج بالدسائس والاضطرابات وقد ضربت الفوضى رواقها في كل بقعة اسلامية واصبح الخلفاء ألعوبة بأيدي الاعاجم - لو ان فتى غير سيف الدولة جابه هذه الاحداث لابتلعته وطوت اسمه دون ان تفسح له صحف التاريخ ولو سطراً واحداً!. [ولكن الامير سيف عرف كيف يشق لنفسه طريق المجد ، وعرف كيف يثور على الاضطرابات وكيف يؤسس مملكة جديدة على انقاض العروش والتيجان فما كاد يبلغ الربيع الثاني من حياته حتى كان قد استولى على «واسط» وما جاورها ثم مال الى الشام فامتلك دمشق بعد ان طرد الاخشيديين ومنها عاد الى حلب فملكها عام ٣٣٣ هـ . وهنا ذاع صيته وسما مجده وخلد اسمه بين اعاظم امراء العرب والاسلام].

الحمدانيون

نحب قبل ان نعرض الى حياة سيف الدولة وقبل ان يتناول بحثنا « الدولة الحمدانية » ان نخص هذا الفصل بالحمدانيين : من هم ؟ كيف نشأوا ؟ بمن اتصلوا ؟ كيف فرضوا نفسهم على التاريخ ؟ ماهي الاحداث التي مرّت بهم أو مروا بها؟ في عهد مَنْ من الخلفاء كانوا ؟ ماشأن اولئك الخلفاء من العهد العباسي ؟ ثم ماهو لون السياسة في ذلك العهد ؟. . ان بحث هذه النواحي وكشفها على ضوء التاريخ سيساعدانا على بحث الدولة الحمدانية وتناول سيرة سيف الدولة بالاسهاب الذي نريد ان نعرض اليه ... وإذ نتساءل في صدر هذا البحث عن الحمدانيين .. مَنْ هم ؟ من اين تحدروا ؟ الى أية قبيلة يمتّون ؟ يجيبنا عليه المؤرخ الكبيرابن خلدون بقوله :

«ينتسب الحمدانيون الى قبيلة تغلب ، وكان بنو تغلب بن وائل من اعظم بطون ربيعة بن نزار، وكانوا من نصارى العرب في الجاهلية ولهم محل في الكثرة والعدد ، وكانت مواطنهم في الجزيرة وديار

ربيعة ، ثم ارتحلوا مع هرقل الى بلاد الروم ، ثم رجعوا الى بلادهم وفرض عليهم عمر بن الخطاب الجزية ، فقالوا يا امير المؤمنين لاتذلنا بين العرب بأسم الجزية واجعلها صدقة مضاعفة ففعل ، وكان قائدهم يومئذٍ حنظلة بن قيس بن هرير من بني مالك بن بكر بن حبيب بن عمرو بن غنم بن تغلب ، ثم كان منهم بعد ذلك في الاسلام ثلاثة بيوت : آل عمر بن الخطاب العدوي ، وآل هرون المغمر ، وآل حمدون بن الحدث بن لقمان بن اسد(1) »

وعلى هذا فالحمدانيون بطن من بني تغلب بن وائل من العدنانية أي انهم يتحدرون من اصل عربي صميم ، من العدنانية التي ولدت العربية في كنفها ، وما زالوا يتنقلون بماشيتهم واموالهم وخيامهم على حالة القبائل العربية من تهامه الى نجد الى الحجاز الى ارض ربيعه الى ضفاف الفرات حيث نزلوا سهل الرقة الفسيح ومنها انتقل حمدان بن حمدون الى الموصل . وكان حمدان جد الامراء الحمدانيين رب قبيلة تنظر اليه بقية القبائل بالتجلة والاحترام . انجبت عدة اولاد نشأوا نشأة عصامية والقوا بانفسهم في ميادين المغامرة والحرب فانتصروا وخذلوا وكانت حياتهم تتصف بالعنف والقوة ولا تعرف

(1) ابن خلدون ج ٤ ص ٢٢٧

الهدؤ والسلم الا لماماً. وقد رافقت نشأة الحمدانيين ضعف الدولة العباسية وغروب شمسها فكان الخليفة العباسي وهو يشهد تقلص سلطانه وضعف كيانه أشبه بهيكل عظمي يقنع من مظهره الخارجي بان لاتمتد اليه يد التحطيم ! .

لقد سما العباسيون الى المجد في أول نشأتهم وظلوا عصراً كاملاً رمزاً للسيادة الفكرية والسياسة ، وما ان تهاونوا بالعصبية العربية وافسحوا المجال للاجنبي الدخيل : للاتراك والفرس وللديلم والسلجوقيين ـ حتى بدأ الضعف يدب في كيانهم فتمزقت سيادتهم واضطرب نظامهم وعمت الفوضى في كل بلدة وصقع ونفذت عناصر الفساد الى صميم الحياة فطبعتها بلونها القاتم واصبحت الخلافة اسماً موهوماً والخليفة شبحاً ضئيلاً مماحدا بكثير من المؤرخين ان يتفقوا على ان كلمة الاسلام قدتفرقت في دولة بني العباس. ولسنا نريد ان نسترسل هنا بذكر الاحداث التي مرت بالدولة العباسية بعد ازدهار سلطانها مدة عصر كامل أي بذكر هذه العواصف التي هبت عليها في اواخر القرن الثالث للهجرة حيث انتهت الى حالة من الانحدار والضعف أدّى الى ان يستغل كثير من الامراء هذا التفكك وان ينشأوا لهم حواضر مستقلة وامارات مختلفة انتهت بانحلال تلك

الامبراطورية الكبرى التي اورثها الخلفاء الراشدون والامويون الى العالم الاسلامي . نعم ، لسنا نريد ان نسترسل بذكر هذه الاحداث ولكن هذا لا يمنع ان نشير الى الاسباب التي يرددها صفوة المؤرخين من عرب ومستشرقين ومَن عرض الى الدراسات الاسلامية - الى أن اعتماد بعض الخلفاء العباسيين - وفي طليعتهم المعتصم وابنه الواثق - على الاعاجم واقصائهم العرب عن حظيرة الملك والانتقاص من كفاءتهم والشك في اخلاصهم مما جعل امراء العرب يمتعضون من هذا الايثار الذي مس عصبيتهم وكان - كما قدمنا - سبباً مباشراً لتدهور تلك الامبراطورية العظمى وتمزق وحدتها تمزقاً مريعاً !..

والذي يمعن بدراسة اطوار الاضطراب التي وسمت العهد العباسي بعد سيطرة الاعاجم على الخلفاء يحس بالهلع يهز نفسه هزاً مؤلماً .. (ذلك لان الامر لم يقف عند سيطرتهم السياسية وتدخلهم الاداري في جليل الامور وحقيرها بل وصلت بهم الخساسة والكيد ان يتعمدوا اهانة الخليفة لا لسبب يدعمه المنطق بل لمجرد اعلان سيطرتهم وتطمين شهوتهم في الحكم وجشعهم في المال). ومأساة الخليفة المعتز ترينا لوناً قاتماً من ضعف الخلافة وتهلهل ثوبها الفضفاض . وخلاصة هذه القصة الحزينة ان قواده وجلهم من الاتراك تقدموا اليه يوماً

يريدون مواجهته فاعتذر اليهم فلم يصغوا الى اعتذاره والحوا بوجوب مقابلته فقبلهم في قصره مضطراً ـ وكأنه شعر بما يخبأون له من مكائد فاراد ان يردهم فلم يوفق ـ وما كادوا يدخلون عليه حتى تناولوه بالتقريع ثم بالضرب بالدبابيس حتى تمزقت ثيابه وسال الدم عن منكبيه ولم يكتفوا بهذا ، بل اقاموه مدة في وهج الشمس تشوي حرارتها اقدامه . وكانوا يلطمونه احياناً فيتقي اللطمات بيده .. ويزيد الطبري الذي نقلنا عنه هذا الخبر انه لما خلع دفع الى من يعذبه فمنع عنه الشراب والطعام ثلاثة ايام وقد وصل به الظمأ انه طلب حسوة من ماء البئر فمنعوها عنه . ثم جصصوا سرداباً بالجص السخين لم يكد يحمى حتى ادخلوه فيه واطبقوا عليه بابه فاصبح ميتاً او استحال رماداً !.. وهذا بدون ريب افظع انواع التعذيب . وقد يسئل القارئ ولم كل ذلك ؟ يجيبنا الطبري ان جند الاتراك قد طالبوه بارزاقهم أي برواتبهم فلم يكن لديه المال الكافي لدفع هذه الرواتب فانتهت حياته بهذه المأساه الموجعة !.. ولقد تكررت هذه المآسي بالوانها الداكنة المظلمة مع غير واحد من الخلفاء ، منذ عهد المعتصم حتى المتقي الذي خلفه القائد التركي توزون بعد ان سمل عينيه !

ولم يكن الخليفة سوى رئيس ديني لا امر له ولا نهي بل ولا

وزير يعتمد عليه وكل ما هو تحت سيطرته كاتب يدير له اقطاعاته واخراجاته ؛ وقد لانعدو الحقيقة إذ التمسنا صورة الكثير من الخلفاء العباسيين في عصر الاضطراب في شخص السلطان محمد رشاد الخليفة العثماني الذي كان سلطانا بالاسم وكان الامر كله بيد الاتحاديين ، ولكن الاتحاديين اكتفوا بالسيطرة والغلبة وتدبير شؤون الملك دون ان ينالوا السلطان بالاذى لأنه اطلق لهم الحبل على غاربه اما الخلفاء العباسيون فكانوا ـ على مايظهر ـ يقاومون هذه التهجمات من وراء ستار خفي !. ولو اننا نتكلم عن بعض الخلفاء العباسيين في هذه الفترة التي بدأت بزوال سلطتهم لكتبنا فصلاً في المقارنة بين تفكك السلطنة العثمانية والدولة العباسية والاحداث التي رافقت سقوط المملكتين مما يجعلنا ان نردد هذه الكلمة التي اصبحت رمزاً تاريخياً لتشابه الاحداث وهي ان التاريخ يعيد نفسه، أي ان صورة تتكرر بتوالي الاحقاب والازمان !

* * * * *

شهد الحمدانيون هذه الاحداث التي هزت الامبراطورية الاسلامية هزة انتهت الى انفراط عقدها وظهور دويلات وامارات مستقلة على يد الاتراك والفرس والكرد وبعض القبائل العربية ،وشهدوا تقلص نفوذ العرب وذوبانه تحت سيطرة الدخلاء بشكل مزر

فرأوا ان يقوموا بنصيبهم من حمل هذا العبء وان يصونوا التراث
العربي وان يذودوا مااستطاعوا هجمات الروم عن الثغور الاسلامية..
فجرّت المنافع المادية بعضهم الى الهاوية حيث المطامع تثور وتغلي
وارتفعت المبادئ السامية ببعضهم فكان دفاعهم عن العروبة والاسلام
مجيداً. على اننا ونحن نتكلم عن الحمدانيين نحب ان نلم المامة بهذه الاحداث
التي احتملوها خلال هذه الفترة التي ابتدأت عام ٢٢٢ هـ وانتهت أو
كادت ٣٣٤هـ حيث سما مجد الحمدانيين على يد الامير المغامر سيف الدولة .

* * * * *

(رافق ظهور الاسرة الحمدانية ارتقاء الخليفة المعتضد عرش الخلافة
وقد استلمها وهي على ماهي عليه من التفكك والانحلال، اراد هذا
الخليفة ان يرأب الصدع وان ينهض بهذه المملكة الكبيرة
وان يعيد لها رونقها وبهاءها بكل مافي نفسه من حب الاصلاح
ومافي شخصيته من سمات الحزم وقوة القلب وشجاعة الرأي ولكن
هيهات هيهات ان يبلغ وطره وان تحقق امانيه !.. لقد كانت
الجزيرة في اضطرابها الدامي ، وكان القرامطة يعيثون في البلاد
فساداً ويهزون العقائد هزاً عنيفاً ، وكان التشاد بين الاتراك والعرب
قد بدأ لاول مرة في عهد المعتضد ؛ وكان تخلي العباسيين عن

العرب والتمكين للاعاجم في شؤون الملك سبباً مباشراً لان يحافظ
عرب الجزيرة وبالاخص بني ربيعة وبني مضر على استقلالهم . وكان
اكثر هؤلاء العرب خروجاً على تلك الاوضاع الشاذة عرب بني
شيبان الذين اضرموا الثورة في طول البلاد وعرضها مما اضطر الخليفة
ان يطفئ لهيب هذه الثورة فوفق الى اطفائها بكثير من الجهد .
ثم اراد بعد ان اخضع بني شيبان ان يهز هذا الاستقلال الذي اعلنه
حمدان بن حمدون جد الاسرة الحمدانية في قلعة ماردين . كان ذلك
سنة ٢٨١هـ فجهز المعتضد جيشاً كبيراً وسار به الى ماردين . واتصل
الخبر بحمدان فانهزم في جوف الليل وترك القلعة الى ابنه الحسين
الذي دافع عنها دفاع الابطال فلم يستطع الخليفة ان يستولي عليها
ورجع بجيشه الى الموصل وكتب الى حمدان يطلب اليه الخضوع
والاستسلام فأبى ، عندئذ جهز جيشه للمرة الثانية وناط امره بغير
واحد من كبار القواد الاتراك وسار هو على رأس هذه الحملة الى
ماردين مما اضطر ابن حمدان ان يستسلم هذه المرة وان يفتح باب القلعة
للخليفة الذي لم تكد خيوله تطأ ارضها حتى أمر بهدمها بعد ان نقل
كل ما فيها من ذخائر ونفائس الى بغداد . ثم رأى ان استيلائه على
القلعة لا يحقق امانيه من اخضاع الحمدانيين فارسل مَنْ يتعقب

حمداناً ولكن اين هو حمدان ؟ هل اختبأ في ركن مظلم كالخائف الرعديد ؟ لا . لقد استقل زورقاً كان له على ضفاف الدجلة وعبر به الى الجانب الغربي أي الى ديار ربيعة حيث نزل في خيمة رجل من الخوارج واستظل بحماه دون ان يعلم من أمر هـذا الخارجي شيئاً ، وظنه من هؤلاء الذين اعلنوا الثورة والعصيان على الخليفة مع انه قد اعلن توبته واستسلامه الى الخليفة من عهد غير بعيد ... وبعد ان اجار حمدان وآواه نكث عهده وسلمـه الى الخليفـة الذي زجه في غياهب السجن .

اذن ، فسيرة جد الاسرة الحمدانية تبدأ بالثورة على السلطان واعلان الملك والدخول في معامع وقتال طويل ثم تنهى ثورته بالاستسلام وبدخوله السجن .

وظهر في خـلال هذه الفترة خارجي من القرامطة اسمه هارون الشاري ، وكان رجلاً مغامراً ، خاض عدة حروب ولديه قوة كبيرة ورجال اشداء استطاع ان ينتصر بهم على جيوش الخليفة مما اقلق باله واقض مضجعه ، وبعد ان خذل غير مرة رأى ان يستعين بالحمدانيين أي ان يضرب الحديد بالحديد كما يقولون ؟ فمن هو الذي سيغامر بهذه الحروب ؟ ومن هو البطل الذي سيقضي على هذا الخارجي المتمرد ؟

رأى الخليفة بعد تفكير طويل ان الحسين بن حمدان هو خير من يقوم
بهذه المهمة فندبه لحرب هارون ولـكن جرح الحسين بن حمدان لم
يلتئم بعد فتردد اولاً ثم رضي بعدأن اشترط على الخليفة ثلاثة شروط
إن هو وفق في مهمته . سأله الخليفة ماذا تـكون شروطك ؟ اجابه
على الفور : اطلاق سراح أبي ... وسكت . فقال له الخليفة ثم ماذا ؟
فصمت دون ان يحير جوابا ، ثم قال للخليفـة اني اذكر مولاي
الخليفة بالشرطين الباقيين بعد ان اوفق فيما نـدبت اليه !.. وسار على
رأس جيش من جنوده واتباعه مـع جيش آخر انتدبه الخليفة وعلى
رأسه قائد تركي ـ وقد يكون من الذين حاربوا الحسين في معركة
ماردين ـ فما زال مع هارون الشاري في حرب ضروس حتى ظفر به
واقتاده اسيراً الى المعتضد ، فسر الخليفة جداً وعرف للحسين بلاءه
وبطولته فأمر حالاً باطلاق سراح ابيه من السجن وطوق عنقه بالهدايا
الثمينة وخلـع على اخوته العطايا واحسن الى هـذه الاسرة العربية
احسانا جعلها موضـع رعايته وعطفه .. وقـد يسأل القاريء وماهما
الحاجتان اللتان لم يبح بهما آنئذ للخليفة فنستطيع ان نقول انهما طويا
في نفسه دون ان يبيح بهما !.

ودخل الامراء الحمدانيون بعد فوزهم هذا في طاعة الخلفاء وفي خدمتهم

فتقلدوا المناصب الرفيعة ومنحهم الخليفة ولاية الموصل فاستقلوا بها ثم وسعوا نطاق حكمهم الى ديار بكر والجزيرة وسوريا مما سيجيء الكلام عنه مفصلاً في الفصول الآتية.

وبوفاة المعتضد خلفه على سرير الخلافة ابنه المكتفي عام ٢٨٩ هـ وسار المكتفي على خطة ابيه من الثقة بآل حمدان والركون اليهم في كافة الشؤون لانه رأى فيهم العنصر العربي القوي الذي يشارك الخلفاء في شعورهم واحاسيسهم. ورأى المكتفي ان يولي ابا الهيجاء على الموصل واعمالها (١) فنزل هذا العطف من نفسه اعظم منال ورأى ان يشخص الى بغداد على رأس جيش كبير ليقدم الى الخليفة خضوعه ويشكره على هذا العطف الذي حباه به. ولم يكد يرأس حفلة عرض الجيوش بأمر الخليفة حتى شاع في العاصمة ان الاكراد الهذبانية قد اغاروا على «نينوى» ونهبوها، وكما استعان المعتضد بالحسين بن حمدان لتأديب القرامطة والخارجيين استعان المكتفي باخيه ابي الهيجاء لتأديب الاكراد الهذبانيين، ورأى ابو الهيجاء ان الفرصة سانحة ليؤكد اخلاصه بتأديب الهذبانيين واعلان سطوة الحكومة في شخصه. والتقى بهم بعد أن عبر الى الجانب الشرقي ولكنه لم يستطع ان يخضعهم

(١) ابن خلدون ج٢ ص ٣٩٦

لقلة جنوده وكثرتهم فاتصل بالخليفة وانبأه بنتيجة المعركة وطلب منه الامداد ليقضي عليهم نهائياً وما كادت النجدة تصله حتى كان الهذبانيون قد تفرقوا شذر مذر ومازال يلاحقهم حتى اعلنوا خضوعهم واستسلامهم على يد ابي الهيجاء.

ويظهر ان هذا العطف الذي ناله ابو الهيجاء عبد الله بن حمدان من الخليفة المكتفي قد أوتر صدر اخيه الحسين بن حمدان الذي كان في خدمة المعتضد، فاكتفي بأن يظل في خدمة الخليفة على قيادة الجيش بينما ابو الهيجاء امير مستقل في الموصل. وفي عام ٢٩٥هـ بويع المقتدر بالخلافة واشترك الحسين بالمؤامرة التي دبرت لخلع المقتدر ولكن الدسائس احبطت هذه المؤامرة وانكشف امرها، ورأى الحسين ان يتوارى من وجه الخليفة ففر في جنح الليل. واراد الوزير المقتدر ان ينيط امره باخيه فكتب الى أبي الهيجاء ان يجدّ في طلبه ولم يستطع ابو الهيجاء ان يعصي امر الخليفة أو ان الحزازات كانت بينه وبين اخيه على اشدها فعقبه حتى أدركه في جبل سنجار، ولما ضاقت به الدنيا توسط وزير المقتدر ليشفع له عند الخليفة فشفع به وعفا عنه ثم عاد فاحتواه في قصره ببغداد .. ولأمر لا نعرفه نرى ان المقتدر قد سحب ثقته من أبي الهيجاء فعزله عن ولاية الموصل سنة

٣٠١ هـ ويتقبل ابو الهيجاء الصدمة بقلب رحب لانه رجل شجاع وعصامي قوي فلم تعصف بنفسه رياح الذل والاستسلام فثار في وجه الخليفة وعصا أمره ولم يستطع مؤنس المظفر الذي جهزه الخليفة لمقاتلته ان يخضعه ، فعاد بالخيبة والخجل مما ألجأ الخليفة ان يقلد ابا الهيجاء للمرة الثانية بعد عام واحد أى سنة ٣٠٢ هـ وهي السنة التي ولد فيها الامير سيف الدولة ..

ولم يكد الخليفة يأمن جانب ابي الهيجاء حتى ثار الحسين وتمرد. وكأن رضى الخليفة على احد الاخوين مدعاة لتمرد الثاني .. حاول ان يستميله فولاه على ديار ربيعة وانتظر المقتدر ان يكون الحسين كسائر الولاة أي ان يخص الخليفة بقسم وافر مما يجبيه من اموال ولكن الحسين فهم الولاية بمعناها الواسع فاعلن استقلاله المطلق واخذ يجبي الضرائب دون ان يخص الخليفة بشيء فغضب عليه وبعث اليه جيشاً كبيراً بقيادة ابن رائق لاخضاعه وتأديبه ولكن جيش الحسين كان يزيد على العشرين الف فارس فلم يوفق ابن رائق الى التغلب عليه واخماد ثورته وعاد خلال هذه الفترة مؤنس الخادم من محاربة المهدي العلوي فأمر الخليفة ان يلتحق بابن رائق وان يتعاونا على اخضاع الحسين فوفق مؤنس وقاده أسيراً الى المقتدر .

إزاء هذه الثورات التي تكررت لم يعد للخليفة أية ثقة بالحمدانيين فازوّر جانبه نحوهم والقى القبض على اكثرهم وزجهم في السجن.

وظل الامراء الحمدانيون مسجونين في دار الخليفة حتى عام ٣٠٦هـ حيث اطلق سراحهم ولكن الحسين ظلت نفسه تضطرم بالثورة على هذه الاوضاع وعلى ما مرّ به شخصياً فبدأت صلاته تتصل بغير واحد من زعماء البلاد وعرف الخليفة ان مؤامرة تدبر عليه وان مثيرها الحسين بن حمدان ووزيره «أي وزير المقتدر» علي بن الفرات وعامله في اذربيجان وغيرهم فالقى عليهم القبض وامر بقتل الحسين واكتفى بعزل وزيره واقصاء عامله وهنا انتهت حياة الحسين بعدأن لعب اكبر الادوار في تاريخ الحمدانيين.

وكانت الاضطرابات قد ازدادت في انحاء المملكة وفي اطراف الموصل فرأى ابو الهيجاء بعد ان اعتزل الحياة ثماني سنوات كاملة ان يجدد عهوده بالخليفة فاعاده اميراً على الموصل .. فعلى مَ يدل هذا؟ يدلنا صراحة على ان الخليفة لم يستطع ان يتخلى عن مساعدة الحمدانيين في مجابهة الثورات والاضطرابات، وعلى ان الحمدانيين وقد عرفوا قوتهم ومناعتهم لم يتهاونوا بهذه المكانة ففرضوا انفسهم على الخلفاء وكانوا يرقبون سير الحوادث بلباقة وحذر.

وتقبّل ابو الهيجاء عطف الخليفة من جديد ولكنه لم يشأ أن يغادر بغداد موطن الدسائس والوشايات فظل فيها وبعث بابنه ناصر الدولة الى الموصل لينوب عنه بقمع طغيان الاعراب والاكراد الذين اغاروا على المدينة واعملوا النهب في اطرافها فجمع رجاله واخذ في تعقيبهم الى ان تمكن من اعادة الامن الى نصابه . وما هي شهور حتى تجردت هذه الفتن وقامت حرب اهلية طاحنة في الموصل دعت الى حمل السلاح فاضطر ابو الهيجاء ان يترك بغداد وان يدافع عن المقتدر ولكن دفاعه لم يجده نفعاً فوقع صريعاً في احدى المعارك وعرف عندئذ المقتدر لآل حمدان اخلاصهم وجهودهم وندي ما اقترفوه من هفوات، وحزن كثيراً على ابى الهيجاء واخلص الود لابنائه واقر لابنه ناصر الدولة ما كان لأبيه من ولاية وضياع وضمان

وكان ناصر الدولة شديد الهيبة ، صلب الفؤاد على الخوارج وعلى العصاة فحمل عليهم حملات قوية واخضع المتمردين واستمر على ولاية الموصل حتى عام ٣١٨ هـ .

* * * * *

وتاريخ ناصر الدولة في الموصل تاريخ طويل لا نريد ان نقف عنده باسهاب لاننا نريد ان نتخطى ذلك الى شقيقه سيف الدولة. ولكن

كلامنا عن الحمدانيين يضطرنا ان نمر مروراً سريعاً بالاحداث التي رافقت ناصر الدولة بعد مصرع ابيه - ابي الهيجاء - في دفاعه عن الخليفة المقتدر الذي عرف، لآل حمدان اخلاصهم وعصبيتهم فاقرّ لأبنائه ما كان لأبيهم من ولاية وضياع وضمان وكان من جراء هذا العطف ان استأثر ناصر الدولة او قل احتفظ بما كان لآل حمدان من ملك ومال. جرّأه على ذلك هذا الانحدار الذي وصلت اليه الدولة العباسية في عهد المقتدر الذي كانت خلافته كلها مخازي وسوءآت. وكان الأمر لوزرائه الذين تصرفوا بالملك تصرف الجائر المستبد، وشُغل المقتدر عن كل ذلك بخليلاته اللواتي تحكمن ايضاً بعزل الوزراء ونصبهم بما كان يقدم لهن من الرشاوي والهدايا الثمينة التي تحقق اطماع الجسد ونزوات القلب !..

وفي عهد المقتدر اشرفت الدولة العباسية على الانحلال والموت بظهور سلطان المتغلبين في اطراف المملكة والثغور، وحسب القارئ ان يعدد هذه الدويلات التي اعلنت سلطانها في اجزاء الامبراطورية الاسلامية ليعلم ما وصلت اليه الحالة من خلل وتفسخ وانحدار ..

لقد قامت في فارس دولة بني بوية، وبسط الاخشيديون سلطتهم على مصر وسورية، واعلن الفاطميون سيادتهم في أفريقيا، وساد

الامويون في اسبانيا، واستقل بنو سامان في خراسان وما وراء النهر، والقرامطة بمنطقة البحرين وما صاقبها من ثغور وبلاد، واستقر الديلم في جرجان وطبرستان ، واعلن البريدي حكمه على البصره وواسط وقامت دولة الحمدانيين في الموصل وديار بني ربيعة وقسم كبير من من اراضي العراق . وكانت المملكة الاسلامية تغلي غلياناً في الاضطرابات والدسائس . كانوا ينهشون لحوم بعضهم ويحفرون مقبرة الامبراطورية الكبرى بهذا التفكك الذي اطمع البيزانطيين ان يعيدوا الكرة على بلاد الاسلام فافتتحوا اكايكيا وسورية على يد القائد البيزنطي الكبير نيقفور الذي اشتبك بمعارك دامية مع سيف الدولة على ابواب حلب مما سيصير تفصيله في بحوثنا القادمة وكانت البلاد تواجه خطرين : خطر الانقسامات الداخلية وخطر هجمات الافرنج الخارجية ، وشاءت الاقدار ان تتقدير ان هذه الاضطرابات، وعقمت الارض عن منقذ جبار يقضي على هذه المطامع وظلت الامور بين ايدي خلفاء هزيلين اقصى أمنياتهم من الحياة بعض هذه الاموال التي يدرها العمال عليهم لينعموا مرفهين برغد الحياة. ولكن هيهات ان تصفو الحياة في زحمة هذه الاحداث !..

* * *

وظهر بعد قتل المقتدر ، القاهر ثم الراضي الذي تربّع على دست الخلافة سنة ٣٢٢ هـ .. وكانت خلافته ذات ثوب فضفاض .. وبدأت الفوضى تعلن عن نفسها بشكل مريع في كل ظاهرة من ظواهر الحكم : في جباية الاموال ، في هذا التنافس بين العمال والوزراء ، او بين الخليفة والامراء ؛ كل واحد يطمع ان يملك اكبر رقعة ممكنة وان يختزن اكثر مما تصل اليه يده ! ولم لا ؟ . ملك فسيح ومطامع لا يحدها أفق ، والامر للقوة والسلطان، وكان طبيعياً ان يرى سليل الحمدانيين انه احق من غيره بأن يرث بعض هذه الارض المقسمة خيراتها بين الناهبين ..

واستقل ناصر الدولة بالموصل دون ان يعبأ بسلطان الخليفة فحبس عنه الاموال ولم يرسل اليه درهماً واحداً مما كانت تغله ارض الموصل من خيرات ، وكانت غلاتها وخيراتها موضع العجب والدهشة(١) فغاظ هذا الاستقلال الخليفة الراضي . ولكن هل كانت لديه القوة

---

(١) لقد كان المبلغ الذي تقدمه مدينة الموصل الى الدولة العباسية سنوياً ما ينيف على عشرات الملايين من الدراهم وقد نقل ابن خلدون عن جراب الدولة ان الموصل وما بينها كانت تدفع في ايام المأمون عشرين الف رطل من العسل الابيض واربعة وعشرين الف الف درهم أي مليون وستمائة الف دينار بما هو معدله الآن ٨٠٠٠٠ ليرة ذهبية !

الكافية لتمزيق هذه السلطة التي طغت على كل شيء وحالت دون تسرب الاموال اليه !. لا .. لقد رأى ان يكيده بسياسة المراوغة والضعف ، سياسة «فرّق تسد» فاستدعى عم ناصر الدولة ابي العلاء بن سعيد بن حمدان الذي كان يحبه ويثق به دون آل حمدان كلهم واغراه بأمارة الموصل . إذن،فليتقدم العم لقتال ابن اخيه !.. ونحب ان نتساءل : أأصاخ ابو العلآء - في حربه هذه- الى رغبة الراضي في قتال ناصر الدولة أم خيرات الموصل هي التي دفعته الى هذا القتال ؟. واذا كانت هذه الخيرات هي التي تغل الملايين ايقظت المطامع بين الاخ واخيه والعم وابن اخيه واغرتهم في تلك العصور ليثيروها حرباً ضروساً فبديهي ان توقظ رائحة البترول ومنابع النفط في عصرنا هذا نارالمعامع في قلوب الدول المستعمرة فتتنافس من طرف خفي او جلي على امتلاك خيرات هذه الارض !

وسار ابو العلآء سعيد بن حمدان الى الموصل ليعلن سلطة الخليفة ويجبي اموال الموصل ويزيح كابوس ابن اخيه ناصر الدولة ولكن ابن اخيه شجاع مغامر وصلب حديدي في القتال فلم يكد يلتقي به حتى دبر له مكيدة أودت بحياته . ولما بلغ هذا الخبر مسامع الراضي تأثر جداً وعدّ الاهانة موجهة اليه شخصياً ! فسيّر الى ناصر الدولة

وزيره بن مقلة مع جيش كبير استطاع ان يضايق ناصر الدولة الذي ترك الموصل مضطراً وتوغل في الجبال .. وبدخول بن مقلة الموصل بدأ بجباية الاموال !.. وليلاحظ القارئ انهم المتغلبين بالامس ـ كهم المستعمرين اليوم ـ هو جباية الاموال وارهاق الشعب بالضرائب واستثمار خيرات هذه الارض المباركة سواء كانت عسلاً او بترولاً وان الطمع الانساني لم يتبدل وقد لا يتبدل ! وان جبابة الاموال هي هدف الجميع ومعبودهم المقدس فما اشد تعاسة الشعوب ازاء طغيان المتغلبين أو المستعمرين !..

* * * * *

ولم يدم الامر لابن مقلة لان اصحاب ناصر الدولة ابتدعوا حيلة لاقصائه عن الموصل ؟ فكيف وماهي هذه الحيلة ؟ لقد اتصلوا بابنه في بغداد واستكتبوه كتاباً كلفهم عشرة الاف دينار! مامضمون هذا الكتاب ؟ لقد دعى الابن اباه ان يسرع بالسفر حال استلامه كتابه الى بغداد لان مؤامرة تدبر له في الخفاء بنية قتله ، فما أسرع ما يصدق ابن مقلة هذا الخبر ؟ ولم لا يصدقه والكتاب من ابنه اولاً والبلاد تعج بالدسائس والاضطرابات وسيل جارف من المكائد والمؤآمرات . وترك الموصل بعد ان ولي عليها احد العمال

الاكراد وجازت عليه الحيلةاو المؤامرة ولكن بيد مَنْ ؟ بيد ابنه الذى خدع أباه لقاء قبضه حفنة كبيرة من الاصفر الوهاج !..

وطارت الرسل الى ناصر الدولة المعتصم بالجبال تخبره بالامر فعاد حالاً على رأس كتيبة كانت تنتظره خارج البلاد وطرد العامل الكردي وأعلن ولايته من جديد.

خلال هذه الفترة كانت الحالة قد ساءت جداً في بغداد فاستبد العمال استبداداً مريعاً واخذ الوزراء يستقيل الواحد تلو الآخر وضاقت الدنيا في وجه الخليفة فأضطر ان يستوزر احمد بن رائق والي البصرة وواسط فاستقدمه الى بغداد وقلده إمارة الجيش واضاف اليها إمارة الامرآء وناط به جباية الخراج في جميع انحاء البلاد أي أن الخليفة باعطائه السلطة المطلقة في الادارة والحرب كأنه قد انتدب عنه خليفة جديداً في شخص ابن رائق ! ثم ماذا ؟ لقد أمر ان يخطب بأسمه على جميع المنابر فانتفخت اوداج ابن رائق إزاء هذه السلطة الواسعة ورأى بدوره ان يستعمل نفوذه وسلطته فالغى الدواوين وصرف الوزرآء واخذ يدير وحده شؤون الدولة أي ان الدكتاتورية التي لمسنا الوانها الصارخة بعد الحرب الكبرى في شخص ستالين وموسوليني وهتلر وبريمو دى فاليرا قد كانت متجسدة

قبل الف عام في شخص ابن رائق !..

ولكن دكتاتورية ابن رائق لم تدم طويلاً - ومن شأن الدكتاتوريات ان تكون قصيرات العمر - لأنه ظهر متنفذ آخر في شخص «بجْكم» التركي الذي استطاع ان يغتصب رتبة امير الامرآء من ابن رائق الذي أرغم على الانزواء فانزوى الى حين .. وأذعن الخليفة لهذه السلطة الجديدة في شخص «بجكم» الذي خرج مع الخليفة لمحاربة الحمدانيين أي محاربة صاحبنا ناصر الدولة ، وسار «بجكم» الى قتاله في جيش كبير عام ٣٢٧ هـ واشتبكا في موقع «الكحيل» بالقرب من الموصل بقتال طويل اضطر ناصر الدولة بعد هذه المعركة الكبرى ان ينهزم الى نصيبين ثم الى آمد .... ودخل الخليفة الراضي الموصل واقام فيها مع «بجكم» مدة غير يسيرة حاولا كثيراً ان يظفرا بشيء من اموال الحمدانيين فلم يوفقا الى شيء .. عندئذ عادا الى بغداد ليهدءآ ثورة ابن رائق الذي انتفض على أثر غيابهما ، وعاد ناصر الدولة بدوره الى الموصل كما كان اولاً(١) .

وبوفاة الراضي خلفه المتقي ، وهنا عادت الصلات تتوثق من جديد بين آل حمدان والمتقي وزادت الصلات الى المصاهرة فتزوج ابن

(١) ابن خلدون ج ٤ ص ٢٣١

المتقي بأبنة ناصر الدولة وعادت للحمدانيين صولتهم وعظم سلطانهم واخذت قوائم دولتهم ترتفع دون ان تزعزعها عواصف الدسائس والاضطرابات .

وظهر في زحمة هـذه الاضطرابات ابو عبد الله البريدي الذي طمحت نفسه للاستيلاء على بغـداد فاستعان المتقي بجنـوده الاتراك البجكميين ـ وهم جنود مأجورون ـ فلم يثبتوا مع الخليفة وانضم بعضهم الى البريدي الذي تمكن ان يستولي على بغـداد دونما حرب عنيفة ولكن استيلائه لم يدم طويلاً لان الجنـود الاتراك ثاروا عليه لأمساكه عن دفع رواتبهم فاضطر ان ينهزم وبانهزامه عاد الخليفة الى بغداد بعد ان استدعى ابن رائق وقلده امارة الامراء للمرة الثانية ! . ولكن البريدي جهز نفسه وهجم على بغداد ايضاً فاستنجد الخليفة بناصر الدولة الذي ارسل اليه اخاه سيف الدولة على رأس جيش كبير لم يكد يصل به الى تـكريت حتى التقى بالخليفة وأبن رائق عائدين فرجع معهما الى الموصل ، ولـكن قدوم بن رائق لم يرق لناصر الدولة فاوجس منه شراً لحزازات سابقـة فلم يكد يدخلها حتى دبر له مكيدة أودت بحياته ففرح المتقي وخلـع عليه لقب امير الامراء ولقب اخاه علياً سيف الدولة ...

وعاد المتقي الى بغداد مع امير الامراء ناصر الدولة الذي كان تحت حوزته جيش كبير، ورافقهما سيف الدولة ولم يقتربوا من بغداد حتى نزح عنها البريدي الى «واسط» وقرر الحمدانيون ان ينتزعوها منه، وشبت معارك دامية بين البريدي وسيف الدولة خسر فيها الحمدانيون ثم انتصروا، وجلا البريدي عن واسط الى البصرة وعزم سيف الدولة ان يلحق به الى البصرة ولكن قلة المال وفتور همة بعض قواده الاتراك جعله ان يعود الى بغداد وقد مكث فيها مع اخيه ناصر الدولة سنة وبعض سنة ثم غادرها الى الموصل .

وبتخلي ناصر الدولة عن إمارة الامرآء في بغداد اختار الخليفة لهذا المركز اكبر قواد الديلم «توزون» الذي لم يكن سياسياً مرناً بل كان رجل حرب ودسّ فاستوحش منه المتقي وندم على هذا الاختيار وخاف على نفسه منه وتجسمت هذه الوساوس حتى اضطرته ان يترك بغداد الى الموصل مستعيناً بالحمدانيين للقضاء على طمحات هذا الديلمي الغريب ولكن «توزون» لحق بالمتقي يريد ان يرجعه الى بغداد او انه اتخذ التجاء المتقي الى الحمدانيين سبباً لمنجازتهم القتال والاستيلاء على الموصل فنازله سيف الدولة وتغلب عليه أو كاد . وبعد معارك دامية دخل «توزون» الموصل غير عابئ بسطوة

الحمدانيين الذين خافوه فالتجئوا مع المتقي الى نصيبين . وهنا بدأت وساطات الصلح بين هذا القائد الديلمي وبين المتقي وناصر الدولة على ان يضمن ناصر الدولة ما بيده من البلاد ثلاث سنين كل سنة ثلاثة ملايين وستمائة الف درهم وعندئذ عاد توزون الى بغداد ولم يعد معه المتقي بل آثر ان يبقى في الموصل . ولكن نفسه حنّت بعد مدة الى بغداد فطلب من توزون الامان فأمنه واقسم له الايمان ان لا يغدر به وان يكون في خدمته . ورأى سيف الدولة الذى يعرف نفسية «توزون» تماماً ان هذا الامان هو لون صريح من الخديعة والمكر فحذره منه كثيراً ولكن المتقي لم يستمع اليه واطمأن اليه وسافر الى بغداد فلقيه «توزون» بكثير من الاحترام حتى قبّل الارض بين يديه ولكن ما هي ايام حتى دبر له مكيدة انتهت بسمل عينيه وخلعه عن الخلافة .

* * * * *

وبوفاة المتقي ارتقى سيف الدولة عرش حلب وبنى مجده السامق فيما بعد ان ترك أخاه يتابع دوره في الاحتفاظ بأرض الموصل التي نزلها الحمدانيون الاول.

ودخلت الخلافة العباسية بعد وفاة المتقي تحت سلطة آل بويه الذين

لعبوا دوراً كبيراً في مصير العراق وكان لهم النفوذ المطلق والكلمة العليا واصطدم ناصر الدولة بحرب جديدة مع بني بويه ظاهرها الاحتفاظ بالسيادة السياسية وباطنها الاستئثار بالمال.

* * * * *

وبينا كان سيف الدولة يؤسس ملك الحمدانيين في ارض الشهباء بعد أن انهارت قوائم ملكهم في الموصل في اواخر ايام اخيه ناصر الدولة كان ابناء ناصر الدولة يتقاتلون على السيادة والمال وقد اساؤا الى ابيهم وانضموا الى غيرهم من الطامعين في هذه الارض المباركة التي احتفظ بها اجدادهم الحمدانيون نحو اربعة وسبعين سنة، وكان خلافهم وقيامهم على بعضهم مدعاة لان يتقدم عضد الدولة البويهي ويطرد ابا تغلب ابن ناصر الدولة ويبسط نفوذه على البلاد وهنا تطوى راية الحمدانيين في الموصل وديار بني ربيعة لتخفق من جديد في ارض الشهباء على يد سيف الدولة بن حمدان.

* * * * *

ونقف عند هذا الحد، ونحسب اننا قد عرضنا باسهاب غير ممل صورة صادقه للحمدانيين منذ نشأتهم الاولى حتى اواخر ايامهم في الموصل حيث تبدأ حياة اميرنا سيف الدولة. وقد حرصنا ان نربط

تاريخ الحمدانيين بتاريخ بعض الخلفاء او بهذه الاحداث التي هزت الدولة العباسية وكان من اثرها ان ضعضعت كيان الامبراطورية الاسلامية الكبرى . وقد اردنا بذلك ان نكشف لون ذلك العصر في تمهيدنا لدراسة حياة سيف الدولة الذي شهد بدوره هذا اللون القاتم من هذه الحرب الرأسمالية في شكلها الاقطاعي الفوضوي وخاض معامع كثيرة في الدفاع عن سيادات باطلة واطماع دنيويه لاتمت الى المثل العليا بشيء ! فهل كان راضياً عن هذه الادوار الهزيلة التي مثلت على مسرح الحياة ولعب بعض ادوارها بحماس ونشاط ام كانت نفسه ترتفع الى آفاق لاترتبط بهذه الدنيويات ؟ هذا ما سنتناوله في بحوثنا القادمة .

والآن وقد فرغنا من الكلام عن الحمدانيين فلنحاول ان نرسم صورة واضحة للدولة الحمدانية ليتاح لنا ان نلج غمار بحثنا بكثير من الدقة والوضوح .

الدولة الحمدانية

أكانت دولة بالاصطلاح الدولي المعروف ؟

أكان ثمة جند وملك وسلطان ؟

أكان هناك قوانين تُشرّع ونظامات تُفرض وأسس امة تبنى في كنف تلك الدولة ؟

قد يكون من المفيد قبل ان نتساءل عن ذلك ان نبحث عن معنى «الدولة» ومدلولها على ضوء التعاريف الحديثة .

ما هي الدولة ؟

يعرفها رجال القانون بأنها : «مجتمع ثابت مستقل يملك بقعة معينة من الارض ويعيش في ظل سلطة منظّمة أو هي شعب منظّم خاضع للقانون» .. فهل هذا التعريف ينطبق على دول العصر الحاضر أم يشمل هذه الدول الصغيرة التي تنبثق من جسم دول كبيرة أم هو

تعريف عام يشمل جميع الدول المدنية التي تعاقبت على هذه البسيطة منذ عهد الرومان او قبل الرومان حتى يومنا هـذا ؟.. نحسب ان لا حاجة لأن نلتوي عن القصد فالتعريف واضح لا غموض فيه وهو يفسر معنى الدولة بمراميها الواسعة سواء أكانت الدولة ذات سيادة أم كانت تحت انتداب وحماية .

لقد قامت بعد الحرب الكبرى دويلات كثيرة انفصلت عن جسم الامبراطورية العثمانية فاستقل بعضها ولا يزال اكثرها تحت سلطات الانتداب ، وحتى الدول التي استقلت قد ارتبطت بمعاهدات وبروتوكولات يرى اذكيـاء رجال السياسة انها لا تزال في حكم الدول الواقعة تحت الانتداب ، لان هذه المعاهدات الدبلوماسية التي تعقدها الدول الكبرى مع الامم الصغيرة والتي تعترف لها بسيادتها واستقلالها تكون ذات مظهر خلاب يمس العَرَض دون الجوهر الا في بعض المظاهر الشعورية !.. ومع هذا فاذا كان رجال التشريع لا يتحرجون ان يطلقوا على هذه الممتلكات المنفصلة عن جسم الامبراطورية العثمانية هذه الاصطلاحات التي تشير الى صفـاتها الدولية فأحر بنا ـ والدولة الحمدانية قد انفصلت عن جسم الدولة العباسيـة دون ان تقع تحت انتداب او حماية أية دولة أخرى بل كانت تتمتع باستقلال

فعلي كامل- نعم ، أحر بنا ان لا نقف موقف المتردد فيما اذا كانت الدولة الحمدانية ينطبق عليها هذا التعريف الدولى الشامل الذي ألمعنا اليه . وعلى ضوء هذا التعريف نستطيع ان ندل على كيان الدولة الحمدانية بانها كانت دولة ذات مجتمع ثابت مستقل ، عاصمتها مدينة حلب التي انضوت تحت سلطة اميرها الفحل سيف الدوله بن حمدان والذي كان في حوزته جيش كبير كامل العدد والعده، حمى كيان دولته بحروب حامية الوطيس مع اعظم دولات ذلك العصر فاستولى على بلاد الروم واستولوا على بلاده كما أسر منهم مئآت الآلاف من الجنود والقوادو أسروا منه نظير هذا العدد ففك أسراهم بماله وبأثمن ما لديه ، وكانت الحرب بينهم سجالاً ، كما كانت مقاليد الحكم وشؤون الادارة بيد عمال هم أشبه بالولاة يرجعون في ادارة الملك الى رأي أميرهم الحازم الشجاع ، وكان كل شيء ينم على ان الدولة كانت قائمة بكل مظاهرها الدبلوماسية المعروفة في ذلكم العصر .

* * *

لقد مر بنا ان الحمدانيين نشأوا في ديار بني ربيعة وملكوا الموصل وما جاورها سبعين سنة ونيف ولكن هذه الديار لم تكن خلال هذه السنوات تحت سيطرتهم الفعلية فقد جلوا عنها ثم عادوا اليها

وكانت مرتبطة ببغداد مقر الخلافة . وقد حاول الحمدانيون ان يعطوها شبه استقلال مركزي فوفقوا مرة وخذلوا مرات وكانت المطامع توقظ حماس غيرهم من المتغلبين وكانت الدسائس تلعب دورها والحروب العنيفة تقوم بقوة وكانت الثورات تعلن في وجه الخليفة الضعيف .. ومع ان هذه المآسي قد تكررت اكثر من مرة على مسرح الموصل فكان همّ اكثر الامراء الحمدانيين الاستئثار بخيرات هذه الديار دون ان يلتفتوا الى مفهوم الدولة وعزة الملك بمعناه الواسع الذي فهمه حفيدهم الامير سيف .

خاض الامير سيف الكثير من المعارك فانتصر وخُذل ولكن نفسه الكبيرة التي عُجنت بخميرة المجد كانت تعلو على هذه السفاسف التي يبدو بريقها واضحاً في صفرة المال! لقد كانت الحرب الرأسمالية بين متغلبي ذلك العصر قائمة على ساق وقدم ، ومع ان الأمير لم ينج من رشاش هذه الحرب التي خاض بعض ساحاتها مسوقاً بعصبية عائلته الا ان نفسه ارتفعت عن هذه الاوزار وسمتْ الى ما هو أعلى وأسمى ، كان يدرّب نفسه على المجد حين انضوى تحت لواء أخيه ناصر الدولة دون ان يكون هدفه في الحياة هذه المغانم التي كانت هدف الآخرين ، كان يتخذ المال وسيلة لرفع منار الأدب وصون

وحدة العرب والذود عن كيان الوطن ... ولم يكد يبلغ الثلاثين من عمره بعد أن خاض عدة معارك ودرس الحالة درس خبير مستقص - حتى رأى نفسه تجيش بخيالات ساحرة مغرية ، ما هذه الاحلام والخيالات ؟ هي خلق دولة عربية جديدة وسط تلك البراكين المتقدة التي ألمعنا اليها في فصولنا السابقة والتي رأينا في صورها غروب شمس الدولة العباسية وظهور انماط مختلفة من متغلبي الاعاجم الذين كانوا السبب المباشر لزوال المملكة العربية الكبرى.

نعم ، جاشت نفس سيف الدولة بهذه الاحلام المسكرة وسط سحب كثيفة دكناء من الاحقاد والمطامع وفوضى الاضطرابات التي كانت تغلي وتفور كالبراكين ، فالتفت حواليه يذرع ببصره وفكره هذه الممالك الشاسعة يريد ان يقيم أسس دولته الجديدة في ارض بكر ، بعيدة الى حد ما ، عن لوثات الاعاجم ودسائس المتغلبين !..

أين ترى تقع تلك الارض ؟

لقد هداه ضميره الى ارض الشهباء..

ان الموصل في حوزة أخيه ناصر الدولة وهو يجلّه ويعبده دون الله إذن ، فليترك الموصل وديار بني ربيعة في يد أخيه وليتوجه الى مدينة حلب ..

ترى لماذا اختار سيف الدولة هذه المدينة الجميلة الوادعة ؟

أفيها مناعة المدن الحصينة التي تصد هجمات العدو ؟

أتحيطها هذه الجبال المنيعة الوعرة التي ترتد عنها الابصار كليله ؟

لا .. انها تقوم على سهل منبسط فسيح قد تغنى الشعراء بجودة تربتها وطيب هوائها وجمال سمائها، وفتنوا برياضها وبساتينها الغناء التي كانت تبزّ غوطة الشام بجمالها وفتنتها . وكانت قلعتها الأثرية التي تجثم في قلب البلد والتي عرفت عمر الزمن وخلود الحياة موضع اعجاب ودهشة الفاتحين الغزاة . أتكون قلعتها الجبارة هي التي اوحت اليه ان يختار مدينة الشهباء ليزرع في ارضها بذور مملكته الجديدة؟ لعله نظر الى ابعد من كل ماذكرناه .. لعله رأى في متاخمتها لأرض الروم ماحبّبها اليه ! . لقد كان لزاماً على سيف الدولة ان يقيم في ارض الشهباء وحدات جيشه ليقف حائلاً منيعاً دون هجمات جيوش البيزنطيين الذين كانوا يتطلعون الى هذه الممالك التي آلت الى العرب بعدان فتحها الخلفاء الراشدون بثبت ايمانهم وصدق عزيمتهم . وكان البيزنطيون في حرقة ممضة لزوال هذه البلدان التي كانت في حيازتهم، لذلك لم يتركوا فرصة دون ان يغيروا على هذه الثغور الاسلامية يحاولون استردادها . شجّعهم على ذلك هذه الحروب الداخلية العنيفة

التي كانت تثار بين المتغلبين والخلفاء في سبيل امتلاك خيرات بلاد هي في حوزتهم . لذلك رأى سيف الدولة ان يقف دون هذه الهجمات فبنى مملكته الجديدة في ارض الشهباء التي كانت متاخمة لارض الروم ..

هذا السمو في نفس سيف الدولة الذي ابتعد به عن المنازعات الداخلية ليحمي ارض الوطن هو الذي يحدونا ان نقدس فيه روح البطولة السامية . نعم ؛ لقد ارتفع بنفسه عن هذه الدنيات الى ماهو اسمى وانبل مقصداً.. الى خلق دولة جديدة وصون هذه البلاد التي جبلت ارضها بدماء الفاتحين.. ومانحب ان نتوسع عند هذه الفكرة. فلهذا بحث طويل سنوفيه حقه حين نتكلم عن حروبه وغزواته .. وما نحب ايضاً ان نجرد سيف الدولة من بعض الهنات التي نلصقها بغيره من الامراء المائعين الذين استطابوا الحياة السهلة اللينة في مجالس اللهو والشراب وفي جمال القدود وخدود الملاح ولم يعرفوا قط للوطن حقوقه !.. انه كأمير جميل في فتوة عمره وريق شبابه لم يكن يكره هذه اللذات بل لدينا مايؤكد أنه عب من رحيقها المسكر حتى الثمالة . ولكن كان يفعل ذلك في ساعات راحته وهدوء ضميره أي حين يرجع من معركة عقد له فيها النصر وتوجه الشعراء

بعثات قصائدهم الغر . انه في مثل هذه الساعات كان يستطيب اللهو والشراب ويسبح في بحر من اللذات حتى اذ جدّ الجد ودعاه داعي المجد انتفض انتفاضة الاسد وارتفع بنفسه عن هذه المغريات المسكرة

هذا السموّ في بطولته التي كانت تبحث عن ارض بكر تتسع ميادينها للكرّ والفرّ وللقتال والسجال هو الذي هداه ان يختار مدينة «حلب» عاصمة لمملكته الجديدة ، فاختارها وابتعد عن اتون المنازعات الداخلية التي كانت تعصف ريحها بشدة ليزج نفسه في حروب تعلي من شأن الوطن وترتفع باسمه الى السماكين. لقد اختار الشهباء وهو عالم انه سيخوض في سبيلها عشرات المعارك الدامية وكانت نفسه ترقص طرباً حين يدعوها نداء الكفاح في سبيل الملك والمجد .. وواجب الوطن عند سيف الدولة هو أمجد في المكرمات من هناء نفسه .. وهذا الذي دعاه ان يعتمد عزيمته الكبرى بعد الله ويفرض نفسه اميراً على ارض الشهباء وما جاورهـا وان يؤسس الدولة الحمدانية الجـديدة على انقاض الامارات الحمدانية التي اقامها اجداده في ارض الموصـل . ورسم الامير لنفسه خطـة ان كانت جذورها تمتّ الى الخطط القديمة التي بذرها الحمدانيون الا ان امنيته الكبرى كانت تتجلى في خلق دولة عربية جديدة فكان ما كان مما

سنشير اليه .

* * * * *

لقد كدنا نبتعد عن موضوعنا الذي خصصناه بالدولة الحمدانية ولكنا لم نبتعد الا لنقترب من اساس الموضوع . ويحسن بنا ان نتساءل الآن بعد ان انتهينا الى ان الدولة الحمدانية كانت دولة ذات سيادة فعلية - ما هي حدودها ؟ أين ابتدأت ؟ وأين انتهت ؟ ما هي البلدان التي دخلت تحت حوزتها ؟ كم سنة عمّرت ؟ هل كان قيامها بقيام سيف الدولة ثم زالت بوفاته ؟.

دخل سيف الدولة مدينة حلب عام ٣٣٣ هـ ، دخلها فاتحاً بعد ان انتزعها من أحد قواد الاخشيد سيد مصر الذي جهز على سيف الدولة حملة كبيرة تحت قيادة كافور فلاقاها بالقرب من حمص ، ثم حاصر دمشق وتابع سيره حتى الرملة. وهنا ، وبعد قتال طويل رأى من المصلحة القومية ان لا يبتعد عن خطته المثلى في الاحتفاظ بحلب ليرد الغارات الاجنبية فتصالح مع الاخشيديين على ان يحتفظ بسورية الشمالية وان يترك مدينة دمشق للمصريين .

وكانت حلب في عهد سيف الدولة عاصمة دولة تمتد من الموصل حتى تكريت ومن عانة على الفرات حتى البحر المتوسط مُشَكِلةً

على التقريب خطاً مستوياً يمر من جنوبي حمص. وكانت ممتلكات الدولة الحمدانية في الشمال تمتد نحو منطقة كليكيا، ملاطية، ديار بكر حتى مدينة خلاط الواقعة على بحيرة «وان» وكانت الاماكن المهمة عدا حلب هي انطاكية، حماه، حمص، تدمر، قنسرين، أعزاز كفر ناب، دولوق، تل بشير، سرمين، بالس، منبج، اللاذقية، طرطوس، رقه، اطنه، اورفه، مرعش، حران، ديار بكر، ملطيه، حسن منصور، روم قلعه وما جاورها من هذه البلدان التي تقع على ضفتي الفرات والدجلة وبعض شطئان البحر المتوسط

لقد ظلت الدولة الحمدانية هذه تنوف على السبعين عاماً، انتهت كما بدأت ضعيفة تارة وقوية تارة أخرى، ولم يقو نفوذها وتشتد شوكتها الا في عهد الامير سيف الذي رفع من شأنها وخلد ذكرها وعرف كيف ينهض بها الى السماكين، وهذا يؤيد ما نذهب اليه دائماً من ان الفرد هو الذي يخلق الأمة وينشأ الدولة، والامير سيف هو الذي خلق الدولة الحمدانية وفرض اسمها على التاريخ.

حلب

حلب معقلي　　　والمتنبي شاعري

ـ سيف الدولة ـ

حلب مدينة عظيمة واسعة كثيرة الخيرات ، طيبة الهواء ، صحيحة الأديم والماء .

ـ ياقوت الحموي في معجم البلدان ـ

أي حسن ما حوته　　　حلب أو ما حواها
سروها الداني كما تد　　　نو فتاة من فتاها

ـ الصنوبري الشاعر ـ

هي الخلد يجمع ما تشتهي　　　فزرها فطوبى لمن زارها

ـ كشاجم الشاعر ـ

* * * * *

من حق الادب علينا ونحن ندرس حياة سيف الدولة ، وقد وصلنا بدراستنا عن الحمدانيين الى حلب ، هذه المدينة الجميلة الوادعة التي تحتوينا والتي احتوته قبل الف عام فزهت به وزها بها واقام في

ربوعها للادب دولة لا تزال تتعطر كتب التاريخ بذكرها. نعم، من حقنا ان نخصها بكلمة او بفصل نأتي على موجز تاريخها توفية للبحث وخدمة للتاريخ ..

وقد يكون من العسير جداً ان نأتي على تاريخ حلب بهذه الصفحات ولهذه المدينة تاريخ عريق في القدم يقتضي الباحث ان ينقّب ويرجع الى العصور السحيقة ليكشف عن تاريخها بدقة وتمحيص وامعان ، وان يربط بين تاريخها القديم في ايام الحثيين والفراعنة وتاريخها في العصور الاسلامية .. ولقد لجأ بعض المتطفلين في عصرنا هذا فكتبوا عن حلب بضع مجلدات ضخمة حشوا فيها الكثير من الخرافات والاساطير وما لا يتصل بلب التاريخ واهملوا هذه النواحي الهامة في حياة البلدان فجاء عملهم خزياً في وجه الادب والتاريخ معاً !.. وانه لمن المؤسف ان لا يكتب تاريخ هذه المدينة حتى الآن على النمط الذي تتطلبه الدراسات التاريخية الحديثة . وهذا ما نرجو محاولته بكتابة رسالة قد لا تتجاوز صفحاتها المائة صفحة تغني القارئ عن هذه المجلدات التي يعتورها الاضطراب والفساد والتي كتب لها الموت على مشهد ومرأى مَنْ أفنى ربع قرن من عمره – كما يقول – في جمعها وتصنيفها !!..

واذا كان ليس هنا مجال هذه الدراسه الواسعة فلا اقل من ان نمر بتاريخها مروراً سريعاً وان نقتصر على خلاصات تعطي قارئ هذه الفصول فكرة صحيحة غير مشوشة عن هذه المدينة المباركة التي جرت في اراضيها الكثير من الاحداث التاريخية سواء ما كان منهاذا علاقة بالسياسة والحرب ام بالادب والفلسفة والعلم ! .

* * * * *

حلب ، عاصمة الحمدانيين ، او حلب الشهباء كما غلب عليها هذا الاسم : مدينة قديمة ترجع في قدمها الى ابعد حدود التاريخ .. بل هي كما يقول المستشرق الالماني زوبرنهايم الذي كتب فصلاً ممتعاً عن مدينة حلب في دائرة المعارف الاسلامية : «انها من المدن القديمة القليله التي لاتزال موجودة حتى الآن..» أي أن كثيراً من المدن القديمة قد انهارت مع الايام واسدل الدهر عليها ستار النسيان الا بعض مدن تاريخية قليلة منها هذه المدينه . وقد لا يعرف بالضبط من الذي بناها واقامها في هذه البقعة من الدنيا .. على ان اكثر المؤرخين يتفقون على ان الحثيين هم الذين بنوها .. وليس في هذا أي نبو عن التاريخ اذا علمنا ان هذهالمدينة قد جاء ذكرها كثيراً في النقوش الأثرية والمدونات التاريخية القديمة التي ترجع لألفي سنة قبل

الميلاد حيث كان الحثيون يقيمون على ضفاف الفرات بالقرب من مدينة جرابلس او قلعة « قره مش » ينشرون مدنيتهم وينصبون تماثيلهم ويشيدون معابدهم ويقيمون المدن توسيعاً لمملكتهم .. وكان من جملة المدن التي بنوها هذه المدينة التي رددت ذكرها النصوص البابلية والآثار الآشورية والنقوش المصرية القديمة وعرفت باسم حلب Hallab و Hallav وحلوان Hallvan . وقد كشفت الحفريات الحديثة التي جرت في وادي الملوك مؤخراً بعض نقوش وكتابات اثرية رسمتها يد النقاشين بأمر رعمسيس الثاني على جدران الكرنك والاقصر وفيها ذكر صريح لهذه المدينة التي جرت في اراضيها حروب دامية بين ملوك الفراعنة وملوك الحثيين انتهت بمعاهدات صداقة وود وولاء، وعرفت المدينة بهذه النقوش والكتابات انها «مملكة صغيرة خاضعة لملك الحثيين باسم - حُلبُو - » . على ان هذا الاسم قد اصبح «حلوان» في عهد الآشوريين و «بيروا» في عهد اليونان والرومان ثم عادت تحمل اسمها الازلي في عهد الفرس، ونعتت بالشهباء لافتراضات مختلفة ليس هنا مجال بحثها ومناقشتها .. نعم، ومع ان اسمها قد تطوّر خلال هذه الاجيال من خَلَب الى حلبو الى حلوان الى بيرا عادت تحمل اسم خلب بالصيغة الآرامية وحلب

بالصيغة العربية التي عرفت بها من اجيال سحيقة حتى يومنا هذا ..

ويلاحظ القارئ انه قد مرّ بهذه المدينة مايقرب من عشر امم كبيرة ذات نزعات مختلفة في الدين و اللغة والدم . من الحثيين الى الاشوريين الى المصريين الى البيزنطيين الى الفرس الى العرب ثم الترك فالانكليز فالافرنسيين ومع هذا ، ومع كل مامرّ بها من عادات واخلاق وديانات وحروب وثقافات متباينة لاتزال هي هي المدينة الحالمة التي تصبر على ضغط الحدثان فتأخذ من كل امة اظهر مافيها من خصائص لتخلق في نفسها هذه المناعة التي تقوى على مغالبة الزمان واحداث القدر العاتي ..

ولعل ايمانها بالبقاء هو الذي جعلها ان تخلد على الايام رغم مامرّ بها من احداث وصروف عاتية منذ عشرات الاجيال . وظلت اجمل مدينة زاهية في سورية الشمالية كلها .. كانت حلب في العهود القديمة مدينة كالمدن، ولم تلمع وتزدهر بالعمران الا بعد الفتوح الاسلامية حيث اصبحت اشبه بثغر عذب المرشف يتطلع اليه الروم ويحتفظ به العرب كاثمن قنية غالية .. نعم ؛ كانت في عهد البيزنطيين مدينة كالمدن العادية لاميزة على غيرها الا كونها مدينة محصنة من الصعب جداً ان تمتد اليها الايدى المغيرة الجائحة .. ولكن فتوحات

العرب لم تكن ألآ عيب وخدعاً بل كانت سيلاً ينهمر وناراً تلتهم وقدراً يجري .. واخترق العرب هذه الحصون ... كيف ؟ انهم لم يحطموها ولم يدخلوا المدينة حرباً بل استسلمت اليهم وعاد السكان الذين نزحوا الى انطاكية خوفاً من بطش الفاتحين ـ الى مدينتهم الوادعة بعد ان وثقوا من ان هذا الفتح يحمل في اطوائه قبساً مشعاً من روح التسامح وينشر على ارضهم برداً وسلاماً لا ناراً ولا حمماً!.

يقول مؤرخو الفرنجة انه حين اخذت فتوحات العرب تمتد الى هذه الربوع كانت حلب مدينة ذات طابع سوري لا يمت الى البيزنطية بشيء .. كان يقطن بجوارها قبائل عربية قديمة .. وكانت هذه القبائل على رواية البلاذري تقطن بالقرب من المدينة . في مكان يدعى «حاضر حلب» ، يجمع اصنافاً من التنوخيين وغيرهم من قبائل العرب التي كانت تنزح الى المدينة فتجد مأكلها ومشربها حين يقل الكلأ وتجدب الارض من انحباس المطر .. وكانت الروح العربية بسبب هذه الاواصر تغمر المدينة في كثير من مظاهرها لذلك لما تعرض العرب لفتح حلب سنة ١٦ هـ بقيادة خالد بن الوليد لم يجدوا أدنى مقاومة جدية . .

وقد سلمت المدينه الى القائد ابي عبيدة بن الجراح صلحاً في خلافة

الفاروق فأمنهم على حياتهم واموالهم وصان كنائسهم ومعابدهم ولم يتعرض احد الى حرمة منازلهم وهذا الذي حبب هـذا الفتح الى نفوسهم فأسلم بدخول الفاتحين المسلمين رهط غير قليل من العرب حالاً وظل البعض على وثنيتهم وآخرون على نصرانيتهم حتى خلافة عبد الملك .

واخذت المدينة تزهو وتنعم بحياة جديدة في ظل الاسلام ..

واخذ الناس يبنون البيوت ويقيمون القصور ويأنسون بحياة العمران التي استبحرت ليس في قلب المدينة بل في اطرافها حتى اختار غير واحد من الامراء الامويين الاقامة في حلب وضواحيها ولم يحرجوا ان يفضلوها على دمشق الفيحاء على ما في ربوعها من جنان مخضله هي صورة من جنان الخلد كما يصورها الشعراء . فبنوا في المدينة وفي الضواحي قصوراً فخمة تهدّم اكثرها مع الايام ولا يزال بعضها يشهد على بقايا اثاره الحدثان !.. ويعدد مؤرخو العرب عدة قصور ممتازة منها القصر الذي انشأه مسلمة بن عبد الملك في ساحة الناعورة وعلى ضفاف النهر وقصر سليمان بن عبد الملك الذي تأنق جداً في بنائه وزخرفته والذي هدم بأمر السفاح حين استولى العباسيون على حلب !. وقصر الخليفة عمر بن عبد العزيز الذي بناه على هضبة

عالية من جبال الحص" وعرف بقصر بخناصره والذي كان يستطيب النزول فيه كثيراً .. وقصر صالح بن علي بن عباس في بطياس شرقي حلب وغربي قرية النيرب ، وقصر هشام بن عبد الملك في رصافة الرقة وقصور بني حمدان وغيرهم مما اصبح جميعها اثراً بعد عين .

وظلّت حلب بعد الفتح الاسلامي مدينة عربية مرتبطة بدمشق في عهد الامويين وببغداد في عهد العباسيين الى ان دخلت في حوزة سيف الدولة فأعلن استقلالها منفصلة عن بغداد . ولهذا يعتبر مؤرخو العرب والافرنج معاً ان لتاريخ حلب - بعد ان اصبحت مملكة ذات سيادة - ارتباطاً وثيقاً بحياة سيف الدولة سيما في موقفها المجيد بصد هجمات البيزنطيين الذين حاولوا استرداد هذه الربوع من ايدي العرب عشرات المرات فصدتهم ولاقتهم بجيوش كثيفة قادها الامير سيف الدولة الذي استطاع بفروسيته النادرة واقدامه وحماسه وشجاعته ان ينقذ الموقف وان يحفظ لسورية كلها خصائص المدن الاسلامية دون ان تعود لتذوب من جديد تحت حكم البيزنطيين !..

والى موقفها الحربي في صون كيان سورية القومي من عبث الطامعين احتضنت هذه المدينة في عهد سيف الدولة - خلال القرن

الرابع الهجري ـ اعظم الشعراء واكبر الادباء المبرزين وصفوة غير قليلة من القضاة وعلماء اللغة ومن الفلاسفة والموسيقيين فكانت منتدياتها وهذه الحلقات الادبية التي غمرها الامير بعطفه ملتقى لمناظراتهم ومناقشاتهم في الادب والشعر والفن والفلسفة مما عاد على ادابنا القديمة بثروة دونها هذه الثروة الادبية التي عرفتها الاداب الافرنسية والتي كانت نتاج هذه المناقشات التي اثارتها صالونات الادب في عهد لويس الرابع عشر .. ولم تكن هذه المناقشات الادبية ذات لون باهت في ناحية واحدة بل كانت ذات نواحي متعددة تغمرها اضواء مشعة لان المتناقشين كانوا يمتازون بثقافة مزدوجة من فلسفة الاغريق وادب العرب والاسلام .. ولن نتوسع هنا في هذه الناحية لان لهذا البحث مجالاً واسعاً نرجو ان نوفيه حقه بكثير من الاسهاب .

* * * *

يحدثنا المستشرق غوستاف سيشلمبرجر الذي اعتمد في بحثه عن حروب سيف الدولة على مؤرخين بيزنطيين رافقوا الامبراطور نكفور فوكاس في رحلته الى حلب ، الى هذه المدينة التي اسماها مدينة الفروسيه والفنون ولم يتحرج ان يراها مدينة تشابه بيزنطية في كل شيء ـ بأن الدهشة قد هزت قلب فوكاس من عظمة حلب ـ

وهنا يقول المستشرق :

«ولقد دهش الامبراطور نفسه عند دخوله عاصمة الامير من فخامة المدينة وروائها ومن زخرف اسواقها واناقة قصورها، بل لقد شعر قيصر الرومان بالحسد من تفوق حلب على القسطنطنية، وكان من حقه ان يشعر بالحسد لان الفكر العربي الذي جاء وليد الفكر البيزنطي قد ابتدع شيئاً جديداً لم يألفه مؤسسو المدن والعواصم من قدماء الاغريق»(١).

ويصف المستشرق اندره دايفتش مدينة حلب التي تراءت لسيف الدولة حين دخلها لاول مرة بقوله: «وتراءت للامير المدينة بسطوحها المرمرية وقصورها الشاهقة وجوامعها التي تناطح مآذنها السحاب وقلعتها الضخمة الحمراء التي تشبه تاجاً من الارجوان لهذه المدينة الشهباء» ..

وكثير من كتاب الافرنج المعاصرين لا يزالون يرون الشرق مجتمعاً في مدينة حلب واعجب ما يروقهم فيها اسواقها وجوادها وجوامعها وقلعتها الأثرية الخالدة .. وقد اوحت هذه المدينة الوادعة الكثير من الخيالات السحرية لشعراء العرب نخصوها بالكثير من

---

(١) معروف الارناووط في «فتى العرب»

مدحهم ووصفهم وحنو اليهاحنين المشوق المتيم كالبحتري والصنوبري وكشاجم الذي كان مفتونا باشجار السرو التي تغمر المدينة ولعل سروها الجميل وأرصفتها الرومانية وقصورها التي يمت طراز بنائها الى بيزنطية هي التي اوحت الى قيصر الرومان ان يرى وجه التشابه قريبا بينها وبين استانبول في ذلكم العهد .. ومن كبار شعراء العرب الذين اشاروا اليها اشارات لطيفة في شعرهم المتنبي والمعري والخفاجي وابن حيوس وابو فراس والوزير المغربي وابن العباس وكثير غيرهم ممن حملوا عاطفة صادقة نحو هذه المدينة التي التمسوا في ظلال مغانيها ونضير ربوعها عبق انسهم ونعيم لهوهم فحبتهم بما عندها من حب وحنو ولم تضن عليهم بأجمل وألذ الذكريات ..

وكتب التاريخ تصف باسهاب ما كانت عليه المدينة في عهد الامير الحمداني من مجد وزهو وعمران واستباقها المدن المجاورة لاحتضان ثقافة البيزنطيين وكل ما اخذه العباسيون عن حضارة الفرس والاغريق حتى اصبحت بقية العواصم والبلدان كدمشق وبغداد تحسدها على مركزها المدني الجديد وتمنى لو ان لها بعض صوره والوانه !.. ولكن هذا المركز الأثيل الذي تمتعت به في عهد الحمدانيين لم يطل.. لان المدن تزهو بازدهار الملك وسؤدد

السلطان.. بلى.. وللمدن كما للاشخاص غفوات طويلة تسدل الاحداث على حيويتها ستار النسيان. وهذا ما مُنيت به حلب.. وكأن جهادها في حمل عبء النضال القومي والتراث الفكري حقبة من الزمن قد آد ظهرها أو كاد فآثرت الراحة والنوم بعد ان دخلت تحت حكم الفاطميين ثم العثمانيين وظلت مدينة لا تمتاز عن سائر المدن بشيء الا بوداعتها وانزوائها عن صخب الحياة وباحداث مرّت بها مروراً سريعاً ليست ذات بال، حتى كان القرن السابع عشر والثامن عشر فانتبهت لمركزها الجغرافي واخذت توثق هذه الصلة بين الغرب والشرق عن طريق التجارة الواسعة حتى اصبحت في مدة قريبة اكبر مركز للترانسيت في الشرق الأدنى فأمّها تجار من اكبر عواصم الغرب افرنسيون والمان وهولانديون وانكليز وبلجيكيون وبندقيون وغيرهم وغيرهم حتى اصبحت العصب الحي لنمو التجارة وازدهار الصناعة وخلق صلات وثيقة بينها وبين أقصى الاناضول وحتى أبعد حدود العراق وفارس والهند.. وحسب القارىء ان يعلم انه كان في حلب سنة ١٧٧٠ م ثمانون محلاً للتجارة الاوروبية لأصحابها ممثلون ووكلاء رغم بعد المسافات وعدم وجود هذه الوسائل والمواصلات التي نعرفها في يومنا هذا!.

وظلّت المدينة في ثروة ضخمة وبحبوحة من العيش واسعة حتى اضاعت قسماً كبيراً من ثروتها في منتصف القرن السابع عشر بسبب الاحداث العظيمة التي مرت بها كالزلازل والاوبئة وهذا الاضطراب الذي كان يسودها من سوء ادارة الحكم وغيرها .. ثم استعادت مركزها في مطلع القرن العشرين ونشطت نشاطاً عظيما في إبّان الحرب العامة أثرت من ورائه ثروة ضخمة ما لبثت ان تبخرت بكثافة هذه الايام وبهذه الازمة العالمية الخانقة وبحواجز جمركية ثقيلة فصلتها عن منافذها الطبيعية فاستحالت مدينة منعزلة تشهد بقلب حسير زوال مجدها التجاري وانهيار ثروتها الضخمة التي تكاد تصبح في حكم الذوبان والفناء !

* * * * *

على ان المؤرخين والأثريين حين يتحدثون عن هذه المدينة يتناولون باسهاب هذا الفن المعماري البديع الذي تمتاز به عماراتها القديمة والذي هو خلاصة من تطور الفن الاغريقي والفن الاسلامي ممزوجين بشكل يجمع الى الوضوح والاشراق هذه السهولة المعمارية التي تزيد في جماله وروعته .. ولا يترددون ان يقولوا ان أثريات حلب تعطينا صورة واضحة عن تطور الفن المعماري في الشرق .

وقد كانت المدينة منذ عهد البيزنطيين محصنة بجدران من اطرافها الاربعة حتى كانت تبدو بشكل مستطيل . وقد هدم هذه الجدران خسرو الاول الذي احتل المدينة اثناء مروره بسورية سنة ٥٤٠ق م. ولم يمس القلعة بسوء .. على ان هذا الهدم الذي تناول الجدران قد أعيد ترميمه وظلت الجدران محافظة على شكلها الاثري خلال العصور الاسلامية الاربعة وهذا الذي جعل سيف الدولة ان يقول عن حلب انها معقله الحصين . يؤكد ذلك ما رواه ابن بطلان المتطبب الى هلال بن المحسن بن ابراهيم الصابي حوالي سنة ٤٤٠ هـ وقد وصف المدينة وصف مشاهد عيان بقوله : «ودخلنا من الرصافة الى حلب في اربع مراحل، وحلب بلد مسوّر بحجر ابيض. وفيه ستة ابواب» ولعل اعظم اثر بارز في أثريات حلب عدا جوامعها واسوارها ومداخل ابوابها هو قلعتها التاريخية التي يحيطها خندق واسع كبير .. ويظهر ان القلعة قد بنيت مع المدينة فهي تمت بقدمها الى قبل الميلاد بألفي سنه تقريباً . وقد جاء ذكرها كما ذكرت المدينه في الكتابات القديمة والنقوش الأثرية ـ المصرية والآشورية والحثية ـ ولا تزال حتى يومنا هذا جاثمة في قلب المدينه كأنها عظة حية من عظات الخلود.

لقدمر بها الفاتحون ونزلها الغزاة وشهدت أروع المعارك التاريخيه وسالت على جوانبها دماء واحتمى بها ملوك وظن الجميع انهم ملكوها اذ اعتصموا بها ووضعوا جنودهم وحراسهم على مغالق ابوابها ومنافذ اسوارها ولكن هيهات هيهات !..

ولا شيء في حلب اجمل من القلعة في فصل الربيع حين يكسو ظاهرها من القمة حتى سهل خندقها هذا الاخضرار الذي يزيدها فتنة وجمالاً . ومن يرتقي ذروتها العليا ويشرف على المدينة تظهر له بيوتها الجميله ومآذنها المرتفعة وحدائقها وسهولها الواسعة أشبه بفتيات جميلات التففن حول أب رحيم يفيض عليهن الحب والود والابتسام (١)

---

(١) يرجع تاريخ قلعة حلب ، كما رواه الاثري الافرنسي بلوا دي روترو الى خمسة الاف سنة خلت ، اشترك في بنائها كثير من الامم اخصها بالذكر الحثيون والفرس واليونانيون والرومانيون والعرب . أرتفاعها ٣٧ متراً يضاف اليها ٢٢ متراً عمق الحفرة التي تكتنفها . شكل السور أضاري . ارتفاعه ١٢ متراً . هدمته زلازل ١٨٢١ يبلغ طول دائره ٩٠٠ متراً . من أجمل مافيها يرجع عهده الى القرن الخامس عشر ويحتوي على :

١ – رواق طويل له ستة قواعد فرشت أرضه بالحصى المخططة .

٢ – طابق اولي فيه غرف جميلة تطل على المدخل

٣ – وفي الاعلى غرفة واسعة ، مترامية الاطراف كان يسكنها امراء حلب

وحلب ، اليوم مدينة تجنح الى مظاهر الحداثة اكثر من جنوحها الى القدم . العمران فيها آخذ بالازدياد . تتمتع بما تتمتع به المدن الحديثة من المظاهر الحيوية ، تشكو حدائقها فيض الماء لتصبح بما حباها الله من هواء طيب وارض بكر ونزعة الى كل جديد من اجمل مدن الشرق . وهذا ما نرجو ان يذلل مع الايام .

* * * * *

وينتهي ذلك الرواق الى باب كبير ضخم منزو في احد الاطراف مما يزيده مناعة . وهو مصنوع من الحديد ، لم تقو عليه ايدي الدهر ولم ينل منه الاعداء في جميع ادوار حياته . ينسب المؤرخون بناء هذا الباب الى الملك الضاهر ، ولا تسير ثلاثة او اربع امتار حتى يعترضك باب آخر يحرسه أسدان ، والى جانبه سلم يرتقي بك الى السراديب الخفية الخاصة بالملك وحاشيته وتتلو ذلك غرفة اسمها «غرفة الدفاع» وفيها بئر عمقه ٢٤ متراً يتصل بمجاري الماء الملتوية تحت الارض والى جانب هذه الغرفة فتحة سرداب عميق تنزل فيه ستين متراً فيصل بك الى أروقة طويلة كثيرة الظلمة والارتفاع ، وبالقرب من هـذه الاروقـة مذبح لايزال يحتفظ بمحرابه ، وتقف بعد ذلك امام الباب الخامس وقـد زينه العرب بأسدين ضخمـين احدهما يضحك والثاني يبـكي . وتنتهي من ذلك الى طريق طوله عشرون متراً صفت الى جانبيه غرف أعدت للجند وللاسلحة وللخيل . وفي القلعة الغرفة الفارسية ، بنيت في عهد الفرس واصلحها العرب ، قبتهـا آية الفن الفارسي وهي مؤلفة من احجار مربعة من الطوب تزيدها جمالاً ورونقاً . اتخـذت في القرن الثالث عشر سجناً وهي واسعة جداً ويبلغ ارتفاع المأذنة بعد القلعة ٢١ متراً اما القصر فـكان يقطنه امراء حلب وعظماؤها بعـد القرن الثاني عشر أجمل مافيه باب الجناح المعد للحريم .

هذا اجمال تاريخي عن هذه المدينة رأينا من الواجب الاشارة اليه توطئة لبحثنا عن دخول سيف الدولة هذه المدينة التي رافقت احداث التاريخ وقامت بنصيبها الواسع - كما قلنا - من حمل التراث القومي والادبي واحتضنت خلاصة طيبة من رجالات الفتح والفكر فاحبوها واخلصو لها الود والعطف كما غمروها بحبهم وعنايتهم فكان حظها في عهد الامير الحمداني من الملع الحظوظ وسمت بمجد في المكرمات دونه السماكين .

دخول سيف الدولة الى حلب

لقد اشرنا في الفصل الثاني الى غروب شمس الدولة العباسية وما كان من ضعف الخلفاء واستبداد العمال وتغلب النزعات الاعجمية على الروح العربية الصميمة وانبثاق دويلات في اطراف المملكة الاسلامية كان هم رجالها ان يستأثروا بخيرات هذه الممالك وتوطيد نفوذهم الشخصي وارهاق الشعب بضروب من العسف دون ان يفيدوا كيان الملك بشيء .. ثم تحدثنا عن هذه المهانات التي اصابت غير واحد من الخلفاء العباسيين وبالاخص الخليفة المتقي بالله والتجائه الى الحمدانيين الذين رعوه احسن رعاية وصدوا عنه عسف الديلم والترك غير مرة وكيف ان القائد التركي «توزون» لعب ذلك الدور الدنيء الذي بدأه بالخضوع بين يدي الخليفة ثم بالانتقاض عليه وسمل عينيه وخلعه عن الملك على أثر مؤامرة لعب فيها الكيد والدس

وطغى في انجاحها المال وسلطان النساء !..

كانت هذه الفصول تمثل على مسرح الدولة العباسية التي تفككت أوصالها شذر مذر وسادها الاضطراب والفوضى في كل بقعة من بقاعها ..وقد شهد اميرنا الشاب هذه المآسي فاربدّ وجهه واضطرب وإذ غاص في اوحالها الى الاعماق واحسّ بالمهانة التي تحز في كيان الدولة امتلأ صدره بالحقد من طغمة الاعراب المرتزقين الذين كانوا السبب في تفكك هذه الامبراطورية الاسلامية العظيمة ورأى ان يتجه الى بقعة يستطيع بما في نفسه من قوة وعزم ان يعيد للدولة العربية بعض كيانها وان يرفع للعروبة رايتها الخافقة بتأسيسه «الدولة الحمدانية» التي نستطيع ان نعتبرها دولة انبثقت عن الدولة العباسية كالاخشيدية سواء بسواء ... وقد رأى اميرنا الشاب ان ارض الشهباء هي خير مرتع خصب لتحقيق امنياته وآماله فنزلها على رأس جيش لاتحدث كتب التاريخ عن مقداره وعدده ولكن هذا لايمنع ان نقدره بعشرين الف فارس او ثلاثين بالاستناد الى هذه الغزوات والحرب التي خاضها في اراضي الرافدين حيث رد هجمات الديلم فكان تحت امرته مايقرب من هذا العدد او يزيد ..

دخل الامير هذه المدينة الوادعة وهو يحمل في نفسه جيشاً من

الامآل العظام .. وأي أمل أعظم من ان يقيم مملكة عربية تحدث عنها الايام بكثير من الزهو والفخر . وقد كان له ما اراد .. وهل كانت الحوادث ألجسام في التاريخ سوى أثر ميل شخصي ينبثق في نفس قائد عظيم فيعمل على تحقيقه ولو أدى ذلك الى حتفه والى تطويع شعب بأسره ؟.. ولا نضرب الامثال لان الشواهد على ذلك كثيرة في التاريخ القديم والحديث.. ولو يأس سيف الدولة من اول صدمة ووهن عزمه وقبع في أرض الموصل تحت كنف اخيه ناصر الدولة او رضي باستقلاله بـ «واسط» وولايته على ديار بكر وميّافارقين ـ لما كانت «الدولة الحمدانية» ولما رأينا صورة حية من ازدهار الادب في عهد بني حمدان ـ مع ان العصر كان موسوماً بطابع الفوضى والاضطراب ـ ولكانت غزوات الروم أتت على هذه البلاد فأعادتها بقاعاً رومانية لاأثر قطّ للعروبة في ربوعها .. ولكن سيف الدولة ذو مضاء وحزم وعبقرية فاعتمد نفسه وصان هذه البلاد من هجمات الروم الجائحة واستطاع ان يلعب دوراً كبيراً في صد غزواتهم وردهم الى اراض بيزنطية .. وإذ كانت صحف التاريخ القديم لم تتناول هذه النواحي بالدرس المفصل والاشادة بعظمة سيف الدولة فالواجب يقضي علينا ان نسجلها له اليوم بكثير من الفخار والتمجيد ..

دخل سيف الدولة الشهباء عام ٣٣٣ هـ فأعلن ملكه عليها في حفلة بسيطة ليس فيها أي مظهر من مظاهر الملك لان وضعية البلاد الشاذة وتحفز الروم للهجوم والاستيلاء على هذه البقاع ثم هذه الانقسامات الداخلية التي كانت تهز البلاد هزاً عنيفاً هي التي جعلته ان لايهتم بهذه المظاهر العرضية .

وقد يكون من الفائدة – قبل ان نعرض الى بدء حكمه في حلب – ان نرسم للقراء بأية سلطة كانت تحكم هذه المدينة ثم نعرض الى جوهر الموضوع .

لقد كانت هذه المدينة قبل دخول سيف الدولة اليها مسرحاً خصباً للمنازعات ، كانت تشهد هذه الاضطرابات في اطراف المملكة الاسلامية فتألم وتثور في نفسها شتى الميول والاحاسيس ، وكان نزيد في ألمها هذا الطغيان الذي ينالها احياناً من القبائل المجاورة واخصّها قبيلة « بني تميم » التي هجمت غير مرة على البلد فعاث افرادها في الاطراف ونشروا ضروباً مختلفة من القساوة والظلم فشكت المدينة امرها الى الخليفة المقتدر الذي انتدب الحسين بن حمدان – عم سيف الدولة – وكان « بالرحبة » فسار الى بني تميم ولقي منهم جماعة بـ « خناصرة » فقاتلهم قتالاً شديداً وأسر بعضهم ولم يترك الشهباء قبل ان ازال

جموعهم عن ارضها .. وإذ كان مؤنس الخادم والياً على مصر والشام من قبل الخليفة المقتدر اناب عنه في حلب ابا العباس احمد ابن كيغلغ ثم ابا قابوس الخراساني ثم وصيف البكتمري الخادم ثم هلال بن بدر ثم اعاد الخادم وصيف وظلت حلب خلال هذه السنوات تحت ولاية امراء اعاجم يمت بعضهم الى العربية قليلاً وينكرها اكثرهم .. وكانت ولاية هذه المدينة مجال مساومة بين هؤلاء العمال في عهد انتكست فيه الاخلاق وسادت الفوضى والاطماع ، هذا «طريف» الذي ولي حلب سنة ٣٢٤ هـ . بلغه ان الخليفة الراضي قلّد ولاية المدينة الى بدر الخرشني فما كان من طريف الا ان اتصل بالوزير ابن مقله ونفحه عشرين الف دينار ليتوسط له لدى الخليفة لابقائه والياً على حلب !.. ولكن الخرشني كان قد وصل الى حلب . فما هو موقف «طريف» بعد ان توسط بن مقله ؟ وليست المواصلات بين حلب وبغداد لتساعد على الاتصال برقياً او تليفونياً كما هو الحال في عصرنا هذا لتدارك الامر .. إذن ، فليصمد طريف لبدر الخرشني وليعتمد على رجاله وحاشيته . وتقع بين الاثنين مشادة وقتال عنيفان ينتهي ذلك بانهزام طريف واستيلاء الخرشني على المدينة !..

هذا لون من الوان الحكم الذي كانت تخضع اليه الشهباء في

ذلكم الحين !.وهو مثل نسوقه ليعلم القراء ما قيمة الحكم في ذلكم الوقت حيث كان الولاة يساومون على الولاية بمقدار ضخم من المال يدفعونه من جيبهم الخاص بأمل جمعه من جيوب الرعية بعشرات الاضعاف !

ثم دخلت المدينة في حوزة الاخشيديين الذين ولوا عليها اباالعباس احمد بن سعيد بن العباس الكلابي فلم يكد يستلم ولاية حلب حتى استدعى قبيلته من نجد لتكون عونه في الولاية والحكم .. وقدم بنو كلاب من نجد .. ولكن هذه القبيلة كانت بعيدة عن مظاهر المدنية اغراها ما في بعض المدن من خير وفيض فاغارت على المعرة وكان قدومها مثار منازعات لم يرق للاخشيديين فأرادوا ان يسحبوا اباالعباس الكلابي فانسحب منها مكرهاً بدخول ابن رائق الى حلب في طريقه الى دمشق لقتال الاخشيد الذي انهزم بعد ان انتهت المعارك بمقتل اخيه فارسل خادمه وقائده كافوراً مع عسكر ضخم وجيش كبير انتهى بطرد ابن رائق والاستيلاء على حلب .. وكان ذلك سنة ٣٢٩ هـ وظلت بيدهم حتى سنة ٣٣١ هـ حيث استلمها يأنس المؤنسي وفي نفسه مافيها من القلق والاضطراب .. وانتهز الروم هذه الاضطرابات فحوّموا حول حلب يريدون ان ينقضوا

عليها ليدخلوها تحت حوزتهم ويستمروا في استرداد هذه البلاد قطعة قطعة كلما ساعدتهم الظروف . وبينا كانت هذه المدينة لا تعرف أهي تحت سلطة الخليفة ام تحت سلطة كافور الذي ولي عليها ابا الفتح عثمان بن سعيد الكلابي - وكان غير محبوب من عشيرته - اتصل اخوته بالامير سيف واستدعوه الى حلب لاعتزازهم ببطولته واريحيته وإذ كان سيف الدولة يرغب ذلك كاشف أخاه ناصر الدولة بالامر ثم ترك ديار بكر وميا فارقين ورأس جيشه وسار الى حلب في اواخر تشرين اول عام ٣٣٣ هـ ليبدأ خططه في تأسيس مملكته الجديدة .

* * * * *

لقد قدمنا هذه التوطئة لنعطي صورة صادقة عما كانت عليه هذه المدينة وما سادها من الوان الحكم الذي هو — كما قلنا — اقرب الى عهود الاقطاعية منه الى السيادة الشعبية او الحكم المطلق في شخص ملك او أمير ، وكيف ان سيف الدولة عرف ان يلم اطراف مملكته وان يقضي على هذه الفوضى ويتخذ من نفوذه الشخصي سلطة مخيفة يبسطها على المتمردين فأعلن إمارته دون ضجة ولا زعيق لينقذ المملكة من خطر الانقسامات الداخلية وعواصف الغزوات الخارجية ولكن هل استطاع ان يتوجه فور دخوله حلب الى صد هجمات

الروم المحومين حول البلد بعد ان طرد عنها الاخشيديين؟.. بلى.
ان نيران المنازعات الداخلية لم تشغله عن صد الخطر الخارجي .. لقد
وزع قسماً من جيشه في اطراف المملكة وسافر على رأس حملة لمواجهة
الروم فتوج اول غزوة من غزواته بالنصر ورد عن الوطن هذه
الغائلة الاجنبية وعاد منتصراً فكان نصره وفوزه من الوسائل التي
زادت في بسط نفوذه المعنوي وادخلت الرعب في قلوب خصومه.
وإذ دشن سيف الدولة أولى غزواته بانتصاره على الروم عاد لينفخ في
اذآن الاخشيديين ان الفارس لا يزال في الميدان ، وما كان ليريد
سيف الدولة هذه الحروب مع الاخشيديين الذين يرتبطون مع
الحمدانيين برباط الاسلام الوثيق بل كان يحاربهم بقلب يقطر دماً
لأنه كان يرغب لو أن هذه القوى تضافرت مجتمعة وانضوت تحت
لوآئه لصد هجمات الغزو الاجنبي ! وليعيد للامبراطورية الاسلامية
لوائها الخفاق !.. ولكن ها هو يرى الاخشيدي قد جهز جيشاً
كبيراً تحت قيادة خادمه وقائده كافور ويأنسي المؤنس الذي كان
والياً على حلب . واذن لا بد لسيف الدولة من لقائهما ـ وان كان لما
يستقر ولم يسترح من حروبه مع الروم ـ وسار نحو حمص واشتبك
الجيشان في «الرستن» فكانت الغلبة لسيف الدولة فاوقع بهما وبعسا كرهما

حروبه مع الاخشيديين

وأسر منهما اربعة الاف جندي كما غنم جميع ما معهما .، على انه لم يلبث ان اكتفى بالميرة والذخيرة واطلق الأسرى ..

ورأى سيف الدولة بعد ان وصل بجيوشه الى حمص وبعد ان اطمأن على الحدود بطرده الروم - رأى ان يتابع سيره ليستأصل شأفة الاخشيديين الذين اتعبوه في بدء تأسيس مملكته بعد ان كان يأمل ان يكونوا عونه في الدفاع عن حوزة الوطن من هجمات الاعداء الحقيقيين ! . لذلك صمم ان يتوجه الى دمشق .. ويذكر المؤرخون ان سيف الدولة لم يوفق في الهجمة الثانية لان انكسار كافور في الرستن حفز الاخشيدي ان يمده بجيش كبير فجمع له قسماً غير قليل من الجنود المرتزقة وهجم على سيف الدولة الذي رأى من الحكمة ازاء كثافة جيش الاخشيديين ان يتراجع ، ومازال يلاحقه كافور حتى اشتبكوا في قتال مريع في ارض قنسرين انكسر فيها سيف الدولة واتجه نحو الرقة .. فدخل الاخشيدي حلب خائفاً وعاث اصحابه في نواحيها وقطعوا اشجارها الكثيرة وبالغوا بايذاء الاهالي لميلهم الى سيف الدولة الذي احبوه وانزلوه من نفسهم منزلة كبيرة لابائه وسمو نفسه ونبل غاياته ولكن هل استطاع الاخشيد ان يحتفظ بحلب هذه المرة ؟ لا .. ولعله فكر بان عمله هذا ليس في مصلحة

الاسلام او ان سيف الدولة لن يصبر على ضيم ولن يتحمل هذا الانكسار فمد له يد الصلح واتفق الاميران على ان تكون حلب وانطاكيه وحمص لسيف الدولة، ودمشق للاخشيدي على ان يدفع عنها الى سيف الدولة اتاوة سنوية ! أي كأنه اعترف ضمناً ان دمشق يجب ان تضم الى ممتلكات الحمدانيين !.. ولم يكتف سيف الدولة بالاتاوة لان المال لم يكن مطمحه ولم تكن النزعات المادية غايته العليا بل كانت أمانيه تنحصر في ان يوسع هذه الرقعة العربية مهما استطاع وان يضم الى سورية الشمالية دمشق وما حواليها ليعيد للامبراطورية الاسلامية المتفككة الاوصال بعض كيانها المفقود وأثر مجدها الضائع فاغتنم فرصة انسحاب جيوش كافور الى مصر لكفاح المغربي وقصد دمشق حيث استولى عليها وقلبه مطمئن. وللمرة الاولى وطأت قدما سيف الدولة عاصمة الامويين ففتنته غوطتها الفيحاء ورأى في هذه المدينة القديمة الجديدة التي خصها الله بفنون من السحر صورة من جنان الخلد، وتطمع نفسه في ان يمتلكها وان يضمها الى سلطة نفوذه .. وفي ساعة من ساعات الغروب كان سيف الدولة يشرف من جبل قاسيون على غوطة دمشق .. وكان رفيقه في نزهته هذه الشريف العقيقي . ويروق سيف الدولة منظر

الغوطة الخلاّب الذي يحيل دمشق باشجارهـا المتعانقة ساعة انحدار الشمس وراء الافق الارجواني سرباً من فتيات جميلات قد أتزرن بثوب لازوردي يخفق في طياته هواء لطيف هو همس احاديثهن ونجوى غرامهن ورسيس حبهن وهذه النزوات التي تزيد في حرقة قلوبهن – بانت له دمشق كهذا السرب من الفتيات او كقطعة من فراديس الحيـاة .. واميـرنا الشاب شـاعر بأحساسه وشعوره وعاطفته فقال للعقيقي والله ما تصلح هذه الغوطة الا لرجل واحد .

قال له العقيقي : هي يا مولاي لأقوام كثير ..

قال سيف الدولة : لو أخذتها القوانين السلطانية لتبرؤا منها ؟

ولعله اراد من كلمته هـذه انه لو ضمّت الى ملك الدولة لما فاهوا بـكلمة ! .

واذاع العقيقي هذه الرغبة في نفوس اهالي دمشق فأوجسوا منه شراً وخافوا ان يمتلك هذه الارض لنفسه ولم يدرك احد رغبات الامير الحمداني التي ترمي الى تعزيز المملكة العربية الفتية على انقاض الدولة العباسية وانه احب ان يربط بين دمشق وحلب وان يجعلهما جناحين قويين للدولة الحمدانية!. لم يدركوا هذه الرغبات او ادركها المتنفذون فخافوا ان تذهب املاكهم وقوداً للدفاع عن حمى

الوطن فاتصلوا بكافور وافضوا اليه بمطامع سيف الدولة وطمحاته وطلبوا اليه العودة ليحول دون طغيان هذا الامير الحمداني الشاب ، واذ كان كافور لايزال يحن الى دمشق جهز حملة جديدة واتجه نحو «جلّق» حيث التقى بسيف الدولة واشتبكا بقتالٍ غير عنيف، وخاف سيف الدولة انتقاض الاهالي عليه بعد ان فسر المتنفذون رغباته بما لا يتفق ومصالحهم الخاصة فقرر ان يرجع الى احضان مملكته الجديدة، الى ارض الشهباء ليستقر فيها نهائياً .

وانه لمن الغرابة بمكان ان يوجس الدمشقيون شراً من سيف الدولة لمجرد رغبة زاق بها لسانه هي في اعتقادنا لمصلحة الوطن والاسلام معاً وان يطمئنوا لسلطان الاخشيديين في شخص كافور الغلام الاسود(١) ويرتضوا عودته الى دمشق ولم تكن سيرته ولا

---

(١) وكافور هذا عبد اسود ،خصي، مثقوب الشفة السفلى ، عظيم البطن ، مشقق القدمين ، ثقيل البدن ، لا فرق بينه وبين الأمة . قيل سئل عنه بعض بني هلال فقال رأيت امة سوداء تأمر وتنهي ! وكان هذا الاسود لقوم من اهل مصر يعرفون ببني عباس يستخدمونه في حوائج السوق وكان مولاه يربط في رأسه حبلاً اذا اراد النوم فاذا اراد منه حاجة يجذبه بالحبل لانه لم يكن ينتبه بالصياح ! نعم . لغريب جداً ان يفضل اهل دمشق ــ في ذلكم الوقت ــ هذا الاسود الخصي على امير عربي كريم كسيف الدولة !

سيرة سيده الاخشيدي لتزكوا بحسنة من الحسنات بل عرف
بظلمه واستبداده ومصادرته اموال الاغنياء واستصفاء املاكهم
سواء في الشام او في مصر .. وكي نلمح الى حكم الاخشيديين وانه
لم يكن ارأف بالرعية من حكم الحمدانيين نورد نص الكتاب
الذي وجده الاخشيدي في داره بدون توقيع .. والكتاب يفسر
مانبض به قلب الشعب ويصور الحالة تصويراً واضحاً لاغموض فيه
اضف الى هذا ان سيف الدولة عربي من صميم العرب والاخشيد
او كافور عجمي لايمت الى العربية بنسب وتفضيل حكم الاخشيديين
على الحمدانيين مسألة تدعو الى العجب الكثير .. وهذا صورة الكتاب
الذي وجده الاخشيدي بداره قبل مسيره من مصر الى الشام :

«قدرتم فأسأتم ، وملكتم فبخلتم ، ووسع عليكم فضيقتم . وادرّت
عليكم الارزاق فقطعتم ارزاق العباد ، واغتررتم بصفو ايامكم ولم
تفكروا في عواقبكم ، واشتغلتم بالشهوات واغتنام اللذات ، وتهاونتم
بسهام الاسحار وهن صائبات . ولا سيما ان خرجت من قلوب
قرّحتموها واكباداجعتموها ، واجسادعريتموها ، ولو تأملتم في هذا
حق التأمل لانتبهتم ، او ما علمتم ان الدنيا لو بقيت للعاقل : ما وصل
اليها الجاهل ، ولو دامت لمن مضى ما نالها من بقي ، فكفى بصحبة

ملك يكون في زوال ملكه فرح للعالم، ومن المحال ان يموت المنتظرون كلهم حتى لا يبقى منهم أحد. ويبقى المنتظر به، افعلوا ما شئتم فأنا صابرون، وجوروا فأنا بالله مستجيرون. وثقوا بقدرتكم وسلطانكم فأنا بالله واثقون، وهو حسبنا ونعم الوكيل» وقد ذكر المؤرخون ان الاخشيدي بقي بعد سماع هذه الرقعة في كثير من الاضطراب والهمّ وسافر الى دمشق فمات فيها سنة ٣٣٤هـ.

وعبارات الكتاب تنم عن حرقة وشكوى مرة من بطش الاخشيديين سواء في مصر او في دمشق. على ان حكم سيف الدولة لم يوصم بهذه الوصمة وكل ما عمله ان جبى الخراج الشرعي وجعل يطالب الدمشقيين بودائع الاخشيدي التي ارادوا ان تكون لهم - على ما يظهر، ثم أفضى برغبته ان تكون الغوطة له أي ملكاً للوطن فكلفته هذه الكلمة كثيراً وهبّ المتنفذون يحيكون الدسائس ويتصلون بكافور الذي استدعوه مع ابن الاخشيد، وأحس سيف الدولة بهذه الدسائس فاستعدّ للقتال وجهز جيشاً بخمسين الف فارس وسار الى ارض فلسطين حيث تلاقى الجيشان في «اللجون» في جهة «نابلس» واشتبكا بقتال مريع جداً، واذ كانت جيوش الاخشيديين عظيمة رأى سيف الدولة انه من الحكمة ان يتراجع حتى وصل الى حمص واستنهض همم القبائل العربية

لجمع عدداً كبيراً من بني عقيل وبني نمير وبني كلب وبني كلاب وخرج بهم من حمص وشخص عساكر الاخشيدية من دمشق فالتقوا «بمرج عذراء» على بعد ساعتين من دمشق فانتصر سيف الدولة اولاً ثم خذل ثم رأى ان يتراجع بفلول جيشه الى حلب وان يتخذها قاعدة ملكه ويستقر فيها نهائياً . وقد كان ذلك بعد ان عقد الصلح بينهما مجدداً على ان تظل حمص وانطاكية مع حلب وضواحيها لسيف الدولة ..

* * * * *

واذ استقر في حلب رأى ان يبدأ اولى اعماله ببناء قصره البديع في ارض الحلبة ، أي في سفح جبل الجوشن ، هذا القصر الذي خصه الشعراء بكثير من وصفهم لما حواه من دقائق الفن وبديع الزخرف ومختلف التصاوير والنقوش ، وإذ كان الشعر العربي قد وصف هذا القصر وصفاً شاملاً دون ان يشير الى دقائقه فان مؤرخي الغرب قد فتنوا بروعته ووصفوه وصفاً اقرب الى الخيال منه الى الحقيقة ، ولكن الذي يدرس تاريخ سيف الدولة وينفذ الى طباعه والى مزاجه الشعري والى بذخه وذوقه الفني لا يستكثر عليه هذا القصر الذي يصفه اندره دايفتس المستشرق الافرنسي في

قصته عن الامير سيف بقوله :

«وابتنى الامير بواسطة الأسرى العديدين على ضفاف نهر قويق قصراً عظيماً دعاه «قصر الحلبة» فجاء بأحذق المهندسين وأمهر المصورين وابرع البنائين والنجارين يعتنون ببناء وفرش هذا القصر على افخم طراز وأبدع ما تضمه قصور اباطرة الرومان ..

«وعندما افتتحت ابواب القصر للمرة الاولى كان ذلك مثار الدهشة والاعجاب لان الابواب كانت من البرونز النحاسي نقشت عليها الوف التصاوير المستغربة الجميلة ، وهي تدور على قواعد من الزجاج حتى لا تأتي بحركة ، وإذ تدخل الباب تواجهك قاعات متتابعة ملأى بالاعمدة المرمرية المزركشة والموشاة بالذهب والفضة وجعل المصورون رسوم الزهور في اواسط القبب العالية حيث حفروا بين جهة وأخرى آيات من كتاب الله الكريم باحرف كوفية جميلة وابيات مختارة لاعاظم الشعراء بأحرف فارسية فنانة»

ويزيد المستشرق الذي رجع في وصفه هذا الى مؤرخين رومانيين شهدوا روعة القصر بقوله :

«وكان للقاعة الكبرى خمس قبب بلون اللازورد يحملها ١٤٢ عموداً من المرمر المزركش بالفضة والذهب ، تنيرها الوف من

النوافذ الزجاجية الملونة ، وفي وسط كل عمود خرجت زهريات ملأى بالزهور والنباتات النادرة . وفي الوسط افريز عظيم من الخشب الابنوس الموشى بالذهب جعل خصيصاً لجلوس الامير ورجاله الاخصاء وحفر عليه رسم الامير منتصراً على الصحراء» ..

ويسهب المستشرق بوصف السجاد الفاخر والدمقس الغالي ومحارق البخور التي تزين القصر ويبدع في وصف البحيرات المنتثرة هنا وهناك في حدائق القصر ثم يصف بكثير من اللباقة الحرم النفيس الذي كان يتسع لسكني ثلاثماة امرأة . ثم الحمام التي كانت آية الفن والذوق الرفيع ، ويشير الى المياه البلورية التي كانت تتدفق من فم اثني عشرة سمكة من الذهب الابريز ويصل به وصفه الى ان يذكر الاصطبلات ذات المعالف الرخامية لألف جواد وجواد » ...

ان في هذا الوصف لقوة هو اقرب الى الخيال منه الى الحقيقة . ولكن هل هذا الخيال نثار من الهباء لا يرتكز على اساس وطيد ؟.. كلا .. ان فيه كثيراً من الحقائق .. والشعر العربي لم يهمل ذكر هذا القصر وبالاخص الشاعر المتنبي .. ونحن نعلم ان العقل العربي كان يعمد الى التعميم دون الالتفات الى هذه الدقائق

التي وعتها الذاكرة الرومانية فنقلتها بصورة أوسع في كتب التاريخ واتخذها مستشرقو اليوم مادة قوية لوصف أعم وخيال اوسع..

ويذهب البعض الى ان قصر الحلبة هو هذا البناء القائم في سفح جبل الجوشن أي «المشهد» الذي لاتزال بقايا حجاراته قائمة والذى استحال الى مدفن بعد هذا الانفجار العظيم الذي حدث فيه عقب الحرب العامة حيث اتخذه الاتراك مستودعاً للذخائر الحربية ونحن لانجزم بهذا الرأي ، لأن «المشهد» جامع قد الحقت فيه بعض غرف لاتتناسب وروعة القصر الذى تحدثنا عنه ونرجح انه كان في تلك البقعة ..وهذا مايؤيده ابن الشحنة في كتابه «الدر المنتخب في تاريخ مملكة حلب» حين يتحدث عن قصور حلب القديمة فيقول عن قصر الحلبة :

« بناه سيف الدولة بن حمدان بالحلبة عظيماً واجرى اليه نهر قويق واطافه به - والحلبة محلة من ضواحي حلب من جهة الغرب وهي مكان صحيح الهواء ، حسن التربة ، مشرف على النهر وبه كروم وميدان بل ميدانان تقام فيهما حلبة السباق ويتصل بها مكان يقال له «الفيض». وبعد ، فلولا ان كتب التاريخ تحدثنا بان نيقفوروفوكاس الامير البزنطي الذي اشتبك مع سيف الدولة اكثر من عشر مرات بقتال مريع انهت آخر حروباته معه بهدم القصر وسبي أنفس

مافيه ـ لولا ذلك لكان اليوم عندنا في الشهباء اثر فني قل ان يكون نظيره في الشرق ولكانت الالف سنة التي تصرمت عليه زادته روعة وجمالاً وقيمة أثرية نادرة. ولكن هي همجية الحروب التي كثيراً ماتنم عن بداوة الطبع الانساني في شخص اناس تحسبهم صورة حية لمدنية رفيعة واذا هم مردة طغاة لايبرد غليل انتقامهم الا في التجني على اسمى مايقدسه الفكر .. لقد غلب سيف الدولة نيقفور غير مرة واستطاع ان يدوس كرامته حتى في ارض الروم فعز عليه هذا الخذلان المريع فلما اتيح له دخول حلب كان اول همه ـ وقد خلاله الميدان من فارسه الصنديد ـ ان يستولي على القصر وان يحطم أثمن مافيه من اعلاق ونفائس وقطع فنية ثمينة .. وبذلك خسر الفن العربي اروع اثر تاريخي كان يمكن ان يعطينا اصدق فكرة عن دولة فنية قامت على صميم العربية وقضت نحبها في سبيلها.

— ٢ —

« كان بنو حمدان ملوكاً وامرآء أوجههم للصباحة ،
«والسنتهم للفصاحة ، وايديهم للسماحة وعقولهم للرجاحة
«وسيف الدولة مشهور بسيادتهم وواسطة قلادتهم .
«.. وكان حضرته مقصد الوفود ، ومطلع الجود ، وقبلة
«الآمال ، ومحط الرحال وموسم الادباء وحلبة الشعرآء .
«. ويقال انه لم يجتمع قط بباب احد من الملوك بعد الخلفاء
«ما اجتمع ببابه من شيوخ الشعر ونجوم الدهر .. وكان
«اديبا شاعراً محبا لجيد الشعر .. شديد الاهتزاز لما يمدح
«به . » الثعالبي في «يتيمة الدهر»

* * * * *

.. بعد ان رجع سيف الدولة الى هذه المدينة التي استهوته لتحقيق احلامه الغالية في بناء الكيان العربي الجديد وبعد حبوط خططه في ضم دمشق الى هذه الرقعة العربية .. أهتم بعمران الشهباء اهتماماً بالغ الأثر وكانت اولى اعماله بنائه قصر «الحلبة» الفخم ، وقد أتخذ من ميله للادب مجالاً واسعاً ليحبو كبار ادباء العربية المبعثرين في مختلف البلدان لجمع شملهم في هذه الارض الجميلة وجعل منهم قوة عرف كيف يجعلها تخلص له وتذيع امره وتخلّد ذكره في الامصار . ونحب ان نشير الى ناحية جديرة بالملاحظة والتأمل وهي ان انفراط

عقد الدولة العباسية وخضوعها لعسف الترك والديلم واستقلال الولايات والامارات في انحاء المملكة جعل الشعراء والادباء الذين كانت اما لهم معلقة بكيان دولة كبيرة اشبه بعقد من اللؤلؤ المنظوم قد انفرطت حباته وتبددت هنا وهناك... ولقد قبع الشعراء في بيوتهم لا يرتفع لهم صوت وكانت همساتهم لا تتجاوز جوانب قلوبهم واوساطهم الخاصة .. وشعر الامراء الذين استقلوا بالممالك انهم في أمس الحاجة الى هذه الفئة من الموهوبين لتذيع اعمالهم وتحدث عن غزواتهم وتنشر اراءهم وتسبح بحمدهم وتقلب سيئاتهم حسنات - والشعراء في تلكم العصور أشبه بالجرائد اليومية في عصرنا هذا، أي كانوا يقومون نحو الدولة والافراد بما تقوم به بعض الجرائد الآن - واخذت هذه الامارات التي قامت على انقاض الدولة العباسية تجتذب اليها الادباء والشعراء وتستغل مواهبهم بهذه الاعطيات التي كانت تغدق عليهم اغداقاً .. وكان اميرنا الحمداني اكثر الامراء تقديراً لهذه النزعة الحية .. وسيف الدولة امير شاب وشاعر اديب تذوق الادب بدقة ولباقة ودرسه على شيوخ ممتازين وادباء مبرزين فاجتمع له من هذا الدرس ومن ميله الصميمي للادب ما دفعه ان يرعى الادباء ويهتم لامر الشعراء اكثر من غيره، وإذ كانت امانيه

تتجه هذه الوجهات السامية واحس من اعماق نفسه بأنه سيضطلع
بعمل جليل في توطيد مملكة جديدة وان لا بدّ لهذه الاعمال الكثيرة
من ان ترسم على صفحات الدهر باحرف بارزة - إذ احس هذه
العوامل فتح ابواب مملكته لمختلف رجالات الفكر واصفوة
طيبة من اكابر ادباء العربية وامرائها فهرعوا اليه من كافة الاقطار
الاسلامية يزجي بعضهم امل واسع بازدهار هذه المملكة العربية التي
ولدت ولادة جديدة ، ويطمع البعض بعطايا سيف الدولة التى كانت
ابلغ قيمة من هذا الشعر الذي فاضت به اخيلتهم . وعطايا اميرنا
الحمداني اصبحت مضرب المثل في تاريخنا الادبي فهي الى انها ترسم
مدى اهتزاز نفسه من الشعر الحي تعطينا فكرة صادقة عن
تطور الادب فيما اذا حبته الدولة ورعته بعنايتها الرحيمة .. والشيء
الذي كان يحفز الشعراء الى الاجادة ان ممدوحهم كان يفهمهم حق
الفهم .. وليس احب الى الشاعر من رجل يفهمه وينفذ الى طوايا
نفسه .. انه في هذه الحالة يهبه كل ماينطوي عليه جوانب قلبه من
حب .. وهذا الحب كان يستحيل قصائد قوية كلها اشادة ببطولة
الامير واطراء شخصيته ، وثمة أمر آخر ان سيف الدولة لم يكتف
ان يسمع شعرائه كلمات الاعجاب والتقدير بل كان يملأ جيوبهم

بمئات الدنانير والآفها .. وكان يقطعهم الضياع يستغلونها ويغدق عليهم مختلف الاعطيات الثمينة .. وقد تجاوز به الاسراف حتى انه كان يمنح الشاعر المنح الغالية لمطاوي الكلمات ومن ذلك ان المتنبي حين انشده قصيدته التي اولها:

أجاب دمعي وما الداعي سوى طلل

دعا فلباه قبل الركب والابل

وناوله نسختها .. فنظر فيها سيف الدولة فلما انتهى الى قوله :

يا أيها المحسن المشكورُ من جهتي

والشكر من جهة الاحسان لا قبلي

ما كان نومي الا فوق معرفتي

بأن رأيك لا يؤتى من الزلل

أقلْ، أنل ، اقطع ، أحمل ، علْ، سلّ ، أعد

زدْ، هش ، بش ، تفضل ، أدنِ ، سَر ،صلِ

وقّع تحت أقل : وقد اقلناك

وتحت أنلْ : يحمل اليه من الدراهم كذا ..

وتحت اقطع : قد اقطعناك الضيعة الفلانية ..

وتحت احمل : يقاد اليه الفرس الفلاني

وتحت عل : قد فعلنا

وتحت سل : قد فعلنا فاسْلُ

وتحت أعد : اعدناك الى حالك من حسن رأينا

وتحت زد : يزاد كذا..

وتحت تفضل : قد فعلنا

وتحت ادن : قد ادنيناك

وتحت سر : قد سررناك

على ان المتنبي لم يقصد السرور بل اراد «سَرّ» من السرية ، على ما رواه ابن جني عن المتنبي ذاته .. فأمر له بجارية ..

وكتب تحت صل : قد وصلناك

ان هذه الاحاديث والاعطيات لم تكن ضرباً من الخيال بل شيئاً واقعياً وقصائده في ذلك كثيرة وحسب المتنبي ان يردد فيه :

تركت السرى خلفي لمن قلّ ماله
وانعلت أفراسي بنعماك عسجداً

وقيّدت نفسي في هواك محبة
ومن وجد الاحسان قيداً تقيدا

وليس في ذلك أي نبو عن طبع سيف الدولة الذي كان يختلف

عن بقية الامراء في كشف خصائص الشاعر واقتناص مواهبه .
فقد كان هؤلاء يعتمدون في تقدير موهبة الشاعر على وزرائهم ورجال حاشيتهم بخلاف سيف الدولة الذي كان يعتمد على ذوقه الخاص وثقافته الادبية الممتازة ..

وفي هذا ما فيه من الاثر البيّن في نمو الحركة الادبية وتطورها البليغ .. بل هذا ـ في اعتقادنا ـ من أهم العوامل الذي جعلت ان يكون موقف الشعراء منه غير موقفهم من بقية الامراء . فكانوا اذا مدحوه مدحوه عن ايمان بعبقريته وتقدير لرجوليته . والمتنبي الشاعر رغم ما تلمسه من ضروب التغالي في امادحه لسيف الدولة فشعره فيه اصدق الف مرة من شعره في كافور الاخشيدي او في غيره من الامراء مع ان المتنبي ترك حلب وودع سيف الدولة وفي نفسه ما فيها من حنق وثورة على الوشاة الذين حالوا دون ان يقضي بقية ايامه في خدمة هذا الامير الحمداني الكريم .. ولقد أحرجه شيوخ المدرسة القديمة وعلى رأسهم ابن خالويه فاخرجوه من حلب الى مصر ورغم كل ذلك فقد ظل قلبه معلقاً بحب سيف الدولة . فعلى مَ يدلنا هذا ؟ يدل على ان شخصية سيف الدولة هي التي كانت توحي الى الشعراء المعاني الغالية والخيال المبتكر .. ورأينا مدينة حلب تجمع في سنوات

متقاربة اكابر رجال ذلك العصر ، فهذا المتنبي ، والفارابي ، وابو ذر والصنوبري، وابن خالويه ، وابن جني ، والبكتمري، والنامي، وكشاجم وابن ابي الفياض ، وابو الفرج العجلي وكثيرون من القضاة والنحويين والادباء والشعراء والفنانين وكلهم ينعمون بخيرات سيف الدولة ويزينون مجالسه ويتقدمون اليه بنتاج شعرهم وأصفى ماتلده قرائحهم الوقادة وانتظام هذه المجموعة في حلب ، في عاصمة الدولة الحمدانية ، وكلهم من بلدان مختلفة وذوي ثقافات متباينة يدعو حتماً الى وجود اكثر من مدرسة في الادب ، واذا لم نتوسع في كشف هذه المدارس وتميز الوانها وطابعها قلنا ان الامر دعا لان يكون في ذلك العهد مدرستان : مدرسة الادب القديم ومدرسة الادب الجديد .. وقد كان ذلك . وكان صالون سيف الدولة يزخر بهذا الجمع القوى في ثقافته الادبية وكانت المناقشات تضطرم والعداوات تثور ، والحسد يتأكل قلوب الادباء وكان سيف الدولة يغمر الجميع بعطفه وعنايته ويزودهم بابتسامته التي لا تنضب تموجاتها الساحرة وكان لا يتأخر ان يوغر - من طرف خفي - صدر هذا على ذاك لانه يعلم ان هذه المناظرات وهذا التنافس هما ربح أكيد للادب وكسب طريف للفنون وتمهيد قوي لولادة العبقريات .. ولا نتوسع هنا في هذه الناحية لان

هذا سيأخذ منا دراسة وافية في فصولنا القادمة .. ولكننا اردنا بهذه الاشارة ان نقول ان سيف الدولة كان في جمعه الشعراء والادباء تحت لوائه من أقوى العوامل في ازدهار الادب العربي وتطوره في القرن الرابع وفي رفع اسم هذا البلد عالياً في التاريخ الادبي كما رفعه في التاريخ السياسي حيث جعل امر هذه المملكة موضع اعجاب كل من التفت الف عام الى الوراء ليدرس امرها حين يُستعرض تاريخ الامارات العربية .

وهذا الذي جعل مؤرخو الادب يتفقون على ان عهد سيف الدولة كان من اكثر نواحيه أزهر عصور الادب العربي ... وحسب القارئ ان يذكر قول الثعالبي ـ وهو ثقة من شيوخ الادب ويكاد يكون مؤرخاً اديباً معاصراً ـ انه لم يجتمع قط بباب احد من الملوك ما اجتمع ببابه من شيوخ الشعر ونجوم الدهر ليعرف أية مكانة رفيعة بلغه الادب في ذلكم العصر .

ان هذه الظواهر الجديدة التي تجلت في عناية « الدولة الحمدانية » بالادب وحرصها على مجد العرب بعد ان انتكست الاحوال وطغت العجمة على النواحي السياسية والادبية جعلت الامارات المجاورة تلتفت الى اعمال سيف الدولة والى خططه وبرامجه وكانت الناس

تهرع الى حلب من كل صوب وكل يطمع ان ينعم بخيرات سيف الدولة ويكون عضداً له وهكذا اصبحت حلب في سنوات قليلة من أزهى عواصم البلدان الاسلامية . وكما ترى في يومنا الصحفيين الاجانب يهرعون الى العراق والى تركيا وكما هرعوا من قبل الى دمشق في عهد فيصل يتلمسون امر هـذه الممالك الجديدة التي تبني مجدها بيدها دون ان تلتفت الى عواصف الايام فقد كانت هذه الرغبة في نفوس مؤرخي الافرنج وادبائهم قبل الف عام .. يدلنا على هذا ما كتبه مؤرخو الفرنجة عن الدولة الحمدانية ، ولا نغالي اذا قلنا ان مؤرخي الفرنجة كانوا اكثر عناية بهذه الدولة العربية منهم بمؤرخي العرب ... وان الانسان ليسمع آراءهم صافية مجلوة بروح الانصاف والاعجاب .. ومردّ ذلك عبقرية سيف الدولة التي تجلت قوية مخيفة في معارك الحرب ، ومشرقة باسمة في رحاب السلم حيث «فتح قصره ـ على حد رواية المستشرق سيشلمبرجر ـ الى كل فنان واديب موهوب ، فوفدوا عليه من جميع الاطراف ، من العراق ، من فارس ، من الشام ، من بيزنطية ، من البندقية وجنوى .. وكان يستمع الى الشعراء ويحبب الى الكتاب والمصورين ويمنح المؤرخين الشيء الكثير من عطاياه ومنحه فيعود هؤلاء الى بلادهم حاملين

الى شعوبهم صورة رائعة من خلق الرجل العالي وشخصيته العجيبة »

نتهي من هذا الى ان اميرنا الشاب لم يشأ بعد ان دفع عدوان الروم لاول مرة من هبوطه حلب وبعد ان حارب الاخشيديين ـ ان يزج نفسه بحروبات دامية مع البيزنطيين قبل ان يوطد اركان مملكته ويبسط آفاق نفوذه .. فاتخذ الادب طريقاً ممهداً . ووفق فيما رمى اليه بكثير من اللباقة والذكاء .. فكان امره خلال اقامته في حلب بين الغزو والحرب وبين الادب والشعر ... وله في الامرين شأن وأي شأن !.

سيف الدولة

حروبه وغزواته

شخصية سيف الدولة ـ مصادر البحث ـ قيصر الروم ـ
تحقيق معنى الدمستق ـ اضطراب الرواية العربية ـ
المعارك الاولى ـ امادیح الشعراء ـ

منذ توطد ملك سيف الدولة في حلب وأمن ، الى حد ما ، خطر الفتن الداخلية أخذ يعد العدة للقاء البيزنطيين ودفع هـذا الخطر الخارجي المدلهم .

الحق ، ان مهمته كانت شاقة جداً ،، ولكن سيف الدولة لم يكن ذلك الرجل الوكِل الذي تعصف به الاهواء ،، كان رجل قوة وعزم ، وصاحب عقيدة وايمان .. لقد شعر شعوراً قوياً بأن الجهاد

في دفع طغيان الاجنبي فرض من الفروض المقدسة ،، وسيف الدولة امير شاب نشأ على حب المغامرة والعراك وكان حرصه على صون هذه المملكة التي بناها بكثير من حبه وايمانه وعروبته مثاراً لأن يقضي أخلد ايامه في الحرب والنضال . وماذا تريد من امير شاب تسنم صولجان الملك وقد توفرت لديه كل وسائل الرفاه والنعيم فلا تغريه هذه اللذات السحرية التي تشيع في بلاطه فينتفض انتفاضة الاشبال - كلما دعاه الواجب - للقاء البيزنطيين في آكام طوروس وسهول الاناضول . نعم ، لم يكن سيف الدولة كاولئك الامراء الذين يركنون الى بلهنية العيش وارضهم مهددة بالغارات ، ولم يكن كاولئك القواد الذين ينفخون روح الحماس في صدور رجالهم ويدفعونهم الى الموت ثم يأوون الى قصورهم بعيدين عن نيران المعارك حتى اذا ما آتاهم النصر حصدوه وهم في نشوة وخيلاء . بل كان سيف الدولة رجل عراك وقتال . كان يتقدم جيشه وقلبه مطمئن . وبماذا ندل على بطولته اكثر من ان نشير الى لقائه البيزنطيين اكثر من اربعين مرة في حروب دامية عدا غزواته المتعددة التي حمل فيها على رجال القبائل الذين كانوا يعيثون في اطراف المملكة ويتمردون كلما رأوا الامير الحمداني منشغلاً في قتال البيزنطيين . كان

يناضل عن انبل غاية بينما كانوا يجرون وراء أخس غاية . وهذا الذي يزجينا ان نوالي دراستنا لكشف خصائص هذا الامير العربي وابرازها واضحة رغم مايعتور بحثنا من مصاعب . وهذي المصاعب التي اشير اليها هي فقد المصادر الكافية التي تتطلبها الدراسات الحديثة سيما في البيئة التي اعمل فيها . ومع ذلك فأن المصادر العربية التي تحدث عن سيف الدولة والمصادر الافرنجية التي تحدث عن الامير البيزنطي الذي اصطدم مع الامير الحمداني في اكثر غزواته تضيء جوانب البحث بعض الأضاءة . وقد اعتمدنا في بحث حروبه وغزواته الى هذه المصادر العربية التي بين ايدينا والى بحوث المستشرق سيشلمبرجر - وهو خير من عرض الى حروب البيزنطيين مع سيف الدولة بتوسع - والى غيره (١) ثم الى قصائد الشاعرين اللذين رافقاه الى ميدان القتال ووصفا غزواته : المتنبي وابي فراس . ولاشك ان قصائد المتنبي في وصف المعارك التي خاضها سيف الدولة هي من القيمة التاريخية بمكان . ذلك لان الشاعر في مثل هذه الظروف لايستطيع ان يعتمد على الخيال وحده والحقيقة ماثلة امام عينيه . واكاد أميل - بعد ان امعنت النظر في روايات المؤرخين - الى ان قصائد الشاعر -

---

(١) سنذكر في ختام مباحثنا كافة المصادر التي اعتمدناها في كتابة هذه السيرة

في بعض النواحي ـ أصدق من روايات المؤرخين التي يعتور اكثرها الاضطراب والتشويش. ونقف عند هذه التوطئة لنبدأ وصف المعارك التي خاضها الامير الحمداني. وقد يكون من الخير ان نعرف ـ قبل ان نبدأ وصف هذه المعارك ـ مَنْ هو هذا القائد البيزنطي الذي اصطدم مع سيف الدولة في حروبه وغزواته... تكاد تتفق الروايات العربية على ان حروب سيف الدولة كانت مع الدمستق !. وحتى المتنبي يذكر «الدمستق» في كثير من قصائده، وعبثاً حاولنا ان نرى في المصادر الاجنبية اسماً للدمستق فلم نجد. انها تذكر نيسفور فوكاس وبارزاس فوكاس وغيرهما. اذن فمن هو الدمستق؟ وعلى مَ يدلّ هذا الاسم؟ أهو اسم قيصر الروم ام اسم قائده، أم هو لقب ام صفة من الصفات !لقد تبين لنا بعد البحث ان معنى الدمستق في الالقاب البيزنطيه هو «ضابط البلاط» لان كلمة «دمستق» مشتقة من كلمتي Grand Domestique وهي الصفة التي كان يحملها نيسفور فوكاس القائد العظيم في عهد قيصر الروم قسطنطين السابع وكان لقبه Grand Domestique de Seholer d'orient اي «ضابط البلاط في ايام الامبراطوريه البيزنطيه[1]» وطالما قد عرفنا ان

---

(١) ذكر الحافظ الذهبي في كتابه «تاريخ الاسلام» ان معنى الدمستق هو نائب

الدمستق لم تكن الا صفة ، وان القائد الذي التحم مع سيف الدولة في حروبات دامية هو نيسفور فوكاس فيحسن ان نلم المامة موجزة بسيره هذا القائد البيزنطي قبل ان ندخل صلب البحث .

القائد البيزنطي

نيسفور فوكاس قائد بيزنطي عظيم . حارب في عهد قسطنطين السابع مدة طويلة كما حارب في عهد رومان الثاني . وفي السنة ٩٦٣م - وهي السنة التي توفي فيها رومان الثاني - تسنم نيسفور فوكاس العرش (١) وتزوج ارملة الامبراطور المعروفة باسم «تيوفانو الجميلة» . وبطولة نيسفور فوكاس وحروبه مع سيف الدولة واسترداده بعض البلدان الاسلامية وغزوه قبرص وكليكيا وسورية الشمالية ودخوله انطاكيه من الممهدات التي بوأت له عرش المملكة البيزنطيه وأدنته قليلاً من قلب المملكة . ولم تقف حروب هذا الامير

البلاد في شرقي قسطنطينية . وفسر الخضري في كتابه «محاضرات تاريخ الامم الاسلامية : الدولة العباسية» ان الدمستق عند الروم هو الرئيس الأكبر للجيش والبطارقه قواده . والصيغة الافرنجية ادق واضبط .

(١) لقد عرضت بعض الروايات العربية الى ذكر نيقفور باعتباره ملك الروم واكتفت بصفته حين كان قائداً معتبرة - الدمستق اسماً من الاسماء . ومن هنا وقع الاضطراب !

البيزنطي الشجاع عند هذا الحد بل كان يحارب في نفس الوقت في جهات البلقان ووصل نفوذه الى ايطاليه الجنوبية وحارب اوطون الاكبر - ملك المانيا - واعظم امراء النصرانية في القرن العاشر الميلادي ؛ واذ توسع بحروباته في الشرق والغرب اضطر ان يزيد الضرائب وان يمس اموال الكنيسة فأتُمر عليه من قبل اعز قواده ومن قريبه جان تسيمس وحتى من قبل امرأته ، ومات اغتيالا في ١٠ ديسمبر سنة ٩٦٩ م .

هذا هو نيسفور فوكاس Nicéphore Phokacs الامير والامبراطور البيزنطي العظيم الذي حارب سيف الدولة وكانت الحرب سجالا بينهما مدة عشرين سنة كاملة .

اذن ، فيجب ان تنفي من المصادر العربية اسم «الدمستق» كاسم وان لا نقلبه الا كصفة وان نذكر دائما اسمه الحقيقي كقائد من القواد البيزنطيين في بدء حروباته ثم امبراطور عظيم له السيطرة الكبرى منذ عام ٩٦٣ - في بيزنطيه وفي قسم غير قليل من شرقي اوروبا .

والآن ، وبعد ان عرفنا قيمة هذا الخصم القوي الذي حاربه سيف الدولة نستطيع ان نلمّ الماماً موجزاً بهذه المعارك التي خاضها الامير الحمداني لأننا لا نريد ان نتوسع بسرد المعارك سرداً جافاً بل نريد

ان نستنبط منها هذه الاحداث القوية من تاريخ حياته .

المعارك الاولى

ان اول معركة خاضها الامير سيف الدولة كانت عام ٣٣٧ هـ .ففي هذه السنة ، بينا هو في حلب ، بين رهط من اصفيائه يفكر في مصير هذا الوطن ويحلم بان يعيد مجد هذه الامبراطورية الكبرى بعدان غربت شمسها على ضفاف الرافدين - بلغه ان البيزنطيين قد اقتربوا من مرعش . وبديهي ان يهزه هذا الخبر وان يستنفر رجاله وجنوده وان يسير الى لقاء البيزنطيين ورد عدوانهم المبين . ولكن البيزنطيين كانوا كثرة فلم يستطع ان يقاومهم فخذل وتراجع .ودخل البيزنطيون مدينة «مرعش» دخول الغزاة الفاتحين ، فخربوا دورها وهدموا قصورها وسبوا اموالها ثم اتجهوا نحو طرطوس[1]

ولاشك ، ان هذا الفشل خلق في نفس سيف الدولة مناعة قوية لأن يمحو ذل اول انكسار مُني به مع البيزنطيين وما اطل

---

(١) ظفر سيف الدولة في هذه السنة بحصن «برزويه» وعاد الى انطاكيه فأنشده المتنبي قصيدته «وفاؤ كما كالربع اشجاه طاسمه» وفيها يصفه ويصف هول معاركه بقوله :

له عسكرا خيل وطير اذا رأى — بها عسكراً لم يبق الا جماجمه

سحاب من العقبان يزحف تحتها — سحاب اذا استسقت سقتها صوارمه

مهالكلم تصحب بها الذئب نفسه — ولا حملت فيها الغراب قوادمه

العام ٣٣٩هـ حتى اخذ للامر اهبته . جمع رجاله وجنوده واستعد ان يضرب البيزنطيين في قلب الاناضول قبل ان يمتد طغيانهم الى حلب . والحق ، لقد غامر الامير سيف في هذه المعركة كثيراً ؛ فرغم ايغاله في بلاد الروم وايقاعه بجنود نيسفور وفتحه الحصون الكثيرة واسره البطارقة والقواد ووصوله الى نقطة غير بعيدة عن استانبول (١) ـ رغم كل ذلك فأن النتيجة لم تكن كما كان يحلم ... لان بارزاس فوكاس ـ احد قواد نيسفور وابن عمه ـ لجأ الى هذه الوسائل التي يلجأ اليها القواد حين تخونهم الشجاعة . لجأ الى الحيلة فسد عليه الطريق وحصره في مضيق لامنفذ له . ومازال يقاوم حتى تراجع مع نفر ضئيل من رجاله الى حوالى حلب بعد ان قضى على من معه من الاسرى ، ويصف الحافظ الذهبي في كتابه «تاريخ الاسلام» هذه المعركة بقوله : «وفي هذه السنة غزا سيف الدولة فسار في ربيع الاول واوفاه عسكر طرطوس في اربعة آلاف عليهم القاضي ابو حصين فسار الى الفندق ووغل في بلاد الروم وفتح عدة حصون وسبي وقتل ثم سار الى سمندو ثم الى خرشنة يقتل ويسبي ثم الى بلد

---

(١) تتفق المصادر العربية والافرنجية معاً انه لم يبق بين سيف الدولة واستانبول غير مسافة سبعة ايام

«صارخة» وبينها وبين قسطنطنية سبعة ايام فلما نزل عليها واقع الدمستق مقدمته فظهرت عليه فلجأ الى الحصن وخاف على نفسه ثم جمع جيوشه والتقى مع سيف الدولة فهزمه أقبح هزيمة واسرت بطارقته وكانت غزوة مشهورة وغنم المسلمون ما لا يوصف وبقوا في الغزو اشهراً. ثم ان الطرسوسيين قفلوا ورجع العربان ورجع سيف الدولة في مضيق صعب فأخذت الروم عليه الدروب وحالوا بينه وبين المقدمة فقطعوا الشجر وسدوا به الطرق ودهدهوا الصخور في المضايق على الناس والروم وراء الناس يقتلون ويأسرون ولا منفذ لسيف الدولة وكان معه اربعمائة اسير من وجوه الروم فضرب اعناقهم وعقر جماله وكثيراً من دوابه وقاتل قتال الموت ونجا في نفر يسير.»

وهذه صدمة ثانية مُني بها الامير الحمداني بعد ان رافقه النصر. وهي صدمة قوية تكفي ان تضعضع غيره من الرجال. ولكن سيف الدولة كان أقوى من ان ينفذ اليأس الى قلبه وقد جعلته هذه الصدمات ان يكون اكثر يقظة واثبت جناناً وان يجعل هدفه غلبة البيزنطيين ورد طغيانهم مهما كلفه الامر!

وظلّ في حلب عامين والبيزنطيون شغله الشاغل. كيف يردّ غاراتهم؟ هل يتاح له ان يوطد اركان مملكته؟ كيف يدفع عنها

هذا الخطر المحدق؟. انه يسمع مديح الشعراء فيزداد قوة ومضاء!
وكأنما وازع نفسي يضطرم بين جوانحه فيناديه ان استعد لعراك
شديد . وهل لأحد في مثل هذه الظروف ان يعصى وازع النفس؟
لقد تأهب للقاء خصمه والقضاء عليه .. ولكن لم يكد يأخذ للامر
عدته حتى بلغه ان البيزنطيين هاجموا مدينه «سروج» وانهم خرّبوا
مساجدها وسبوا اموالها . و«سروج» ليست بالمدينة الكبيرة التي
تقلق بال الامير ولكن قربها من حلب أهاب به ان ينقضّ عليهم
قبل ان يقتربوا من الحدود . يركب فرسه الجموح على رأس فئة من
رجاله ويتجه نحو «سروج» . ولا تكاد تبدأ المعركة ويحمى وطيس
القتال حتى يكتب له النصر فيجلي البيزنطيين عن تلك المنطقة ثم
يعرّج على مرعش ويعيد بناء ماهدمه البيزنطيون والى ذلك اشار
المتنبي بقوله :

فيوماً بخيل تطرد الروم عنهم ويوماً بجود تطرد الفقر والجدبا
سراياك تترى والدمستق هارب واصحابه قتلى وامواله نهبى

* * *

أتى مرعشا يستقرب البعد مقبلاً وأدبر إذ اقبلت يستبعد القربا

* * *

كفى عجباً ان يعجب الناس انه　　　　بنى مرعشاً تباً لارآئهم تبا

* * *

واذ يرجع الى حلب ونفسه ممتلئة من نشوة هذا الظفر تفاجأه الانبآء بأن ديار مضر قد ثارت ! . يالله .. انه لم يكد ينفض عن منكبيه غبار معركة «سروج» حتى يتجه الى «حران» وينكل بهذه القبائل الثائرة اشد تنكيل .. وينتهي به الامر بعد أن يضربهم ضربة قوية ان يأخذ من بني عقيل وبني قشير وعجلان رهائن لكيلا تتجدد منهم هذه الفتن الداخلية التي كانت تؤلم نفسه اشد الألم .

* * *

يرجع الأمير مع جيشه ونفسه ثملة من نشوة النصر . والظفر بتنكيل العدو الداخلي أشفى للنفس من التنكيل بالعدو الخارجي . . ولكن لا يكاد يتجه نحو حلب حتى يبلغه ان البيزنطيين قد اعتزموا غزو حلب . وأنهم قد دخلوا ديار المسلمين . فينتفض لهذا الخبر وهو على اهبة القتال دائماً فيعبر الفرات الى دلوص . ثم الى قنطرة صنجه ولا يزال حتى يدركهم في ملاطية . وتقع بينهم معارك قوية في هذه الصرود التي تمتد من حران الى ملاطيه ويستمر القتال اياماً . وتنتهي المعارك بظفر الامير وهزيمة البيزنطيين وقد تركوا اعداداً غير قليل

هش القبائل العربية

من الاسرى يانهم قسطنطين فوكاس بن برزاس . وقسطنطين هذا شاب في ميعة العمر . نزل الاسر من نفسه منزلاً صعباً فضاقت الدنيا في وجهه وعراه ذهول غريب . قومٌ غير قومه ووطنٌ غير وطنه فاغتمّ وكمد وحزن وما زال في كمد وخزن حتى قضى نحبه في حلب وقد تأثر سيف الدولة الامير الشاعر من هذا المصير الحزين الذي انتهى اليه قسطنطين الشاب . وسلم الجثة الى مسيحيي حلب الذين دفنوه في احدى كنائسهم باحتفال مهيب ساده الصمت والحزن العميق . ويقال ان سيف الدولة ارسل الى والد قسطنطين رسالة تعزية رقيقة على انا لم نعثر على نصّ هذه الرسالة فيما بين ايدينا من كتب(١) .

****

---

(١) لقد أشار كل من المتنبي وأبي فراس الى أسر قسطنطين بقولهما :

لكل امرئٍ من دهره ما تعودا ... وعادات سيف الدولة الطعن في العدا

* * *

سريت الى جيحان من ارض آمد ... ثلاثا لقد ادناك ركض وابعدا

فولى واعطاك ابنه وجيوشه ... جميعا ولم يعط الجميع لتحمدا

وما طلبت زرق الاسنة غيره ... ولكن قسطنطين كان له الفدا

المتنبي

وآب بقسطنطين وهو مكبل ... تحف به بطارق وزرازر

لقد أخذ النصر يؤاتي سيف الدولة في حروبه وكانت هذه الصدمة التي مني بها البيزنطيون ووفاة قسطنطين في الاسر وانخذالهم المرة بعد المرة مدعاة لأن يستعدّوا لقتال جديد .. ولم تدخل سنه ٣٤٣ هـ - أي بعد عام من تلك الهزيمة - حتى نشبت معركة ثانية كانت اشد هولاً من الاولى .

لقد نشبت نيران هذه المعركة في جوار قلعة «الحدث» وفي الروايات العربية ان سيف الدولة سار نحو حصن الحدث لبناء القلعة وما كاد يصلها ويباشر تخطيطها حتى نازله ابن النقاس - دمستق النصرانية(١) - في نحو خمسين الف فارس وراجل من جموع الروم والارمن والروس والبلغار والصقلب والخزرية . وان سيف الدولة حمل عليه في نحو خمسمائة من غلمانه - أي من خاصة رجاله - دون جنوده وظلّت الحرب مستعرة من الصباح حتى العصر . وتتفق الروايات

وولّى على الرسم الدمستق هارباً   وفي وجهه عذر من السيف عاذر
فدى نفسه بابن عليه كنفسه   وللشدة الصماء تقنى الذخائر
وقد يقطع العضو النفيس لغيره   ويدفع بالأمر الكبير الكبائر

ابو فراس

(١) هكذا في الروايات العربية والأصح برزاس فوكاس والد قسطنطين كما تسجله المصادر الافرنجية

على ان سيف الدولة قتل نحو ثلاثة آلاف من رجاله واسر كثيرين بينهم صهر قسطنطين وبعض البطارقة - أي القـواد - حتى هزمهم شر هزيمة. ثم عاد الى اتمام بناء «الحدث» وما زال حتى وضع آخر شرفة منها بيده. ويقول الثعالبي في وصف هذه الموقعـة: «وسار سيف الدولة لبناء «الحدث» وهي قلعة عظيمـة الشأن. فاشتدّ ذلك على ملك الروم فجمع عظماء اهل مملكته وجهّزهم بالصليب الاعظم. وعليهم فردوس الدمستق ثائراً بابنه قسطنطين في عدد لا يحصى حتى احاطوا بعسكر سيف الدولة والتهبت الحرب واشتد الخطب وساءت ظنون المسلمين، ثم انزل الله نصره فحمل سيف الدولة يخرق الصفوف طلباً للدمستق. فولى هارباً وأسر صهره وابن بنته وقتل خلق كثير من الروم».

ورجع الامير الحمداني الى حلب يسمع مديح شاعره ابي الطيب الذي خاطبه بقصيدته الكبرى «على قدر اهل العزم تأتي العزائم». وفي هذه القصيدة يسمو المتنبي الى اوج البلاغـة ودقة المعنى وعمق التصوير سيما حين يصف شجاعته وبطولته بقوله:

وقفت وما في الموت شك لواقف ٭ كأنك في جفن الردى وهو نائم

تمر بك الابطال كلمى هزيمة ٭ ووجهك وضاح وثغرك باسم

****

ان مَنْ يمعن النظر بهذه المعارك التي خاضها سيف الدولة يرى ان الامير الحمداني كان يرمي في حروبانه وغزواته الى فكرة قومية بحتة لصون حمى الوطن من طغيان الاجنبي بينما كان البيزنطيون يثيرونها حرباً دينية لاسترداد بلاد دخلت في حوزة الاسلام ويستطيع من يبحث «الحروب الصليبية» ان يردّ بدء عهدها الى هذه الحروب لا الى تلك التي أثارها بطرس الناسك والبابا اربانوس الثاني في القرن الحادي والثاني والثالث عشر أي الى عهد السلطان صلاح الدين الايوبي .

=٢=

حماية الثغور – استئناف المعارك – المتنبي في ساحة الجهاد - ظفر تلو ظفر - اول انكسار – نجاة سيف الدولة

* * *

ظلت بيزنطية سنوات لا هَمَّ لها الا هذه «الدولة الحمدانية» التي صمدت لعدوان البيزنطيين بقوة استطاعت ، بما ابداه الامير سيف من البطولة ، ان تحتفظ بالكيان العربي وان تأخذ على عاتقها حماية الثغور الاسلامية. وحماية الثغور مهمة لا يتولاها الا الرجال الصناديد، والثغر هو الموضع القريب من ارض العدو الذي يخشى منه هجومه ، والحد الفاصل بين المتعادين، واذا اردنا الدقة في التعبير المتعارف عليه في عصرنا هذا نستطيع ان نقول ان «الثغور» هي «الحدود» بمعناها

الدولي الشامل. وقد تولى سيف الدولة هذه المهمة التي كانت تتولاها الخلافة الكبرى - بكثير من الاهتمام والحذر واليقظة، واطلق مؤرخو الاسلام على اميرنا الحمداني لقب «حامي الثغور الاسلامية» واشار ياقوت في معجمه الى هذه الناحية بقوله(١): «. ثم لم يزل هذا الثغر وهو طرسوس وأذنه والمصيصه(٢) وما ينضاف اليها بايدى المسلمين والخلفاء مهتمين بأمرها لا يلونها الا شجعان القواد والراغبين عنها في الجهاد، والحروب بين اهلها والروم مستمرة، والامور على هذه الحال مستقرة حتى ولي العواصم والثغور الامير سيف علي ابن ابي الهيجاء بن حمدان فصمد للغزو وامعن في بلادهم واتفق ان قابله ملوك اجلاد ورجال أولوا بأس وجلاد، وبصيرة بالحرب والدين شداد».

ولم يضق الامير بهذه المهمة. فقد رأيناه في السنوات التي بدأها بمحاربة البيزنطيين كيف كان يثيرها حرباً شعواء في سبيل فكرة قومية سامية، فكرة الدفاع عن ارض الوطن وصون تراث الاسلام

* * *

ولقد اوضحنا في الفصل السابق كيف كانت المعركة التي خاضها عام ٣٤٣هـ في جوار قلعة «الحدث» وهي من المعارك الكبرى التي مُني فيها

(١) معجم البلدان جزء ٣ ص ٧

(٢) اذنه - أي اطنه - بلد من الثغور قرب المصيصه المشهور. المصيصة، مدينة

البيزانطيون بخسائر فادحة في الاموال والنفوس ، وكيف كان اندحارهم مريعاً ولم يمر عامان حتى اعـدَّ اميرنا المغوار العدة لحرب جديدة . كأنه كان يرقب هجمات البيزنطيين بعد انكسارهم الدامي المرة بعد المرة وهذا الذي اهاب به ان يشرف على الثغور قبل ان يهاجموه في ارض مملكته . والحق انه لو لا يقظته وتأهبه للقتال وصموده للاحداث لكانت «الدولة الحمدانية» اثراً من الآثار ولما كان لسيف الدولة هذا الذكر الداوي في فم الاجيال .

ترك الامير حلب عام ٣٤٥ هـ ووجهته ارض الروم فعبر وجيشه وشاعره المتنبي الذي احب ان يشارك الامير لذة الجهاد وان يشهد بنفسه هذه المعارك التي طالما نقل اليه الغزاة اخبارها فوصفها وصف الشعراء الملهين لا الغزاة الفاتحين ـ نعم ! عبروا نهر ارسناس (١) وما زالوا في طريقهم حتى اجتازوا حصن الران ، وهو حصن على الحدود بالقرب ملاطيه ، ومنه الى «تل بطريق» أي دخلوا منطقة البيزنطيين وظلوا فيها عدة ايام دون ان يجدوا اية مقاومة من الاهالي . وفي رواية بعض المؤرخين ان سيف الدولة احرق البلد وقتل من وجد فيها عدا الاطفال والنساء ... والى هذا اشار المتنبي بقوله :

على شاطئ نهر جيحان قريبة من طرطوس وكانت من مشهور ثغور الاسلام

(١) ارسناس : نهر في بلاد الروم يوصف ببرودة ماءه

قاسمها(١) «تل بطريق» فكان لها ابطالها ولك الاطفال والحرم

ودوى الخبر في اذان البيزنطيين فلحقوا بسيف الدولة وعلى رأسهم احد بطارقتهم ولديهم ثلاثة الاف قوس . وما كاد يبدأ القتال حتى جادت السماء بمطر سخي فابتلت اوتار القسي وتعطلت عن الرماية ووقفوا كالمشدوهين ولم يستطيعوا القتال فتفرق الجنود في اطراف المملكة ، وكان هذا التراجع مما اثار الحماس في نفس الامير العربي ورجاله فأوغلوا في ارض الروم يسبون كل ما أحلته لهم الحرب .

وبلغ هذا الانكسار سمع نيسفور فوكاس فجهز حملة كبيرة تحت قيادة سبطه الذي يدعوه مؤرخو العرب «شمشقيق البطريق» وقد رأى ان يبدأ غارته من اطراف ديار بكر . واقسم لنيسفور ان لا يرجع الا وقد خذل سيف الدولة و كسره شر كسرة . واشار المتنبي الى هذا القسم بقوله :

عقبى اليمين على عقبى الوغى ندم ماذا يزيدك في اقدامك القسم

وفي اليمين على ما انت واعده ما دل انك في الميعاد متهم

آلى الفتى شمشقيق فأحنثه فتى من الضرب تُنسى عنده الكلم

ونمي للامير تأهب ابن شمشقيق فابتسم ابتسامة الواثق من نفسه وسره

(١) أي السيوف

ان يلتقي مع قائد من القواد لا مع شراذم لا يقودها رجل له مكانته وبطولته .. وحوّل جيشه نحو بحيرة «سميساط» ولم يصل الى حران حتى لقيه وجوه بني نمير فتقدموا اليه وسألوه العفو عن انتفاضهم وثورتهم واعلنوا له خضوعهم والعمل تحت رايته . فكان ذلك تعزيزاً لجيشه وقوةً له .. ولحق بالبيزنطيين الذين استدرجوه الى هوة عميقة وظنوا ان النصر سيكون حليفهم في هذه المعركة بعد ان اخذوا عليهم الدروب ونشب القتال ودامت المعركة اياماً واسابيع في هذا المضيق الضيّق الذي يعرف بدرب «باقسايا» فخذل البيزنطيون وقتل منهم اربعة آلاف رجل بينهم كبار الرجال والقواد ، وغنم الحمدانيون اشياء كثيرة من عتاد الحرب ومعداتها عدا النفائس الثمينة كالحلي والديباج وما زالوا يتعقبون العدو حتى توارى امامهم فدخلوا «آمد» وانشد المتنبي الامير سيف الدولة قصيدته الكبرى «الرأي قبل شجاعة الشجعان» وفيها يصف هول هذه المعركة ويصف الاماكن التي اجتازوها وصفاً دقيقاً لعلّ ابلغ ماجاء فيها وصفه الجيش بقوله :

في جحفل ستر العيون غباره   فكأنما يبصرن(١) بالآذان

---

(١) أي الخيل

يرمي بها البلد البعيد «مظفر» (١) كل البعيد له قريبٌ دان

فكأن أرجلها بتربة منبج يطرحن أيديها بحصن الران

حتى عبرن بارسناس سوابحاً ينشرن فيه عمائم الفرسان

وبعد ان يصف في قصيدته هذه برودة ماء النهر وكيف ان قسماً من الجيش وعلى رأسه سيف الدولة استطاع ان يعبره وان القسم الآخر لم يستطع الا بهذه السفن التي انزلوها النهر - يشير الى وعرة الدروب التي كادت تفقدهم المعركة لولا بطولة الامير وحماسة جنوده بقوله :

وعلى الدروب وفي الرجوع غضاضة والسير ممتنع من الامكان

والطرق ضيقة المسالك بالقنا والكفر مجتمع على الايمان

نظروا الى زبر الحديد كأنما يصعدن بين مناكب العقبان

وفوارس يحيي الحمام نفوسها فكأنها ليست من الحيوان

مازلت تضربهم دراكاً في الذرى ضرباً كأن السيف فيه اثنان

وما يزال في وصفه حتى يخاطب سيف الدولة بقوله :

رفعتْ بك العرب العماد وصيرت قمم الملوك مواقد النيران

وقفل سيف الدولة الى حلب يجرر اذيال الفخار واستعدت المدينة

---

(١) يريد بالمظفر سيف الدولة

للقائه وهو في نشوة من الفرح . واخذ الشعراء يعدون قصائد المديح وجاشت نفس المتنبي فانشده قصيدة ثانية يصف فيها هذه المعركة وقد غمز سبط نيسفور غمزات جارحة ثم وصف الجيش وهو يعبر نهر ارسناس بقوله :

وجاوزوا ارسناساً معصمين به   وكيف يعصمهم ماليس ينعصم

وما يصدك عن بحر لهم سعةٌ   وما يردك عن طود لهم شمم

عبرت تقدمهم فيه ، وفي بلد   سكانه رممٌ مسكونها حمم

صدمتهم بخميس انت غرته   وسمهريته في وجهه غمم

فكان اثبت ما فيهم جسومهم   يسقطن حولك والارواح تنهزم

ويظل يصف هول المعركة حتى ينتهي الى مخاطبة الامير الحمداني بقوله :

القت اليك دماء الروم طاعتها   فلو دعوت بلا ضرب اجاب دم

نفتْ رقاد «علي» عن محاجره   نفسٌ يفرح نفساً غيرها الحلم

القائم الملك الهادي الذي شهدت   قيامه وهداه العرب والعجم

****

كان يعلم سيف الدولة ان هذه الانتصارات المتوالية ستثير احقاد البيزنطيين وانهم سيوقظونها حرباً دينية مريعة .. ولكن حلاوة

النصر جعلته ان لا يفكر كثيراً بما يفاجأه به الغد سيما وقد رنذ نفسه للقتال ورد غارات العدو وحماية الثغور من أي خطر مداهم. ومرّت سنتان وليس في اطراف المملكة ما يبعث في نفسه المخاوف. وما اطل العام ٣٤٩هـ حتى نقل اليه ان البيزنطيين قد هبوا هبة كبرى لغسل عار هذه الانكسارات المتوالية، وانهم قد حوموا حول ثغور المسلمين وتعدّوا حدود طرسوس والرها وقتلوا وسبوا دون ان يلقوا اية مقاومة .. وكان لا بد له وقد جاءته هذه الاخبار من ان يرد هذه الغارة .. وليس ذلك ما يخيفه سيما وقد اصبح التوجه نحو ارض الروم ولقاء العدو وخوض المعارك من الامور الغريزية في نفس سيف الدولة ورجاله الاشداء الذين هيأهم لهذه الاحداث. فلم يكاد يرتفع صوته ويعلن الجهاد حتى ينضوى تحت لوائه اشبال العرب وكلهم فارس مغوار وبطل صنديد

* * *

سار سيف الدولة وجيشه الى خرشنه (١) وخرشنه هذه بلدة قريبة

---

(١) جاء ذكر هذه المدينة كثيراً في شعر المتنبي وفي شعر ابي فراس الذي بقي فيها مدة اسيراً وقد خاطبها بقوله :

ان زرت خرشنة اسيراً ... فلكم حللت بها مغيراً

ـ وفي رواية اميراً ـ

من ملاطية وهي من ثغور الروم ؛ أي اراد الامير الحمداني ان يضرب البيزنطيين في منطقة حدودهم وان يحول دون توغلهم في بلاد الاسلام سيما ومطامعهم نحو احتلال حلب واسترداد الشام تكاد تكون جلية واضحة. ثم ، اتجه الامير الحمداني نحو خرشنة بعد ان فتح عدة حصون بيزنطية وقد مكنه البيزنطيون ان يتوغل في بلادهم وما زالوا حتى طوقوه في هوة عميقة ، ورغم كل مابذله رجال سيف الدولة من الحنكة والبطولة ومقاومة العدو فان النصر لم يحالفهم هذه المرة فخسر الامير المعركة واضاع جيشه كله وكان يربو على الثلاثين الفاً وقد نجا هو وثلاثمائة من خلّص رجاله بكثير من الجهد والمشقة .

اشار ابن مسكويه في كتابه «تجارب الامم» الى هذه المعركة بقوله: «وفي هذا العام - ٣٤٩ هـ - غزا سيف الدولة في جمع كثير فأثر في بلدان الروم آثاراً عظيمة واحرق وفتح حصوناً وحصل في يده سبي كثير واسارى وانتهى في غزوه الى خرشنة فلما اراد الخروج اخذ الروم عليه المضايق فما تهيأ له ان يتخلص الا بجهد عظيم هو ونحو ثلاثمائة غلام وهلك باقي اصحابه اسراً وقتلا وارتجع منه السبي كله والاسارى والغنيمة واخذت جميع خزائنه وسلاحه ، وقتل من الوجوه الذين كانوا معه حامد بن النمش وموسى بن سياكان والقاضي

ابو حصين وكان معه من المسلمين ثلاثون الفاً وخرج اهل طرسوس من طريق آخر فسلموا» ويعللون سبب انكساره ونجاة الطرسوسيين ان سيف الدولة كان صلب الرأي، اقرب الى «ديكتاتوري» هذا العصر منه الى الرجل الذي ينزل عند رأي غيره، أي كان لا يعتمد الا على الخطط التي يرسمها هو بنفسه وهذا الذي جعله ان يفشل في هذه المعركة دون ان يصغى لنصيحة الطرسوسيين وهم اعلم منه - على ما يظهر - بطبيعة تلك المناطق، ومَنْ يدري فقد تكون أنفته وبطولته وهذه الانتصارات الطويلة التي حازها في السنوات العشر التي تصرمت من سني جهاده هي التي جعلته ان لا يهرب من امام العدو وان يقاتلهم قتال الابطال لوثوقه من الظفر ولكن حدسه لم يتحقق هذه المرة فنجا هو بأعجوبة بعد ان خسر المعركة واضاع جيشه الذي كان عدته ومناط اماله في القتال.

وتشير الرواية الاجنبية الى هذه المعركة كما يلي(١): وفي سنة ٩٦٠ م أنهزم سيف الدولة شر هزيمة امام العدو وعاد الى حلب برفقة ثلاثمائة فارس فقط. وقد أسر البيزنطيون عدداً كبيراً من رجاله منهم ابو العشائر احد اقرباء الامير الذي مات في القسطنطنية والشاعر

(٢) عن كتاب: Alep autrefois augourd' hui

المشهور ابي فراس (١) ومن جملة القتلى كان حصين الرقي ، قاضي حلب وقد كان الاسرى الحلبيون عديدين .» ورغم التباين في عرض اخبار هذه المعركة فان الروايتين العربية والافرنجية تتفقان في ان النصر لم يؤات سيف لدولة وانه مُني في هذه المعركة بانخذال مريع فرجع الى حلب يفكر من جديد بالثأر لكرامته وصون الوطن من هجمات البيزنطيين .

* * *

وقد وقفت الحرب سنة وبعض السنة واخذ الفريقان يستعدان لمعركة حاسمة . وقد يكون سيف الدوله هو الذي لجأ الى هذا الانكماش ليتمكن ان ينظم جيشه الجديد لانه يعلم ان خصمه نيسفور فوكاس يتأهب للقضاء عليه وهذا ما يشير اليه المسيو بوران في

---

(١) تتفق الروايات العربية حين تعرض الى اسر ابي فراس ـ ان اسره كان عام ٣٥١ هـ بينما تذكر الرواية الافرنجية ان هذا الاسر هو في عام ٣٤٨ – ٣٤٩ ونحن نرجح انه اسر مرتين مرة سنة ٣٥١ هـ ومرة سنة ٣٤٨ هـ او قبل هذا التاريخ . ودليلنا ان ابا فراس قد ارسل وهو في الاسر عدة قصائد الى القاضي ابي حصين ـ قاضي حلب ـ وكانت تربطه به مودة وثيقة . واذ علمنا ان اباحصين قتل عام ٣٤٩هـ كما اثبتته الروايتين العربية والافرنجية صح عندنا ان اسر ابي فراس هو قبل هذه المعركة . هذا ما وصل اليه تحقيقنا ولا يمنع ان نرجع عن هذا الرأي اذا جاءنا ما ينقضه .

كتابه «حلب : في عصورها القديمة والحديثة» ـ والذي اعتمد في بحث هذه الناحية على مصادر رومانية : «وفي هذه الأثناء كان نيسفور يدبر خطة يستطيع التخلص دفعة واحدة من امير حلب الشديد المراس . وكان هدفه ان ينقذ كليكيا ، سورية ، فلسطين والعراق وان يبعد حدود المملكة حتى الدجلة ورمال الجزيرة العربية وقد فطن ان اول ما يجب ان يقوم به هو الاستيلاء على كليكيا وان يجعلها مقرّه ومركز قيادته . لانه تحقق ان كليكيا هي بمثابة حصن طبيعي يستطيع مَنْ يستولي عليها ان يسيطر على آسيا الجنوبية من جهة الشمال ، وسورية من جهة الجنوب . غير ان جميع مضايق الامانوس وطوروس و كذلك كليكيا كانت حتى عام ٩٦١م في حوزة امير حلب».

فهل تحققت اماني نيسفور ؟ وهل استطاع ان يثأر لهذه الدماء التي اهرقها العرب في اراضي كليكيا وفي مضايق طوروس ؟ هذا ما نريد ان نتناوله في فصل قادم .

-٣-

الدولة الرومانية الشرقية - لمحة سريعة عن الادوار التي تتابعت من عهد قسطنطين الكبير الى محمد الفاتح - الاسرة المكدونية - ملوك بيزانس وحياتهم الخاصة - الحب والمآسي في زوايا القصور - الصراع بين الكنيسة والقصر - الجيش البيزنطي في القرن العاشر - نظرة عامة

* * *

لنترك سيف الدولة وقد عاد الى حلب جزع النفس مما مُني به من خذلان وفشل، لنتركه يفكر في تنظيم جيشه من جديد، ولننتقل من حلب الى القسطنطنية .. الى عاصمة القياصرة نتعرف الى اولئك البيزنطيين الذين اشتبكوا بحروب دامية مع الحمدانيين. في دراسة تاريخهم والالمام بسيرة ملوكهم وقوادهم وتعرف حالة الجيش

والعناصر التي تتكون منه وآلات الحرب وعدد القتال وعلاقة بيزنطية بالدول المجاورة - ان معرفة هذه النواحي تساعدنا على تفهم طبيعة تلك الحروب التى خاضها الامير سيف بكثير من الشجاعة والبطولة والاقدام.

لقد ألمعنا في الفصل الاول من هذا البحث الى ملوك البيزنطيين دون ان نتناول ذلك بالاسهاب الذي يقتضيه سياق البحث وهذا ماتريد ان نحاوله الآن.

* * *

لئون الفيلسوف، قسطنطين السابع، رومان الثاني، تيوفانو الجميلة، نيسفور فوكاس هم القياصرة الذين يتردد ذكرهم اكثر من غيرهم في هذه الحروب التي دارت رحاها بين البيزنطيين والحمدانيين في القرن العاشر الميلادي. فمن أية اسرة تحدروا؟ وفي اي دور من ادوار الدولة الرومانية الشرقية كانوا؟

تحدث كتب التاريخ باسهاب طويل عن هذه الامبراطورية البيزنطية التي ظلت قائمة عشرة قرون كاملة على ضفاف البوسفور! أي من عهد قسطنطين الكبير الذي هجر رومه وخرج على آلهة الرومان الباطلة واعتنق المسيحية وجعل من القسطنطينيه - رومية

ثانية - الى دخول السلطان محمد الفاتح مدينة استانبول وتقويضه ملك الرومان . وقد مرّ خلال هذا العهد ستة ادوار تاريخية قد يكون من المفيد ان نمر بها مروراً سريعاً لنقف عند الاسرة المكدونية التي تحدّرمنها من ذكرناهم من القياصرة .

فالدور الاول : يبدأ من سنة ٣٩٥ م - وهي السنة التي مات فيها «تيودثيوس» بعد ان قسّم الدولة الرومانيـة بين ولديه هوربويوس واركاديوس الى سنة ٥٦٥ م[١] .

والدور الثاني : من سنة ٥٦٥ م الى سنة ٧١٧ م وهو الدور الذي جلست فيه على عرش الرومان الاسرة الايسوريانية نسبة الى ايسورية وهي اقليم من القارة الاسيوية، ومما يجدر ذكره في هذا الدور ان «هيرقل» ملك الروم الذي ارسل اليه النبي محمد (ص) يدعوه فيه الى الاسلام هو من ملوك هذه الاسرة . وفي هذا الدور ايضاً اغارت جيوش العرب على الكثير من ممالك آسيا فافتتحوها بما كان لهم من الاساطيل البحرية التي استولوا بها على جزيرتي قبرص

(١) ومن قياصرة هذا الدور يوستنيان الذي يعد عصره من ارقى عصور الامبراطورية الشرقية بعد قسطنطين وقد حكم ٣٧ سنة . وكانت حدود مملكته تنتهي في الغرب بالبحر الادرياتيكي وفي الشرق بضفاف دجلة وتمتد حدودها الشمالية الى اعالي بلاد التتر وتنتهي في الجنوب الى بلاد الحبشة

ورودوس في خلافة معاوية ابن ابي سفيان .

والدور الثالث : من سنة ٧١٧ م الى سنة ٨٦٨ م أي من صعود الاسرة الايسوريانية على عرش المملكة الى تغلب الاسرة المكدونية بحكم الامبراطور باسيلوس الاول .

والدور الرابع : من سنة ٨٦٨ م الى سنه ١٠٥٧ م اي من صعود الاسرة المكدونية على العرش حتى تغلب اسرة كومنين .

والدور الخامس : من سنة ١٠٥٧ م الى سنة ١٢٠٤ م ويمتد هذا الدور من عهد اسحق الاول كومانينوس الى سقوط الدولة الاغريقية واستيلاء الصليبيين على القسطنطينية .

والدور السادس : من سنة ١٢٠٤ م الى سنة ١٤٥٣ م وفي هذه السنة فتح الاتراك القسطنطينية بعد حروب طويلة وكان ذلك آخر عهد البيزنطيين في الشرق .

هذه هي الادوار الستة التي مرت من حياة الامبراطورية الرومانية في الشرق . والذي يهمنا منها الدور الرابع . دور الاسرة المكدونية حيث جرت في عهدها حروب سيف الدولة ، تلك الحروب العنيفة التي عرف القراء مقدماتها وسيعرفون نتائجها .

* * *

الاسرة المقدونية

بلغت الامبراطورية البيزنطية في عهد الاسرة المقدونية أوج المجد وذروة السيادة. وكان تم هذه الاسرة ان تحتفظ بهذا الملك العريض رغم ما كان ينتابه من هزات عنيفة، لقد كانت الاحداث الخارجية قوية وكانت الفتن الداخلية اقوى. ومع ذلك فقد استطاعت ان تحتفظ الى حد ما بأبهة الملك وعز السلطان. ويجمع مؤرخو الفرنجة على ان الاسرة المقدونية قد حفظت مجد بيزانس رغم غارات العرب المتوالية من الجنوب وهذه الحروب الدامية التى كان يثيرها البلغاريون من الشمال، واستطاعت الى ذلك ان تفرض دينها ومدنيتها على البلغاريين وان تسترد من العرب كريد وقبرص وقسماً من شمالي كليكيا، وان تجعل من ارمينيا وجبالها الشامخة سداً منيعاً في وجه العرب الذين كانوا يطمعون ان يقضوا على هذه الامبراطورية بكاملها. ولو لا الفتن الداخلية التى كانت تشغلها، وهذا الصراع القوي بين الكنيسة والقصر وهذه الشهوات التى كانت تطغى على رجال الحكم لكانت فتوحاتها امتدت الى اكثر مما ذكرناه

واسيليوس

لقد كان رأس هذه الاسرة واسيليوس - او باسيل الاول - وهو

رجل من عائلة فقيرة تمكن بدهائه ومغامرته إن ينال حظوة عند ميخائيل الثالث آخر قياصرة الاسرة الايسوريانية ولكن هذه الحظوة قد انقلبت نقمة عليه ، واراد الملك ان يقضي عليه ولكن نفوذه كان قد اشتد فتمكن ان ينجو من هذه المكيدة بمهارة وان يقضي هو بدوره على الملك وان يعتلي العرش ويدير شؤون المملكة بكثير من العزم والحزم والدهاء وقد جنح واسيليوس الى البطش والقوة فاطفأ نيران الفتن المذهبية وسعى جهده ان يقضي على خلافات الكنيسة فوفق في الاولى بعض التوفيق ولم يوفق في الثانية أي في توحيد الكنيسة الشرقية والكنيسة الغربية معاً . وحارب واسيليوس المسلمين سنين طويلة انتهت به الى ظفره في كثير من المواقع فاسترد قيساريه «قيصرية» وانتصر على الاغالبة في صقلية ومنعهم من دخول «دالماسيا»

ليون السادس

وبوفاة واسيليوس ارتقى العرش ليون السادس الملقب بالفيلسوف . لقد كان هذا الامبراطور ذا ثقافة واسعة ، دفعته ثقافته والمامه التام بتاريخ العقائد والاداب والعلوم والرياضة ان يحاول اصلاح قوانين المملكة ونظاماتها ولكن هذه الاصلاحات لم تتم لأن حروبه مع

الروس ومع البلغار معاً قد حالت دون ان ينفذ برنامجه الاصلاحي.

ولهذا الامبراطور قصة طريفة يحسن ان نلم بها لان لها علاقة بهذا الصراع الذي كان يشتد بين القصر والكنيسة من جهة وبهذا الترف بل بهذا الانغماس في الشهوات الذي يعده المؤرخون من اكبر العوامل في انهيار مملكة الرومان. وخلاصتها ان اباه وامه قد اختارا له الفتاة «ته‌ئوفانو» فتزوجها على كره منه لان قلبه كان مشغولا بحب فتاة غيرها، كان يحب «زوئي» ابنة القائد «زائوجيس» ورغم كل الوسائل التي عملت للحيلولة بينهما فقد كان يجتمع بها ويقضي معها ساعات طويلة. وطبيعي ان تثير هذه الصلات الغرامية حنق زوجته الشرعية وغضب ابيه ولكن نداء القلب كان الصق بالنفس من حنق الزوجة وغضب الأب! ورأت الام ان يزوجوا «زوئي» من احد افراد البلاط وتم زواجها، ورغم كل ما عملوه من الحواجز فان العلاقات لم تنقطع بين العاشقين وكان ذلك من اكبر العوامل التي أثّرت على ته‌ئوفانو فاغتمّت وشحب لونها وما زالت في حرقة وغصة، وفي لوعة وكمد حتى قضت نحبها وهي في شرخ الصبا.

وبوفاة ته‌ئوفانو لجأ القيصر الى كبار البطارقة ليسهلوا له زواجه بزوئي ولكن البطارقة وقفوا ضد هذا الزواج، ومع ذلك فقد تم بالرغم

عنهم وعن الكنيسة ، واصبحت زوني التى احبها كثيراً سيدة القصر، وكانت كلمتها هي النافذة في كل شيء. ولكن الاقدار لا تجري على وتيرة واحدة فلم تكد تبسم لهما السعادة حتى انتزعها الموت من بين يديه فحزن عليها حزناً بالغاً. ومرت الايام، وتلتها الشهور وهو يذكر فجيعته بزوني ، واحب ان ينسى هذه الفتاة فتزوج فتاة اناضولية ساذجة، وقضى معها اياماً حلوة عذبة، ولكن هذه الايام العذبة لم تدم اكثر من عام واحد ، لان الموت قد داعب هذه الفتاة التي لم تكد تهنأ بمجد الملك وعز السلطان حتى اخترم شبابها كما اخترم شباب زوني وانتقم لثيوفانو التاعسة البئيسة .. وازداد حزن القيصر . ولكن ما يجديه الحزن ؟ لذلك كان يستسلم لقضاء الله ويعتمد فلسفته في الصبر . وهداه قلبه الى فتاة تشبه زوني كل الشبه فاتصل بها وكانت بينهما علاقات غير شرعية ، وضجت الكنيسة من هذه العلاقات ووقف البطريق نيقولا في وجه القيصر ، ولكن ليون كان اقوى من الكنيسة فلم يلتفت الى هذا الصخب الداوي وظلت علاقته بزوني وثيقة، وحملت منه .عندئذ قرر ان يتزوج منها كما تزوج من تلك دون ان يعبأ بمعارضة الكنيسة . وبينا هو في هذا القلق الفكري إذ يكشف العيون مؤامرة واسعة النطاق تدبر

ضد القيصر عرف بين اعضائها البطريق نيقولا . ورأى ليون ان الفرصة مؤاتية لان ينتقم . وخشي البطريق نيقولا بطش القيصر وان ينتقم من الكنيسة في شخصه فسرعان ما خمدت معارضته وتقرب الى القصر واصبح من دعاة القيصر ومن اكبر مؤيديه . وهذا شأن رجال الكهنوت ـ الا من عصم ربك ـ لا يكادون يشعرون بالقوة حتى يضعفون ويصبح الدين في ايديهم ألعوبة يفسرون احكامه وتعاليمه وفق هوى السلطان . وهذا البطريق نيقولا الذي وقف يحارب القيصر ويكيد له ويتنكر كل اعماله اصبح من مؤيديه ومن القائلين بان هذا الزواج ضروري لصيانة العرش ، ولم يقف عند هذا الحد بل بدأ يتردد على القصر ويبارك القيصرة ويدعو للجنين بالنمو والحياة ! واستجاب الله دعوته فولدت زوئي !! وتحققت امنية ليون في ان يكون له وارث يرث هذا الملك العريض . وجاء دور الكنيسة لـ «تعميد» هذا الولد غير الشرعي ! ومع ان البطارقة اشترطوا ان لا يتم «تعميده» قبل ان تنقطع علاقة القيصر بزوئي فأن البطريق نيقولا قد قبل ان «يعمده» دون ان يشترط هذا الشرط ! ولم يلتفت القيصر الى ما اشترطوه فاتصل بروما وحصل من البابا على فتوى تسوّغ له هذا الزواج . وبذلك اصبح قسطنطين السابع هو الوارث

الشرعي للامبراطورية البيزنطية . واحنق هذا الامر البطريق نيقولا فكظمه في نفسه فتوفى لؤن الفيلسوف دون ان يحدث في عهده سوى هذه المحاولات التي بدأها بتوحيد الكنيسة الغربية والكنيسة الشرقية وهذه النزوات التي اثارت عليه حقد الكنيسة عدا حروبه مع البلغار والروس مما لم نجد فائدة من تفصيلها في هذا البحث .

قسطنطين السابع

ونودى بقسطنطين السابع ملكا وهو في المهد ، واقام مجلس الشيوخ عمه الكساندروس وصياً عليه . واخذت الدسائس تعمل عملها في طرد امه من القصر ، فطردها الكساندروس ، ولا شك ان ذلك كان بايعاز البطريق نيقولا ، وبوفاة الكساندروس عادت «زوئي» الى القصر . فعاد البطريق يخاصمها بشدة ، والتجأت الى الحزب الذي كان يناهض البطريق . ولكن حزب الكنيسة كان اقوى ، وظل البطريق نيقولا ينفث سمومه حتى تمكن من طردها ، وكان ابنها لا يزال في فجر طفولته فأخذت زوئي تبكي وتحب ، وارتمت بين يدي ابنها متوسلة ان تبقى الى جانبه في القصر ففاضت عاطفة الابن وضم امه اليه وكانت هذه العواطف مثاراً قوياً لان تُترك زوئي في القصر رغم كل ما عملته الكنيسة على طردها

وشب قسطنطين ، ولكنه لم يكن كأبيه ، وان كان مؤرخو الفرنجة يُجمعون على ان عهدها كان أزهى عهود الاسرة المكدونية رغم ما انتابه من هزات وازمات . ومما هو جدير بالذكر ان انتصارات سيف الدولة على البيزنطيين كانت في عهد قسطنطين السابع ، ففي عهده وقعت معركة «الحدث» الكبرى واندحر ابن الشمشقيق، وكسرشر كسرة مما فصلناه في فصل ماضٍ وكما شغلت الامبراطورية البيزنطية مع العرب من جهة الجنوب فقد شغلت في عهد قسطنطين السابع بحروبها الدامية مع البلغار في الشمال .

رومانوس الثاني — تيئوفانو الجميلة

وبوفاة قسطنطين السابع خلفه ابنه رومانوس . وقد حذا حذو اسلافه في الدفاع عن القسطنطينية واعلاء مجد بيزانس .ورومانوس هذا شاب جميل ، ريّق الصبا قد اقترن بملكة تحدث المؤرخون كثيراً عن جمالها وسحرها وصباها ، تلك هي تيئوفانو الجميلة التي لعبت دوراً خطيراً في سياسة القصر . لقد كانت تبعد من ترتاب بنواياه وتدني من تأنس منه الاخلاص والوفاء . ولكن القدر لم يرأف به فتوفي وهو في عنفوان شبابه ووقع هذا المصاب من نفس تيئوفانو موقعاً أليماً . وما كاد يدفن رومانوس حتى اتجهت الاطماع

الى العرش ولكن ته‌ئوفانو كانت ملكة حريصة، يقظة الشعور، يهمها مستقبل بنيها، وان تظل هي على رأس هذا الملك المترامي الاطراف .

نيسفور فوكاس

وكان نيسفور فوكاس القائد البيزنطي الشجاع الذي حارب سيف الدولة وجهاً لوجه - اكثر الطامحين بهذا العرش، وكان ذا نفوذ واسع وليس له الا ان يعلن نفسه قيصراً حتى تنقاد له الجماعات . ولكن نيسفور كان يضع مصلحة وطنه فوق مطامحه . ورأى من الحكمة - وكثيراً ما شغلت ته‌ئوفانو قلبه بنظراتها الساحرة - ان يطلب يدها وان يصون هذا الملك بزواج وثيق، وقبلت ته‌ئوفانو ان تزف الى نيسفور، أي ان هذا الزواج كان سبيله السياسة لا الحب وسرّ القائد الشجاع بهذه النتيجة واخذ حبه يزداد ويقوى، وكان لا يصبر على فراق ته‌ئوفانو، ووصل به الحال انه كان يقودها معه الى ساحات القتال . ومن يدري فربما وصلت معه الى ابواب حلب وشهدت هذه الحروب الدامية التي خاضها مع سيف الدولة . وبعد ان شغله الامير الحمداني بحروبه اصبح يذهب وحده الى ساحات القتال ويترك الملكة في القسطنطينية حرصاً على راحتها وصباها ،

وكان يتردد على القصر جان تسيمس Zimskes سبط نيسفور .وفي رواية ابن اخته وهو شاب جميل احبته الملكة وهامت به هياماً قوياً وانتهى الامر ان قرر الاثنان الغدر بنيسفور في سبيل هذا الحب .

وعاد نيسفور من حروبه في سورية بعد ان سجل عدة انتصارات على سيف الدولة ، عاد يحمل الى ته‌ئوفانوا اكاليل ظفره ومحوه عارهذه الانكسارات التي سجلها عليه سيف الدولة وما كان يظن ان جهاده في سبيل اعلاء البيزنطية سيكافأ بمؤامرة تدبر له في زوايا القصر على يد ته‌ئوفانو التي احبها واخلص لها الحب .

وتقدمت الوفود الى نيسفور تزف اليه التهاني! ولكن ما كل ما يتمناه المرء يدركه ، فما هي ايام حتى كانت المؤامرة قد تمت فقتل في قصره غدراً وانتهت حياة هذا القائد البيزنطي بهذه المأساة الاليمة:

ونرى ان نضيف بهذه المناسبة ، الى هذه الحقيقة التاريخية الرواية العربية التي تذكر الحادث بالنص الآتي :

« ... ثم تزوج نقفور - أي نيقفور - ملك الروم بامرأة الملك الذي كان قبله على كره منها . وكان لها ولدان ، فاراد نقفور ان يخصيهما ويهديهما للبيعة ليستريح منهما لئلا يملكا الروم في ايامه او

بعده ، فعلمت امها بذلك ؛ فارسلت الى الدمستق ليأتي اليها في زيّ النساء ومعه جماعة يثق بهم في زيّ النساء ؛ فجاؤوا وباتوا عندها ليلة الميلاد ، فوثبوا عليه وقتلوه ،واجلس في الملك بعده ولدها الاكبر . وتم لها ما ارادت » (١) مع ان الذي خلفه في الحكم هو سبطه لاابن ته‌ئوفانو .

احلام ته‌ئوفانو ونهايتها المحزنة

وظنت ته‌ئوفانو ان احلامها قد تحققت واصبح جان تسيمس «زيمسكس» صريع هواها ولم تعلم ان جان كان يطمع بالعرش اكثر مما يطمع بقلب الملكة الجميلة. واسدل الستار على الفاجعة وتقدم جان الى بطريق ايا صوفيا طالباً اليه ان يبارك ارتقائه العرش ووجمت الكنيسة ازاء هذا الطلب وانكر جان ان يكون له ضلع بهذه الجناية وحصر التهمة بته‌ئوفانو فاشترطت الكنيسة ان ينفصل عنها فنزل عند ارادتها واعلن نفسه ملكاً ، وكان اول ما عمله ان ابعد ته‌ئوفانو الى «جزيرة الامراء» ـ الجزيره الجميلة التي تبعد عن استانبول ساعة وبعض ساعة ، فشق ذلك على ته‌ئوفانو وامضّها هذا النفي ولم تكن تنتظر هذه الاساءة ممن احسنت اليه وان تنهار احلامها هذا

(١) النجوم الزاهرة الجزء الرابع

الانهيار الاليم . وبعد شهر فرت ثه‌ئوفانو من المنفى وعادت الى كنيسة اياصوفيا وعلم «جان» بفرارها فأمر ان تبعد حالا الى ارمينيا ولكنها توسلت ان تجتمع بجان قبل نفيها فسمح لها بذلك ولم تكد تنظر اليه وتستعرض هذا الماضي القريب وما مرَّ بها من حالات حتى خانها البيان وانفجرت بالبكاء ثم ثارت عاطفتها الانثوية واخذت تقرّعه تقريعاً مراً فلم يحتمل القيصر عتابها واصدر اوامره باخراجها من القصر وان تقصى عن استانبول حالاً وارسلت الى ارمينيا حيث امضت انضر ايامها بعيدة عن اولادها ولم يسمح لها بالعودة الا بعد وفاة جان تسيمس Zimeskes فرجعت وهي في اسوأ حال ودخلت القصر مهيضة الجناح ، دامعة العين ، كسيرة الفؤاد وقضت ايامها الاخيرة في احدى زوايا القصر وما زالت في عزلتها المرّة حتى قضت دون ان يشعر بها احد .

اما جان فقد شغلته مشاكل الامبراطورية عن الحب والنساء وظل يحارب الروس الذين طمعوا بالاستيلاء على الاستانة ـ سبع سنوات كاملة عرف كيف يقضي على احلامهم وقد اوصى قبل وفاته ان توزع نصف ثروته على الفقراء وان يبنى في نصفها الآخر مستشفى فخم يتناسب وضخامة صيته .

وجاء بعد جان تسيمس عدة قياصره ، ولكل قيصر قصة مشجية، وإذ كانت الحروب الحمدانيه تقف عند نيسفور فوكاس فقد رأينا ان نقف عند هذا الحد من تاريخ الاسرة المقدونية :

* * *

ويحسن بنا الآن وقد اوجزنا تاريخ هذه الدولة البيزنطية وتحدثنا عن ملوكها وهذه المآسي التي كانت تنبثق من زوايا القصور بشكل اقرب الى القصة منه الى الواقع - يحسن ان نشير الى قوتها كدولة عظيمة و بذلك نكون اعطينا القارئ صورة واضحة عن هذا الخصم القوي الذي حاربه الامير الحمداني الشجاع .

الجيش البيزنطي

كان الجيش البيزنطي على جانب عظيم من القوة والتنظيم ، وكان يشرف على تدريبه ، في الفترة التي نحن بصددها ، قواد عظام لعل ابرزهم نيسفور فوكاس وبارزاس فوكاس ، وكان عدده يزيد على المائتي الف مقاتل ولم يكن افراده من البيزنطيين الخلّص بل كانوا خليطاً من امم مختلفة وجنود مرتزقة ؛ من بيزنطيين وسلافيين وارمن وبلغار وروس وصقالبة وعرب حتى القيادة لم تكن تحصر بالبيزنطيين وحدهم بل كان يحوزها رجالات من الروم والارمن والعرب والذي

نعتقده ان نصيب العرب من هذه القيادة ضئيل جداً وان أثبته بعض مؤرخي الافرنج .

وقد كانت وسائل الدفاع وخطط القتال منظمة جداً حتى ان انباء القتال لم تكن بمعزلٍ عن القيادة العامة في القسطنطينية بل كان الاتصال وثيقاً وسبيلهم الى ذلك «العلامات النارية» وهي عبارة عن اشعال النيران على قمم الجبال والتراسل بواسطتها ، وكان للجيش البيزنطي عدة مراكز منظمة بين جبال طوروس وعاصمة الملك أي كانوا يعتمدون في مخابراتهم الحربية على هذه «العلامات البرقية» ـ اذا جاز لنا هذا التعبير ـ وكانت انباء القتال تصل الى القسطنطينية من حدود طوروس في ثلاث ساعات وبالعكس .

وكان في كل منطقة من مناطق الحدود ما يقرب من اربعة الاف جندي لحمايتها، وكان يعمد الى تغيير هذه الفرق العسكرية كل اربعة عشر يوماً مرة . وكثيراً ما كانت الفرق الاستطلاعية تخترق الحدود لكشف قوات العدو حتى اذا شعرت بالخطر اتصلت بالقيادة العامة وطلبت الامداد بواسطة «العلامات النارية».

ولم تكن كثافة الجيش البيزنطي وكثرة مقاتليه هي كل قوته بل كان لديه من العدد الحربية ما يعد في ذلك الزمن من أروع الات

التدمير كانت لديه « النار اليونانية » هذه الآلة المدمرة التي تتألف عناصرها من زيت النفط والكبريت والقاز وغيرها من المواد الملتهبة التي كانت تحدث «دخاناً كثيفاً وانفجاراً عظيماً وتنبثق منه نار شديدة حامية تندلع ألسنتها صعوداً وهبوطاً في نفس الوقت ، وتضطرم اضطراماً سريعاً هائلاً ولا تنطفئ عند ملامسة الماء بل تشتد وتحتدم ولا يخمد اوارها سوى الرمل والخل وقد احتفظ البيزنطيون طويلا بسر هذا السلاح الهائل واستأثروا باستعماله في محاربة اعدائهم قروناً طويلة» (١) وكانت لديهم الدبابات ـ وقد ذكرها مؤرخو العرب بهذا الاسم واستعملها جيش المسلمين في حصار الطائف ـ والدبابة « اداة من ادوات الحرب يدخل المحاربون في جوفها ويدفعونها الى جدار الحصن فينقبونه وهم في داخلها تحميهم سقفها وجوانبها من نبل العدو»(٢) وكان لديهم اسطول كبير في البحر وغير ذلك من شتى عدد القتال . وبالاجمال فأن الجيش البيزنطي كان على جانب عظيم من القوة والتنظيم أعدّ ليحفظ اكبر امبراطورية في الشرق وهذا الذي جعلهم ان يحتفظوا بمملكة

---

(١) عقد الاستاذ محمد عبد الله عنان في كتابه «مواقف حاسمة في تاريخ الاسلام» فصلا طريفاً عن تاريخ «النار اليونانية» وتطوراتها اخذنا منها الفقرة المدرجة اعلاه

(٢) تاريخ الاسلام السياسي للدكتور حسن ابراهيم حسن .

بيزانس رغم الاغارات القوية التي كانت تنتابهم من كل طرف

* * *

ونخلص من هذا العرض الى ان الاسرة المكدونية هي التي حاربت الدولة الحمدانية في عهد امبراطورية بيزانس ، وان حروبها لم تكن مع العرب بل كانت مع الروس والبلغار وان الصراع بين الكنيسة والقصر وانغماس القياصرة بالشهوات وفرض الضرائب قد خلق لها الكثير من الفتن والاضطرابات الداخلية، وانها كانت قوية بجنودها ورجالها وعددها ومخترعاتها واسطولها ووسائل مواصلاتها . بينا الجيش الحمداني لم يكن بهذه القوة ولا بهذه المنعة وكان كل سلاحه السيف والرمح والمستوفي وهو عامود من حديد مربع الشكل طوله ذراعين ، وله مقبض مستدير . وثمة مسئلة يجب ان نشير اليها وهي ان مشاكل البيزنطيين لم تكن اقل من مشاكل الحمدانيين ولكن الفرق ان البيزنطيين كانوا امبراطورية كبرى ذات نفوذ وقوة وجند عظيم وكان الحمدانيون اسرة صغيرة، ومع ذلك فقد استطاع اميرها المغوار ان يرد هجماتهم وان يصون هذه البقعة من مطامعهم وان يحتفظ باستقلالها السياسي رغم كل ما عمله البيزنطيون للقضاء على هذه الدولة العربية الفتية .

- ٤ -

لقد تسائلنا ، حين انكسر سيف الدولة لاول مرة عام ٣٤٨ هـ ونحن نعرض الى اماني نيسفور فوكاس وتدبيره هـذه الخطط المدمرة للقضاء على خصمه ـ هل استطاع ان يثأر لهذه الدماء التي اهرقها العرب في مضـايق طوروس واراضي كايكيا ؟ وها نحن نترك للحوادث ان تجيبنا على هذا السؤال بعد ان ظـلت انتصارات سيف الدولة عشر سنوات كاملة كادت تصل به الى ابواب استانبول

* * *

مرت سنة ٣٥٠ هـ دون قتال اللهم الا بعض مناوشات بسيطة جرت بين البيزنطيين وجماعات العرب من سا كني طرسوس . وقد يكون للطبيعة أثرها القوي في وقف القتال لان المؤرخين يتحدثون عن اشتداد البرد اشتداداً عظيماً كان من نتيجته ان هطلت الثلوج

كثيراً وجمد نهر الفرات مما تعذر معه القتال ، وما اطل ربيع سنة ٣٥١ هـ حتى زحف البيزنطيون على مدينة «عين زربي» وكانت من مدن الثغور ، ولم يكن سيف الدولة قد استعد للقائهم بعد ان اضاع جيشه ، ورأى البيزنطيون ان الفرصة مؤآتية لان يغيروا على هذه البلدان الواقعة على الحدود . فجهز نيسفور فوكاس جيشاً عظيماً يتراوح عدده بين الـ ١٦٠ الف جندي والمائتي الف . واذا عرفنا ان هذا العدد يشكل اكبر وحدات الجيش البيزنطي قدرنا مبلغ ما أثارته انتصارات سيف الدولة في نفوس البيزنطيين من خوف وقلق . فالواقع ، ان الزحفات البيزنطية تبدأ من هذا التاريخ ، ولم يكتف نيسفور بكثافة هذا العدد من المقاتلين بل زوّد جيشه بهذه العدد والمدمرات وما لا بد منه لتذليل هذه العقبات التي تعترض تقدم الجيش : «ثلاثين الف صانع للهدم ولتطريق الثلوج ، واربعة الاف بغل عليها حسك الحديد يطرحه حول عسكره بالليل - أي ما يشبه الاسلاك الشائكة في عصرنا هذا - وخركاهات غلفها لبود عسكرية» عدا الدبابات والنار اليونانية التي كانت افعل مدمرات الجيش البيزنطي في هدم المدن وحصد النفوس . أي ان الجيش البيزنطي كان يتبع نفس الخطط والاساليب العسكرية

التي تتبعها الجيوش الحديثة في غزواتها وفتوحاتها . وهـذا الجيش الايطالي في الحرب الحبشية لم يكتف بـكثافة جنده و كثرة مدافعه وقنابله وطياراته وغازاته السامة بل صحب معه عـدداً غير قليل من كبار المهندسين والعملة لتعبيد الطرق ونسف الجبال وحفر الآبار.. وهذا ما اصطنعه البيزنطيون في حروبهم مع سيف الدولة .

بهذا الجيش اللجب ، الكامل العدة والعدد انقض نيسفور فوكاس على «عين زربه» هذه البلدة الواقعة في سفح جبل ، فحاصرها واحاط جنوده الجبل من جميع اطرافه وما زالوا يقاتلون اهالي هذه البلدة الصغيرة الآمنة التي قاتلتهم وصدت عن حماها ما وسعها القتال حتى وهن عزمها وعجزت عن الدفاع . ورأى السلطان ان من الحكمة ـ وجيش سيف الدولة بعيد عنهم وليس لديهم من جنده الا فئة من حرس الحدود ـ ان يستسلموا حقناً للدماء وضناً بالمدينة من ان تحرق او تدمر . ويصف ابن مسكويه صاحب "تجارب الامم" هذه الوقعة بقوله : « . وفيها ـ اي في هذه السنة ـ ورد الروم «عين زربة» في مائة وستين الفاً وهي في سفح جبل ، والجبـل مطل عليها ، فلما جاءه الدمستق في هذا الجمع العظيم انفذ قطعة من جيشه الى الجبل ونزل هو على بابها فملك جيشه الجبل ، فلما رأى اهل عين زربه ان الجبل قد

ملك عليهم وان جيشاً آخر ورد الى باب المدينة وان مع الدمستق دبابات كثيرة ، وانه قد اخذ في نقب السور طلبوا منه الامان فآمنهم وفتحوا له باب المدينة فدخلها (١) فوجد الخيل الذين في الجبل قد نزلوا الى المدينة فندم على اعطائهم الامان ؛ فنادي في البلد من اول الليل بان يخرج جميع اهله الى المسجد الجامع ،وان من تأخر في منزله قتل ، فخرج مَنْ امكنه الخروج فلما اصبح انفذ رجاله في المدينة وكانوا ستين الف رجل ،وكل من وجدوه في منزله قتلوه . فقتلوا عالماً من الرجال والنساء والصبيان والاطفال وامر بجمع مافي البلد من السلاح . فجمع منه امر عظيم وكان في جملته اربعون الف رمح، وقطع ما في البلد من النخل فقطع نحو خمسين الف نخلة ، ونادى فيمن حصل في المسجد الجامع من الناس بأن يخرجوا عن البلد الى حيث شاؤوا ، وان من امسى ولم يخرج قتل ، فخرج الناس مبادرين

---

(١) والذي نرجحه ان «عين زربة» كانت من مدن الثغور الحصينة . يدلنا على ذلك ان نيسفور لم يستطع ان يدخلها بسهولة رغم كثافة جيشه ، وان بعض جنوده قد دخلوها بالحيلة ولو لم يستسلم له الاهالي لاضطر الى حرقها او تهديمها وفي معجم البلدان ان الروم هدموا هذه البلدة مرتين : مرة في عهد الرشيد ومرة في عهد سيف الدولة وان سيف الدولة انفق عليها ثلاثة الاف الف درهم حتى اعاد عمارتها وهذا يؤكد الرأي الذى ذهبنا اليه . ولولا ذلك لما اهتم بعمارتها وتحصينها هذا الاهتمام .

وتزاحموا على الابواب فمات بالضغط جماعة من الرجال والنساء والصبيان ،ومرّوا على وجوههم حفاة عراة لايدرون اين يتوجهون فمآ نوافق الخرت ومن وجد في المدينة آخر النهار قتل واخذ ماخلفه الناس من امتعتهم واموالهم ، وهدم السوران اللذان على المدينة وهدمت المنازل ، وبقي الدمستق مقيماً في بلدان الاسلام احدى وعشرون يوماً . وفتح حول «عين زربه» اربعة وخمسين حصناً منها بالسيف ومنهابالامان» وحسب القاري ان يعلم ان بين هذه الحصون التي فتحت بالامان حصن امر اهله «بالخروج منه فخرجوا فتعرض بعض الارمن للنساء اللواتي خرجن منه فلحق رجالهن غيرة عليهن فجردوا سيوفهم فاغتاظ الدمستق منهم وامر بقتل الجميع وكانوا اربعمائة رجل ، وقتل النساء والصبيان ولم يترك الاجاريه حدثة او من يصلح ان يسترق» واذا كانت الحصون التي افتتحت بالامان قد تعرضت لهذه الفظائع والاهوال فماهو حال التي فتحت بالسيف وتعرضت للتهديم والتدمير ؟

لقد استطاع البيزنطيون في هذه المعركة الثانية ان يثأروا لضحاياهم بعد هذه الحملة الكبيرة التي جهزوها لقتال الامير الحمداني الذي اقلقهم في عقر دارهم مدة عشر سنوات كاملة . ولكنهم لم يستطيعوا

ان يثأروا منه بل من هذه البلدة الآمنة القوية برجالها والغنية بخيراتها فكانت النساء والاطفال واشجار النخيل طعمة لشهوة الدم والثأر التي استيقظت في نفوسهم قوية جامحة بعد أن نالهم من غارات سيف الدولة ما نالهم ولا شك ان خبر هذه المعركة وما انطوت عليه من بطش وفتك قد نقل الى مسامع الامير الحمداني وان هذه المآسي الدامية قد حزّت في نفسه وآلمته الماً شديداً او قل اثارت حميته ومروءته وشجاعته حتى اصبح لا يستطيع المقام في عاصمة ملكه دون ان يسرع الى ساحة القتال ليلقى هذا الخصم القوي بجيشه العظيم ولكن هل كان سيف الدولة قد اخذ للامر عدته ؟ وهل استطاع ان يلمّ وحدات جيشه ؟ والذي نفهمه من سير الحوادث ان سيف الدولة قد لقي عناء كبيراً في جمع الجند وانه لم يستطع ان يفرض نفسه عليهم كما كان يفرضها في السابق . لقد جمع ما استطاع جمعه من وحدات جيشه بكثير من الجهد واخذ يغري المتطوعين بالهبات والعطايا «ونادى بالرعية : من لحق بالامير فله دينار» فهل هذا المبلغ عن يوم أو عن اسبوع او عن شهر ! وهل عجز عن اثارة الناس في رد عادية الاجنبي فلوّح لهم بالمال او ان هذا النداء هو لتلك الحثالة المرتزقة من الجنود الذين لا تخلو منهم امة فاراد ان

يستثير حماسهم بالمال بعد ان خمد من نفوسهم «حس الدفاع عن الوطن»؟

على ان الامر الذى لاريب فيه ان انكسار سيف الدولة في مضايق «خرشنة» ونجاته باعجوبة بعد ان اضاع جيشه كله، ودخول البيزنطيين «عين زربة» واقتحامهم الثغور بجيش عظيم - ان هذه الاحداث مجتمعة قد خلقت في نفوس الحمدانيين بعض الوهن والذعر. والحرب بركان من السعير، لاتحمل في اطوآئها الا الدم والنار وهذه النفوس التى تذهب طعمة لها فهل يجازفون - وهم قلة - بقتال جديد ويزجّون انفسهم في أتون محرقة كما يريد الامير !! اخذت الدعاوات تعمل عملها. وكادت الاراء تنشطر شطرين ولكن الوطن اصبح مهدداً بغارة العدو، والانسان مفطور على حب وطنه، ولايستطيع ان يكون «انساني النزعة» حين تدهم ارض الوطن يد العدو. اذن، فلا مجال للفلسفات وبسط الآراء. واخذ الامير ينفخ في النفوس: ماقيمة حياة سلبت كرامتها؟ وهل لامة كرامة اذا سلب الوطن حريته؟ وهل تصان الاوطان بغير المهج واراقة الدم؟..

* * *

دخلت «عين زربي» في حوزة نيسفور واعلن - وقد ادركه الصوم انه سيعود الى القتال بعد الفطر - ونفهم من هذه الرواية ان الحرب

كانت في الربيع «وزعم انه يخلف جيشه في «قيساريه» ولكن لم تكن هذه المزاعم الا خدعة إذ ليس من المعقول ان يركن الى الهدنة ليعطي الفرصة الى خصمه بعد ان جهز هذه الحملة الكبرى التي اعدها لفتح سورية والقضاء على سيف الدولة نهائياً. ويصف پول بوران هذه الفتره، ويسميها فترة استراحة بقوله: «بعد ان رسم نيسفور فوكاس منذ عام ٩٦٢م خططه الحربية بأكملها، انقضّ على كايكيا كالصاعقة وفي رهة ٢٢ يوماً استولى على ٥٤ بلداً وحصناً - والرواية العربية تذكر ٥٤ حصناً ولا نعلم اذا كان هذا من تحريف الارقام لان العدد متقارب الى حد ما - فوقع العدو في ارتباك عظيم اما نيسفور فأنه استفاد من حيرة العدو وذهب ليستريح في «قيسارية». وفي خريف السنة ذاتها اجتاز جبل طوروس ثانية، ومعه جيش مؤلف من مأتي الف محارب؛ واتجهت نيته نحو حلب. وبعد ان استولى على كايكيا اجتاز الامانوس في اواخر تشرين الثاني، ولم يستطع سيف الدولة ان يدافع عن مضايق الامانوس لانه اخذ على حين غرة»..

تطايرت الانباء الى سمع سيف الدولة ان البيزنطيين اصبحوا على ابواب عاصمته، وطبيعي ان تثير هذه الاخبار في نفسه شتى الهواجس وان يقلق ويفكر في دفع هذا الخطر الداهم. لقد انقض كالسهم

وانطلق على جواده يقرع في سمع الميامين من جنوده البواسل ان هبوا لدفع هذا الخطر فان ارض الوطن مهددة بنيران العدو. وترك العاصمة تتأهب لدفع الخطر واسرع الى القاء العدو قبل ان ينقض على المدينة. وكان البيزنطيون قد وصلوا اعزاز؛ والتقى بهم وجهاً لوجه. ولكن لم يبدأ القتال حتى شعر انه يحاول المستحيل. أليست مجازفة كبرى ان يقاتل ثمانين الف بيزنطي بأربعة الاف عربي؟.. ولكن «كم من فئة قليلة غلبت فئة كثيرة باذن الله» بهذا الايمان القوي تقدم الى صد البيزنطيين، فلم يهن ولم يضعف وقاتل بشجاعة نادرة ومازال حتى اسفرت المعركة عن قتل اكثر من معه فارتد الى حلب ولم يدخل العاصمة بل خيم ظاهرها، وإذ هو يفكر بالخروج من هذا المأزق علم ان البيزنطيين توجهوا نحو العمق فجهز فتاه «نجا» في ثلاثة الاف مقاتل وارسله للقتال وما لبث ان لحق به. نعم، لم يصبر «فسار بعد الظهر بنفسه ولم يكد يقطع فرسخاً عن حلب حتى اخبره بعض العرب ان الروم لم يبرحوا «جبرين» وانهم على ان يصبحوا حلب» وعاد الى العاصمة «وبذل خزائن السلاح للرعية» ودعاهم جميعهم الى الجهاد في سبيل الله والوطن وانقاذ العاصمة من هذا الخطر ولكن نيسفور كان قد انقض عليها بثمانين الف جندي بين

فارس وراجل فنشب القتــال واستبسل جنود سيف الدولة وكانت المعركة من المعارك الكبرى ، تطايرت فيها الرؤوس وانتثرت الاشلاء وخضبت الارض بدم الشهداء . واستطـاع سيف الدولة بفروسيته الخارقة ان ينقذ نفسه وان يتجه نحو بالس ـ الرقه (١) فلحقه ابن الشمشقيق في عشرين الف فارس ولكن دون ان يستطيع القبض عليه وهذا ما حزّ في نفس عدوه وادخل الحسرة في قلب نيسفور والى هذا اشار شامبرجر بقوله :(٢)

«كان سيف الدولة عظيماً في انتصاره ، كما كان عظيماً في انكساره وكانت امبراطورية البيزنطيين هذه التي ملكت العالم القديم تخافه منتصراً وتجله منكسراً ، ففي سنة ٩٦٢ م قامت على ابواب حلب معركة بين الجيش الذي يقوده قيـصر الرومان والجيش الذي يقوده سيف الدولة الامير . اما كيف كان القتال وهذه الملحمة فلايستطيع وصفه غير الذي شهد المعركة واطل على ساحتها وميدانها ، ولكن المؤرخ البيزنطي يعطينا الصورة الصـادقة لبسـالة الامير وعنفوانه

---

(١) بين حلب والرقة تقع على ضفة الفرات الغربية

(٢) هذه النبذة من بحث للمستشرق شلمبرجر عنوانه «حلب تنافس بزنطية» ترجمة صاحب فتى العرب

وكبريائه وتصف لنا هذه الصورة كيف كان الامير يثير حماسة الامبراطور ويلهب شعوره حتى اضطر قيصر البيزنطيين الى مصارحة قواده : لا أريده قتيلا بل أريده أسيراً فأيكم كانت له القدرة على أسره منحته مقاطعة كاملة» .

-٥-

دخول نيسفور الى حلب – اغارته على سيف الدولة وتهديمه قصر الحلبة – دفاع الحلبيين عن ارض الوطن – هدم القصور وحرق الجوامع ونهب الكتب

* * *

خلت المدينة من اميرها الشجاع وفقدت بنزوحه عنها بعض امالها الكبار فغمرها يأس قاتم وذهول عميق وحيرة ملحة فما عساها ان تعمله؟ لقد انتثر فرسانها وتفرق جيشها ولم يبق فيها غير الشيوخ والنساء والاطفال وبعض الحرس فهل تستسلم لهذه القوى الباطشة تفعل فيها ما يشائه القدر ...

اقترب البيزنطيون من البلدة وحوّموا حولها فاعتصم الاهالي في الداخل واغلقوا الابواب واستعدوا للقتال بهذه الروح القوية

التي ايقظها الامير الحمداني في نفوسهم والتي انقلبت في هذه الظروف العصيبة وهجاً ودماً . ولكن أنستطيع ان تقاوم هذا الجيش اللجب وقد أربى عدده على الثمانين الف فارس عدا المشاة وشتى عدد القتال؟ في الواقع ، انها لن تستطيع المقاومة ولكن عزّ على كماة بني حمدان ان يطأ الاجنبي ارض الوطن فتقدموا للذود عن حماه واسفرت المعركة عن قتل ثلاثمائة ونيف بينهم غير واحد من كبار الحمدانيين (١) وظل البيزنطيون حول المدينة لم يستطيعوا دخولها . وإذ كان قصر الامير خارج البلد اتجهوا نحوه، وما دخله نيسفور حتى بهره مارأى فيه من زخرف وصناعة ، ومن جمال وروعة ،ومن ثروات ونفائس وعتاد ولكن هذا البهر والاعجاب لم يبقيا على القصر كأثر نفيس من اثار الحمدانيين بل اعمل فيه الهدم والتخريب فتركه بعد ان سلب كل ما قدر على نقله - طللاً بالياً وتتفق الروايات على ان الاشياء التي نقلت من القصر تفوق الحصر ولكن المؤرخين ذكرون بين هذه الاشياء «اربعة ملايين درهم فضة ، الافاً من البغال ، حصناً من نجد ، افراساً عربية ، ستة الاف درع ، ٣٧٠ حمل من الاقمشة

(١) قتل في هذه المعركة كل من ابي طالب ابن حمدان وابنه وداود ابن علي واسروا كاتب سيف الدولة الفياضي وابو نصر ابن حسين بن حمدان

الصوفية البديعة ، ٣٠٠ من الاقمشة الحريرية الناعمه ، ١٠٠ حمل من الاسلحة ، احزمة مذهبة ، عدا السيوف والدروع والاواني الذهبية والفضية وما يقرب من الفي جمل[1] ولم يكتف بكل هذه النفائس والثروات الضخمة بل اشعل النار في القصر امعاناً في الحقد والضغينة والانتقام . وبذلك شفى القائد البيزنطي بعض غلّه من سيف الدولة ولكنه لم يحقق رغبة الامبراطور بالقبض عليه حياً ولا رغبته بان يقضي عليه ميتاً ! وانكفأ الى المدينة يحاول دخولها على رأس جيشه ولكنه لم يستطع فارسل احد رسله ينبأهم ما آل اليه القصر وان ينتدبوا اثنين لمقابلته ولمفاوضته معه لدخوله المدينة سلماً . وقد لجأ الى

---

(١) عن بوران ص : ٤٥ ـ ٤٦ وتعدّد الرواية العربية هذه الاشياء كما يلي «وظفر الدمستق ـ نيسفور ـ بداره وهي خارج مدينة حلب فوجد لسيف الدولة من الورق ثلاثمائة وتسعون بدرة فأخذها ووجد له الف واربعمائة بغل فتسلمها ووجد له من خزائن السلاح مالا يحصي كثرة فقبض جميعها واحرق الدار والربض ـ ابن مسكويه ـ وفي رواية ابن ظافر : ملك الروم دار سيف الدولة بظاهر حلب وذرعها ستة الاف ذراع واخذ له منها مالا يحصى من الاموال: شرح ذلك ثلاثمائة بدره ،مائة عين،ومائتين ورق وثلاثمائة جمل من البز الفاخرة : ومن الديباج الفاخر مما كان ادخره من عهد «رومانوس» خمسون حملا من اواني الذهب والفضه مالا يحصى؛ومن الخيل ثمانمائة رأس ومن السلاح والمناطق التجافيف والسيوف مائة حمل ومن الجمال نحو الفي جمل ونقل سقوف الدار معه لأنها كانت مذهبة

هذا الاسلوب لما عجز عن دخولها حرباً . فخرج اليه شيخان وتبلغا الرسالة واستمهلا يوماً لمشاورة الاهالي «فلما كان الغد أتى الحاجب ـ رسول البيزنطيين فقال ليخرج الينا عشرة منكم لنعرف ما عمل عليه اهل البلد . وكان رأي اهل البلد على الخروج بالامان ، فخرج العشرة وطلبوا الامان وتدخل الروم[1] ولكن البيزنطيين خشوا ان يكون وراء هذا الاستسلام مكيدة حربية .

«قال الدمستق : صح ما بلغني عنكم

قالوا : ما هو ؟

قال : بلغني انكم اقمتم مقاتلتكم في الازقة مختفين ، فاذا خرج الحرم والصبيان ، ودخل اصحابي للنهب اغتالوهم

قالوا : ليس في البلد من يقاتل

قال : فاحلفوا ..

..... فحلفوا (٢)

ورغم هذه الايمان فقد خشى البيزنطيون دخول المدينة . وتحقق لهم ان الاستسلام كان رأي فئة قليلة دون الاكثرية التي كانت

---

(١) تاريخ علي بن محمد الشمشاطى «واقعة حلب»

(٢) تاريخ بن محمد الشمشاطي «واقعة حلب»

ترى الاستمرار في الدفاع والمقاومة . وصمم نيسفور على دخول المدينة عنوة «وكان كل شيء قد اعد للهجوم ، فقد استطاعت الجيوش البيزنطية ان تفتح بعض المنافذ في اسوار المدينة من الجهة الجنوبية والشرقية والغربية ولكنها اضطرت ان ترتد الى الوراء امام دفاع الاعداء وفي اليوم الثاني - ٢٣ كانون الاول - كانت جميع المنافذ قد سدت حتى فكر نيسفور بالانسحاب» (١) «وقاتل اهل حلب من وراء السور فقتل من الروم جماعة بالحجارة وسقطت ثلمة من السور على قوم من اهل حلب فقتلتهم وطمع الروم في تلك الثلمة فأكبوا عليها ، ودفعهم اهل البلد ، فلما جنهم الليل اجتمع المسلمون عليها فبنوها واصبحوا وقد فرغوا وعلوا عليها وكبروا ، وبعد الروم قليلا الى جبل هناك يعرف بجبل جوشن (٢) »

*****

تراجع البيزانطيون ازاء صمود الحلبيين ودفاعهم القوي ، وشعر الشعب بشيء من العزة والكرامة القومية . واستطاع بتضامنه ان يدفع عنه اكبر قوة حربية في ذلكم العصر . ولكن المدينة كانت في عزلة عمن حولها فضاقت بهذا الحصار وهددتها المجاعة وانتهى

---

(١) بوران (٢) ابن مسكويه

الأمر ان شبت شبه ثورة فهجم الرعاع على منازل الاغنياء يحاولون النهب والسلب، واضطر الحرس ان يتركوا مراكز الدفاع ليطفأوا هذه الثورة الداخلية ، وفي رواية ان الحرس اشتركوا في النهب «وذهب رجال الشرطة بحلب الى منازل الناس وخانات التجار ينهبونها وقيل للناس الحقوا بمنازلكم فأنها قد نهبت ، فنزلوا عن السور واخلوه ومضوا الى منازلهم مبادرين ليدفعوا عنها فلما رأى الروم السور خالياً»(١) والبلد في ثورة دامية ، والرعاع يقتتلون في سبيل الاهواء الدنية دون هذه الغايات المثلى اقتحم نيسفور وجنوده الابواب ودخلوا المدينة ونفوسهم مليئة بالقسوة والانتقام . وتتفق الروايات على ان البيزنطيين اعملوا القتل والنهب والتدمير ستة ايام كاملة من السبت الى يوم الاحد لثلاث بقين من ذي القعده - ٣٥١ -

بعد كل هذه المقاومة خضعت المدينة لبطشهم وفي نفسها ثورة من التمرد . واعتصم اكثر العلويين والهاشميين والوزراء والكتاب وجمهور من الاهالي في القلعة واخذ البيزنطيون ينهبون ما وسعهم النهب، فروعوا النسآء وارعبوا الاطفال واطلقوا الجنود تعيث وتفسد وترتكب افظع الموبقات «فوضعوا السيف في الناس وقتلوا كل

(١) ابن مسكويه

من لقيهم ولم يرفعوا السيف الى ان كلوا وضجروا ، وكان في البلد من اسارى الروم الف ومائتا رجل فتخلصوا وحملوا السلاح على المسلمين وكان سيف الدولة قد اعد من الروم سبعمائة رجل ليفادي بهم فاخذهم الدمستق وسبى من البلد ومن المسلمين والمسلمات بضعة عشر الف صبي وصبية واخذ من خزائن سيف الدولة وامتعة التجار مالا يحد ويوصف كثرة ، فلما لم يبق معه شيء يحمل عليه احرق الباقي بالنار . واخرب المساجد» (١)

*****

ذلت العاصمة تسعة ايام كاملة بيد نيسفور ، خلا له الجو بنزوح سيف الدولة عنها فصال وجال ، ولم تطفأ شهوة الانتقام من نفسه ما أخذه من مال وأثاث وما حمله من ذهب وفضة ومن دمقس وحرير بل اطفأ بعض هذه الشهوة الوضيعه بهدم القصور وحرق الجوامع والكتب وقتل النفوس وترويع النساء وسبي الاطفال . وظلت القلعة منيعة . ورغم كل ما عمل لاقتحامها ظلت بيد الحمدانيين ولم تمتد اليها يده . فسآء ذلك ابن اخت نيسفور وهو شاب متحمس فخاطب خاله بقوله :

---

(١) ابن مسكويه

«هذا بلد قد حصل في ايدينا، وليس من يستطيع ان يدفعنا عنه فبأي سبب نصرف عنه قبل فتح القلعة (١) ؟»

قال له الدمستق (٢) : «قد وصلنا الى مالم نكن نقدره ولا يقدره الملك وقتلنا وسبينا واسرنا واحرقنا وهدمنا وخلصنا اسرآءنا واخذنا من أردنا ان نفادي به بلا فدية وغنمنا غنيمة ماسمع بمثلها، والرأي ان ننصرف عنهم فأن طلب النهايات والغايات رديء» (٣)

ولكن مطامح الشاب كانت اوسع من ان تحد فأصر على مهاجمة القلعة وقال: «لا انصرف او افتح القلعة . فلما الح قال له: اعمل ماتشاء هذه هي القلعة . اذهب وخذها، ولم يتردد الشاب لحظة بل اجتاز الطريق المؤدي الى باب القلعة على رأس فرقة مهاجمة ولم يكد يحاول الدخول حتى رماه احدهم بحجر كبير كاد ينقضّ فوقه فادار الشاب ظهره ليتقيه، عندئذ فتح احد الجنود الحلبيين الباب، وبطعنة رمح بين ابطيه ارداه قتيلاً (٤)» فحزن نيسفور وانتقم لمصرع هذا القائد

---

(١) بول بوران (٢) اي نيسفور (٣) ابن مسكويه

(٤) يرى المستشرق الشيخ ماريوس كانار ان هذه الرواية فيما يتعلق بقتل ابن اخت نيسفور غير حقيقية، ونحن نجاريه برأيه لان ابن الشمشقيق اي زمسكس قد عاد الى القسطنطينية وجرى بينه وبين الملكة التي تزوجها نيسفور علاقات غرام وتآمر معها على قتله . وعليه فيكون الذي قتل هو احد قواد الفرق لا ابن اخته

الشاب بان قتل اكثر من الف ومأتي اسير على مرأى من الحلبيين امعانا بالحقد والانتقام.

وداخل نيسفور بعد هذه الاحداث فزع كبير، ويأس من افتتاح القلعة وخشي من مفاجئات غير منتظرة فقرر الانسحاب مكتفياً بهذا النصر الذي اقتصر على الترويع والقتل والنهب والتدمير. وإذ اخذ يتراجع القى هذه الكلمة في اذن السكان:

«اني ذاهب .. ولكن لأعود قريباً. فازرعوا اراضيكم لانها دخلت في حوزتي. وسأرجع في العام المقبل لاحصد مازرعتموه. وآمل ان لاتخيبوا املي (١)».

وهكذا انسحبت الجيوش البيزنطية وتراجع نيسفور دون ان يمضي في تحقيق اغراض هذه الحملة الكبرى التي اعدها قيصر الروم ليضع حداً لغزوات العرب المتوالية التي كان يثيرها سيف الدولة وليعيد هذه البلاد الى النفوذ البيزنطي الذي تقلص عنها ثلاثة قرون كاملة. ويرجع السر في تراجعه الى عاملين: اولاً الى انشغال نيسفور بالعرض واهتمامه بالاسلاب وثانياً -وهو الأهم- الى خوفه من سيف الدولة وان يهاجمه على رأس حملة كبيرة في قلب عاصمته.

---

(١) بوران

وانطلق خبر انسحاب البيزنطيين فى طول البلاد وعرضها واتصل بسيف الدولة – وكان في قنسرين – فاسرع الى عاصمة ملكه دامع العين ، حزين النفس لهذا المصير الذي صارت اليه حلب ، لقد اعتاد ان يدخل العاصمة ونفسه مليئة بنشوة النصر ، وان يستقبله شعبه بالاهازيج والاغاريد ، وان ينشده الشعراء – وهو على صهوة جواده – أجمل ابيات المديح فماذا يسمع الآن ؟ انه يسمع عويلاً وبكاءً ويلمس وحشة وخراباً . نعم ، انه يسمع بكاء المدينة الحزين وقد سادها صمت عميق وذهول مخيف . فماذا يعمل ؟ أيستسلم لليأس والبكاء شأن المستضعفين ! لا . ان اليأس لايجسر ان ينفذ الى قلوب العظماء ، فليفكر بمجابهة الاخطار المفاجئة ونفسه اقوى عزيمة وامضى سلاحاً في ميدان الكفاح والنضال .

آخر ايام سيف الدولة

...انسحب نيسفور فوكاس وجيشه من حلب في ٣١ كانون الاول سنه ٩٦٢ م وكان لا بدَّله وهو في طريقه الى بيزنطيه من ان يقضي على هذه البلاد التي اتخذها المسلمون معاقل قوية ومراكز حصينة لغزو بلاد الروم . وكانت «المصيصه» و «طرسوس» من اقوى هذه المعاقل ، عرف اهلها بالصبر والجهاد وبقوة العزيمة والجلاد . اعتمدهم سيف الدولة في كثير من غزواته وحروبه فكانوا سنده المكين ودرعه الحصين .

اتجه نيسفور الى «المصيصه» [١] وحاصرها حصاراً قوياً ولكنه لم يستطع ان يدخلها لان اهاليها دافعوا عنها دفاع الكماة الاقوياء

(١) مدينة على شاطئ جيحان قريبة من طرطوس ذات سور وخمسة ابواب وهي من مشهور ثغور الاسلام ـ معجم البلدان ج ٨ ـ

وقد بلغ سيف الدولة هـذا الموقف الذي وقفته مقاطعات الحـدود فأكبر هذه البطولة واستفزته هذه الانباء ولكن اين رجاله واين جيشه؟ اما الجيش فقد فني في الدفاع عن عاصمة ملكه .. واما رجاله فهم في هذه القلاع البيزنطية يقضون امضّ ساعات الأسر.. واما هو فقد نزل به المرض وكاد يقعده ..ولكن النفوس الكبيرة لا يقعدها عن مطامحها وتحقيق رسالاتها شيء .. ها هو ينفر الى طرسوس مع غلامه «نجا» على رأس فلول من الكتائب الحمدانية .. يدفعهم الحماس وهذا الانكسار الأليم الذي نزل بهم في قلب الوطن ..لقد وصلوا الحدود بعد عياء شديد ..وما كادت تلوح لهم طرسوس حتى انضموا للطرسوسيين .. كانت المعركة في إبان احتدامها فرأى سيف الدولة وهو الخبير في فنون الحرب وفي معرفة هذه الدروب ان يشطر الجيش معسكرين ، وهكذا كان : اتجه الطرسوسيون الى جهة ، واتجه «نجا» مع جنوده الى جهة ثانية .. وصمد سيف الدولة يصون الحدود . وما زالوا يكرّون وراء البيزنطيين حتى اجلوهم عن بلاد الاسلام .. وفي رواية تناقلها مؤرخو العرب انهم وصلوا حتى مدينة قونية .. ولم يستطع سيف الدولة ان يبرح طرسوس خلال فترة الجهاد - لشلل نزل به - فرجع الى حلب منهوك القوى حتى اشاع

خصومه والطامعون بمركزه انه قضى نحبه ، وكان هبة الله حاكم حران وابن اخيه ناصر الدولة ـ هو الذي اطلق هذه الشائعة بغية ان يستقل بتلك المقاطعة التي ضجت من ارهاقه فثارت عليه، وظن بعض المؤرخين ان الثورة كانت ضد سيف الدولة ولكن الواقع ان الثورة كانت على هؤلاء العمال الذين ارهقوا الرعية بالضرائب الباهظة في سبيل اغراضهم ومطامعهم دون ان يرتفعوا بتفكيرهم الى تحقيق هذه الرسالة القومية التي كانت اولى اغراض الامير الحمداني . ورأى ان يرسل غلامه «نجا» الى «حران» لاخماد هذه الثورة والقضاء على تمرد ابن اخيه هبة الله . ولكن «نجا» بدلاً من ان ينفذ اوامر سيده فرض على اهالي حران الكثير من الضرائب والاتاوات وانزل بهم الظلم والجور الاليم .. «وصادرهم على الف الف درهم ووكل بهم حتى ادّوها في خمسة ايام بعد الضرب الوجيع بحضرة عيالاتهم واهليهم فأخرجوا امتعتهم فباعوا كل ما يساوي ديناراً بدرهم لان اهل البلد كلهم كانوا يبيعون ، ليس فيهم من يشتري لانهم مصادرون فاشترى ذلك اصحاب نجا بما ارادوا وافتقر اهل البلدة» (١)

لقد أرسله سيف الدولة ليقمع ظلماً فاقترف ماهو أبشع من الظلم

(١) ابن الاثير ج ٨ ص ١٨٠

يقول ابن الأثير(١) ولما اجتمعت عند «نجا» هذه الاموال قوي بها وبطر ، ولم يشكر ولي نعمته بل كفره وسار الى «ميافارقين» وقصد بلاد ارمينية وكان قد استولى على كثير منها رجل من العرب يعرف بأبي الورد فقاتله ، فقتل ابو الورد واخذ نجا قلاعه وبلاده «خلاط ،وملاذ كرد،وموش» وحصل له من اموال ابو الورد شيء كثير فأظهر العصيان على سيف الدولة» وقد ضاق الامير الحمداني بثورة غلامه عليه بعد ثورة ابن اخيه وان يصل بهما الغرور الى هذا الحد .نعم،شقّ ذلك على سيف الدولة الامير الشاعر،القوي الاحساس واخذ الدمع يطفر من عينيه ، وكيف لا يبكي وهو يشهد هذه المآسي المفجعة تنصب عليه : خصم عنيد يقهره في عاصمة ملكه ، ورجاله ينقضّون عليه ، ومرض هزال يهده فلا يقوى على مغالبته ومع ذلك ورغم كل هذه الفواجع والاحداث لم يستطع ان يصبر على هذه الاهانة يوجهها اليه غلامه «نجا» فلحق به وما كاد يصل ميافارقين حتى فر من وجهه «فملك سيف الدولة بلاده وقلاعه التي اخذها من ابي الورد واستأمن اليه جماعة من اصحاب نجا فقتلهم» وكأنه اراد ان يقمع هذه الثورة بمثل هذه الشدة والعنف ، وهذا

(١) ابن الاثير ج ٨ ص ١٨٠

الذي حفز أخا نجا ان يستأمن اليه فآمنه واكرمه واحسن اليه .ثم رأى سيف الدولة ان يعمد الى الملاينة بعد هذه القسوة وان يسلك الكياسة في اخضاع نجا .. فأخذ يراسله يرغبه تارة ويرهبه أخرى : وما زال به حتى رجع تائباً فأكرمه سيف الدولة واعاده الى مركزه السابق .. ولكن لم يلبث «نجا» في خدمة سيده حتى قتل !...أترى هل أغرى سيف الدولة غلمانه بقتله فقتلوه ؟.. الذي نميل اليه ان سيف الدولة لا يعمد الى هذا العدوان بعد ان طمأنه على حياته . ولكن قد تكون امرأة سيف الدولة هي التي حرضت الغلمان على قتله وفي نفسها من الموجدة عليه مالا سبيل الى نسيان إغارته على ميافارقين بعد أن عاث في حرّان وديار مضر .. وكانت زوجة الامير في ميافارقين فأمرت بأغلاق ابواب المدينة في وجهه وصدّته عن غشيانها بكل ما كان لديها من قوة وحذق وتدبير .. يقول يحي بن سعيد :«وسار سيف الدولة الى ميافارقين وارسل الى نجا يأمره بالمسير اليه ، وآمنه على نفسه وماله ، وسار نجا اليه فصفح عنه واقام عنده وشرب بين يديه فلما سكر شتم الغلمان وغلظ عليهم في القول فاغتاظوا عليه ، وكانت حرمة سيف الدولة اشدّ غيظاً لحصاره لها ، وشتمه اياها فصاح سيف الدولة على نجا وامر ان يقام من بين يديه فوثب الغلمان

عليه بالسيوف فقتلوه» (١)

لم تكن هذه الاحداث الداخلية لتصرف سيف الدولة عن خصومه الطبيعيين .. ولكن انى له ان يثأر لكرامة هذا الوطن وقد خلا العرين من الاسود ، ومطامع البيزنطيين لم تخمد بل ازداد اضطرامها سيما بعد ان أجلاهم الطرسوسيون عن ديار الاسلام ولحقوا بهم حتى قونيه ... وها هو نيسفور يعود الى الثغور ليوالي هجماته فينقض على «المصيصه» بجيش ضخم يحاول فتحها فلا يستطيع رغم «نقبه نيفاً وستين نقباً في سورها» . وجاء سيف الدولة في هذه الفترة خمسة الاف متطوع من الخراسانيين - جاؤا في الفترة التي كانت فيها الحرب مشتعلة من الحدود . وطبيعي ان يوجههم سيف الدولة الى «المصيصه» ليتعاونوا مع اهلها على دفع هذا الطغيان ، وما كاد يصل سيف الدولة مع هذه النجدة حتى كان القتال قد وقف فانسحب البيزنطيون لقلة المؤنة بعد ان لجأوا الى أخس الصفات البشريه التي يعتمدها

---

(١) وفي رواية ان نجا اغلظ الكلام لسيف الدولة فهاج ذلك غلام له اسمه «نجاح» فضربه بسيف على رأسه فقتله ، وقد هال الامير سيف الدولة الذي وقع مغشياً عليه فأمرت زوجة سيف الدولة ان يجر برجل نجا ففعل ذلك الى ان اخرج من قصرها وطرح في مجرى ماء ينصب عليه الماء والاقذار . وبقي فيه الى الغد حتى العصر ثم أخرج وكفن ودفن وكان ذلك سنة ٣٥٤ هـ

المحاربون حين يخسرون المعركة : احرقوا القرى والرساتق الواقعة على الثغر وكان هذا أنفذ سلاح بيد نيسفور . ولا نعلم كيف أضاع سيف الدولة هذه الفرصة ولم ينقض عليهم مع الجنود الخراسانيين؟ أترى أن انسحابهم كان قبل وصوله وان عددهم لم يكن ليشجعه على ملاقاة نيسفور بجيشه العظيم الذى يعد مآتي الف مقاتل ! ورأى الخراسانيون - بعد وقف القتال - أن مهمتهم قد انتهت سيما و«المصيصه» ترزح تحت كلكل من الجوع ، وكانت الاوبئة والامراض تحصد النفوس حصداً فاستأذنوا سيف الدولة بالعودة الى بلادهم ، فأذن لهم وودعهم وهو في جيش من الحيرة والاضطراب والذهول .

*****

مرت فترة سكون هي اشبه بهدنة غير رسمية ، ورأى نيسفور ان لا يزج جيشه في اتون من الكوارث فعمد الى سياسة اللين والود واتخذ ضواحي «المصيصه» مركزاً له «وهادى سيف الدولة ببغال ودواب وثياب رومية وصياغات ذهب ، وقابله سيف الدولة بهدايا فصار سبباً لمقام الدمستق في بلدان الاسلام ثلاثة اشهر لا ينازعه احد ولا يمكنه فتح «المصيصه» وانصرف عنها لأن البلد لم يحمله ووقع

في اصحابه الوبا فاضطر الى الانصراف » (١) . والذي نميل اليه ان سيف الدولة اتخذ من هذه الهدايا وسيلة لتبادل الاسرى علّه يستطيع ان يلم فلول جيشه ويقف في وجه البيزنطيين قبل ان تتلاشى مملكته وينهار صرح اماله بعد هذا الجهاد الطويل. ويظهر ان نيسفور حسب لهذه النتائج حساباً فلم يغادر هذه المناطق وانتقل من «المصيصه» الى قيسارية وظل سنة يتنسم اخبار الثغور الاسلامية حتى اذا تحقق له ضعفها وعدم قدرتها على الدفاع قرر ان يقوم بحملته الكبرى للقضاء على هذه الدولة العربية الفتية التي شغلت بيزنطية عشرين عاماً كاملاً وكان اول عمل قام به ان انقضّ على «المصيصه» ففتحها عنوة بالسيف وقتل منهم مقتلة عظيمة ثم رفع السيف ونقل كل من بها الى بلاد الروم وكانوا نحواً من مائتي الف انسان(٢) » وإذ قضى على «المصيصه» اتجه الى طرسوس فحاصرها حصاراً شديداً وبديهي ان يذعن الطرسوسيون ـ وقد أصبحوا وحدهم في قلب المعركة الى حكم القدر ويستسلموا الى طاغية الروم بعد هذا الجهاد الكبير

(١) ابن مسكويه

(٢) ابن مسكويه ص ٢١٠ والذي نميل اليه ان الرواية العربية تبالغ حين تروي نقل مأتي الف انسان من المصيصه الى بلاد الروم ولا تحدد الرواية الافرنجية عدد الذين نقلوا في هذة المعركة .

وأن يضطر عامل سيف الدولة ابن الزيات ومولاه رشيق النسيمي الى تسليم المدينة صلحاً فدخلها نيسفور بصلف بيزنطي ، يملي ارادته القاسية على هذه البلدة التي اتعبته كثيراً ووقف طويلاً دون تنفيذ برامجه ...

وما شروطه هذه ؟ . تتفق الرواية العربية بأنه اشترط :

اولاً - ان ينزح اهالي طرسوس عن البلد

ثانياً - ان لا يأخذوا معهم الا ما يستطيعون حمله

ثالثاً - ان تؤول جميع الدور والضياع الى البيزنطيين

رابعاً - ان يترك كل من احب المقام في طرسوس دينه وان يعتنق النصرانية

خامساً - ان يدفع كل من شاء المقام وهو على دينه - جزية

وفي معجم البلدان عن احمد بن الطيب السرخسي ان خلقاً كثيرين قد تنصروا واقام نفر يسير على الجزية وخرج اكثر الناس يقصدون بلاد الاسلام . وملك نيسفور البلد «واحرق المصاحف وخرب المساجد واخذ من خزائن السلاح مالم يسمع بمثله مما كان قد جمع من ايام بني امية الى هذه الغاية»

لقد نزح الطرسوسيون عن وطنهم بقلوب واجفة وعيون دامعة

ونفوس جزعة وركبوا البحر وجاز البعض هذه الطرق الوعرة والجبال الشاهقة وما زالوا في مسيرهم حتى هبطوا انطاكية . وقد اثارت هجرة الطرسوسيين الخوف في قلوب اهالي انطاكية فكان اول عمل قاموا به ان طردوا عامل سيف الدولة واتصلوا بنيسفور على ان يؤدوا اليه اربعمائة الف درهم عدا ثلاثين درهما لجزية عن كل شخص في السنة .

وقعت هذه الاحداث بين عامي ٣٥٣-٣٥٤ بينما كان سيف الدولة في ميافارقين وطبيعي ان تثير في نفسه هذه الانباء شتى الاحاسيس المحزنة، لقد عز عليه ان تزخر خزائنه بالمال وصفوة رجاله في الأسر. وما قيمة المال في نظر سيف الدولة اذا لم يستخدمه في مثل هذه الغايات النبيلة؟ - وهو الذي كان ينثر الدنانير على شعرائه بالمئات والالاف - فطلب من نيسفور هدنة يتبادل خلالها الطرفان الاسرى فقبل نيسفور واطلق سيف الدولة ما عنده من البطارقة - أي القواد - كما اطلق نيسفور عيون رجال سيف الدولة وكان بينهم ابو فراس ومحمد بن ناصر الدولة وغيرهم من رجاله وغلمانه . ثم ابتاع حرية الفي أسير بمائة وستين الف دينار اي دفع عن كل أسير ثمانين دينارا (١)

(١) ولما نفد ما معه من المال اشترى الباقين ورهن عليهم بدنته «درعه» الجوهر المعدومة المثال

واذ انتهى من الفداء عاد ألى عاصمة ملكه مع رجاله وجنوده .. ولكن الثورات الداخلية كانت قد اندلعت بشدة . فثار مروان القرمطي في السواحل . كما ثار الانطاكيون بتحريض رشيق النسيمي الذي كان قد سلم طرسوس الى البيزنطيين وانضم اليه جماعة من الديلم وساروا الى حلب يريدون انتزاعها من قرعويه غلام سيف الدولة الذي دافع عنها دفاع الابطال . ولكن سيف الدولة لم يقف مكتوف اليدين فانقض على هؤلاء الخونة وصان حلب وحواليها من عبثهم وكان هذا التخاذل المريع في صفوف العرب قد اطمع البيزنطيين في هذه البلاد سيما بعد ان ملكوا الثغور فعاودوا الكرة وساقوا هذه الجيوش المرابطة على الحدود والمهيأة لهذه الغزوة الكبرى ولدخول حلب مرة ثانية ـ هذه المدينة التي اعتبروها قنطرة البلاد الشامية ، ولكن سيف الدولة صمد لهم ودافع عن لؤلؤته الغالية دفاع المستميتين ، فظلت الجيوش البيزنطية تعيث وتفسد مدة خمسين يوماً في الضواحي دون ان تستطيع دخول حلب .. ولكن كل شيء كان ينبأ ان بطولة هذا الامير العربي قد انتهت عند هذا الحد ، فقد عاجله المرض والح عليه ، وما زال يقاوم ويدافع حتى اخترمت المنية حياته يوم الجمعة لخمس بقين من صفر سنة ٣٥٦ هفقضى

مدافعاً عن فكرة قومية سامية ، وعن وطن أحبه ورفع مكانته .
وهكذا فقد ودع حياة ملئت بالجهاد والبطولة ، عاش نصف عمره في طرد الروم من حدود آسيا الصغرى . ولم يكن بين الملوك - على حد الرواية العربية - من هو أغزى منه ، ويتفق المؤرخون على انه «جمع من نفض الغبار الذي يجتمع عليه في غزواته شيئاً ، وعمله لبنة بقدر الكف وأوصى ان يوضع خده عليها في لحده ، فانفذوا وصيته»
نعم ، انتهت حياة هذا البطل العربي بهذه الخاتمة المحزنة ، كسره البيزنطيون في عاصمة ملكه ، وتفرق عنه انصاره ورجاله ، وانتفضت المقاطعات ثائرة ، وهده المرض وهو في ابان كهولته ، وكأنما شهد غروب هذا المجد السامق فكان ذلك من الاسباب التي عاجلت بانطفاء هذه الشعلة التي اضاءت ربع قرن كامل ، وبوفاة سيف الدولة تلاشت المملكة الحمدانية ، ولم يقو ابنه ابو المعالي شريف على توطيد ما عجز عنه ابوه فأفسح المجال امام البيزنطيين ليوغلوا في ديار الشام وفي اراضي العراق بعد ان «كان عبور الفرات في الجهات الواقعة اسفل جبل طوروس مستحيلا على الاغريق منذ ايام هرقل . ولكن زه‌ميسكيس استطاع ان يكتسح كثيراً من المدن العريقة في الشهرة ، من امثال الرها ، وديار بكر ، وميا فارقين ، ونصيبين

الواقعة عند حدود الامبراطورية القديمة على نهر دجله[1] » ويصف فاسيل اف اثر هذه الغزوات بقوله : « لم يبلغ قط اخضاع العرب واذلالهم في وقت من الاوقات مثلما بلغه في عهد نقفور فوكاس : فقد انتزعت من ايديهم كليكيا وجزء من بلاد سوريه . واعترف شطر كبير من بلاد الدولة العباسية بالتبعية للامبراطورية البيزنطية »[2]

(1) ابن مسكويه ج ٢ ص ٣٠٣ ، ٣٠٤ يحي بن سعيد ص ١٣٩ ، ١٤٠ ، ١٤٧ ، ٥٨ . ١٥٩ : وابو الفدا ج . ص ١١٨ ـ الفاطميون في مصر ـ
(2) الفاطميون في مصر .

الحمدانيون وبنو بويه

بنو بويه – انتزاعهم السلطة من العرب – اهانتهم الخليفة
العربي – استئثارهم بالاموال – عدم نجدتهم الحمدانيين
حين اشتباكهم بحروب بزنطية

****

كانت مصر وسورية والعراق، في اوائل القرن الرابع، تحكم بثلاث امارات مستقلة، فمصر وقسم من بلاد الشام كانت بيد الاخشيديين، وحلب الى حدود الموصل ودياربكر بيد الحمدانيين والعراق وفارس والاهواز بيدي بني بويه.. ولا نشير الى بقية المقاطعات الاسلامية فقد كانت محكومة ايضاً بامراء متغلبين. واذا بحثنا الوان هذه الامارات من الناحية القومية انتهينا الى ان الحمدانيين هم وحدهم الذين كانوا يحكمون هذه البلاد بروح عربية. اما بنو بويه وهم

من الديلم واما الاخشيديون وهم من الاتراك فكانوا يحكمون تلك المقاطعات بنزعة اعجمية وان ظهروا بمظهر اسلامي بعيد كل البعد عن الصبغة العربية. فمن هم بنو بويه؟ وما صلاتهم بالحمدانيين؟ وما حكم التاريخ عليهم حين تقاعسوا عن نجدة الحمدانيين حين حروبهم مع الروم؟ هذا ما نريد ان نلمع اليه في هذا الفصل:

بنو بويه

يذكر المقريزى في كتابه «السلوك لمعرفة دول الملوك» قصة طريفة عن نشأة بني بويه لا نبيح لأنفسنا ان نرويها كما رواها المقريزي ولكن نروي بعضاً منها، فهو يحدثنا كيف كان بنو بويه معوزين لا حول لهم ولا طول، حتى ان منجماً تنبأ لهم بالملك العريض والجاه الطويل والمال الكثير فما كان من ابي شجاع، جد الاسرة الا ان خاطب اولاده بقوله: «اصفعوا هذا، فقد افرط بالسخرية بنا[1]» فصفعوه وهو يبكي ويطلب الرأفة وهم يضحكون منه ويهزأون به، ثم امسك عن الضرب فقال لهم المنجم: اذكروا لي هذا اذا قصدتكم وانتم ملوك واعطاه ابو شجاع عشرة دراهم!.

****

(١) كتاب السلوك للمقريزى جزء ١ ص ٢٥

ولأبي شجاع هذا ثلاثة اولادهم .

ابو الحسن علي الذي لقب فيما بعد بعماد الدولة

وابو علي الحسن « « بركن الدولة

وابو الحسين احمد « « بمعز الدولة

وكانوا جميعهم من رجال القوة والبطش . خرجوا في جملة من خرج من بلاد الديلم تحت قيادة «ماكان بن كابي» الذي لم تكد مطامحه وفتوحاته تمتد حتى اصطدم بـ «مرداويج» احد قواد الفرس الذي قد استولى على ما بيد «ماكان» من طبرستان وجرجان وبذلك اخفق حلم بني بويه وخاطبوا «ماكان» الذي صمم على الانهزام بقولهم «نحن في جماعة ، وقد صرنا ثقلا عليك وعيالا ؛ وانت مضيق ، والأصلح لك ان نفارقك لنخفف عنك مؤونتنا ، فاذا صلح أمرك عدنا اليك» (١) فأذن لهم . ورأوا وهم في حالتهم هذه ، ان يلتحقوا بـ «مرداويج» ملك طبرستان وجرجان والري وهمدان وكل تلك المناطق فأكرمهم واتخذهم بعض قواده ولم يكتف بذلك بل قلّد عماد الدولة ـ وهو الأخ الاكبر ، بلاد الكرج ، فأحسن السيرة وافتتح قلاعاً ظفر منها بذخائر كثيرة ، ومازال يدير الأمور بالكياسة

---

(١) «السلوك لمعرفة دول الملوك» جزء ١ ص ٢٦

والسياسة تارة وبالقوة والبطش تارة أخرى حتى استمال الرجال اليه وقصده الناس من كل صوب وشاع ذكره في الاقطار . وخشي «مرداويج» ان يقوى نفوذ عماد الدولة فاستدعاه ولكنه لم يلتفت اليه وانتقل من كرج الى أصبهان وقاتل المظفر محمد بن ياقوت حتى هزمه وملك اصبهان سنة ٣١١ ه وبدأت القصص اثر هذه المعارك التي قادته الى النصر تحاك بلباقة حول بطولته وشجاعته وكيف هزم عشرة الاف رجل بتسعمائة من رجاله، وبلغت سيرته خليفة بغداد فاستعظمه وما زال نفوذه يمتد، والنصر يحالفه في كل خطوة من خطواته حتى ملك شيراز وفارس . وكان اخوه ركن الدولة ـ الحسن ـ قد استولى على كارزون فأصبحت كل تلك المقاطعات او اكثرها بيد بني بويه ومن هنا بدأت تتكون دولة الديلم التي ملكت العراقين والاهواز وفارس وتغلبت على الخلفاء العباسيين حتى اصبحت الكلمة العليا لهم في شؤون الملك واستنفاد موارد الدولة ..

وقد رأى عماد الدولة ، والخلافة بيد العباسيين ، ان يجنح الى السياسة وان يتصل بالخليفة ليتاح له دخول بغداد ، لأن بلاد فارس ـ على سعتها ـ لم تكن لتحقق مطامحه ومطامع اخوته فاتصل بالخليفة الراضي بالله محمد بن المقتدر وبوزيره ابي علي بن مقلة ينبأهما بأنه على

الطاعة ويطلب ان يكون اميراً على هذه المقاطعات على ان يبذل الف الف درهم .. فاجيب الى ذلك وسيّرت له الخلع واللواء ... فلم يكد يلبس الخلع وينشر اللواء حتى نسي وعده للخليفة واعتبر نفسه صاحب الملك والسلطان .. وهذه احدى غلطات الخليفة العباسي الذي أضفى على متغلب ذي مطامع هـذه الصفة الرسمية التي زادت نفوذه في كل بلاد الديلم .. وكانت اولى اعماله التي كشفت عن دناءة مطامحه انه قتل الرسول الذي حمـل اليه اللواء والخلع ولم يؤد المال الذي فرضه على نفسه(١)

ومما شجع عماد الدولة ان يقترف هذه الفعلة النكراء ان الدسائس في بغداد كانت على اشدها ، وكانت العناصر الاجنبية تعمل في السر والعلن على تهديم هذا الملك الضخم وتقويض دعائمه . وكان بطش الاتراك من اكبر الحوافز التي دفعت بعض البغداديين ان يتصلوا بعماد الدولة وان يحببوا له بغداد ، وكان في طليعة الذين اطمعوه بهذا الاستيلاء ابو عبد الله محمد البريدي والوزير ابو علي محمد بن علي بن مقلة صاحب الكلمة الحاقدة المروية على لسانه : «اني ازلت دولة

(١) كانت تعليمات الرسول الا يسلم الخلع واللواء الا بعد قبض المال ، فلما وصل خرج عماد الدولة الى لقائه وطلب منه تسليمها ، فذكر له الشرط فأخذها منه قهراً «ابن الاثير ج ٨ ص ٢٠٧»

بني العباس واسلمتها الى الديلم ، لأني كاتبت الديلم وقت انفاذي الى اصبهان واطمعتهم في سرير الملك ببغداد» .

ولا شك ان هذه العوامل مجتمعة كانت اكبر ممهد لان يحقق البويهيون اطماعهم فلما ان وثق معز الدولة بأن دخوله بغداد لن يلقى أية مقاومة حتى تقدم على رأس جيش لجب ودخل بغداد سنة اربع وثلاثين وثلاثمائة دخول الفاتحين (١) .. وبدخوله ذعر قوم وابتهج آخرون ولكن سرعان ماعاودهم الذعر جميعاً حين انقض الجنود على دار الخلافة ينهبون كل نفيس ويعبثون بكل أثر .

أصبح الامير البويهي هو الحاكم المطلق في بغداد ، خلع المستكفي بالله واقام مكانه المطيع لله الفضل بن المقتدر بعد ان قصّ من اجنحته حتى حرمه من وزير يبثه بعض هجساته !.. وهكذا ، فقد استحال الخليفة أشبه بصنم في متحف ، لا رأي له ولا نفوذ ، أقصى أمنياته ان لا يمثل به كما مُثل باسلافه (٢) ولم يقف الامر عند هذا الحد بل فكر

---

(١) لقد دخل معز الدولة بغداد لاول مرة سنة ٣٣٢هـ فحاربه توزون الامير التركي وهزمه وما زال يتحين الفرص حتى دخلها يوم السبت حادي عشر جمادي الاول سنة ٣٣٤

(٢) لقد قتل من التسعة والخمسين خليفه ببغداد ثمانية وثلاثون ، وعذبوا بالجوع والسجن وغير ذلك حتى انهم اخرجوا الخليفة القاهر من السجن مفقود العينين ،

هو واصحابه ان يبطلوا الدعوة في المساجد لبني العباس واقامتها للمعز لدين الله أبي تميم معد الفاطمي ولكن بعض اصحابه قد نهاه عن ذلك وانتشر قادته في كل مكان يبسطون نفوذهم وسلطانهم ويفرضون بطشهم وجبروتهم ، وظلت امارة الامراء في عهده ، وظل مستوليا نفوذهم على العراق والخلافة ٢١ سنة، تجبي الاموال باسمه الى ان مات في بغداد سنة ٣٥٦ هـ .. ولا نكون مسرفين في القول اذا اطلقنا على معز الدولة - هذا الرجل المتغلب - لقب ديكتاتور ، لقد كانت ديكتاتوريته تقوم على الظلم والبطش والنهم بينا ديكتاتوريات العصر الحاضر مثلا - الى قيامها بذلك - تعمل على تشييد ملك وتقوم ببعض الاعمال العامة لتستر طغيانها بستر شفاف .. وهكذا ، فان حوادث التاريخ تقص علينا احاديث مريعة عن انتقال السلطة من العرب الى الاعاجم وعن قيام بني بويه في بغداد وفرضهم الاتاوات والضرائب واقترافهم ابشع الوان الظلم وارهاق الرعية بشتى ضروب التعذيب بينا كان الحمدانيون العنصر الوحيد الذي يهتز ألماً لنزول هذه الاحداث وكان الخليفة العباسي على علم بهذا الشعور الذي كان ينبض به قلب

يسأل الناس عن قوته على ابواب المساجد بقوله: «يا معشر الناس . انا بالامس كنت خليفتكم ، واليوم اسألكم مافي يدكم» فيتصدق عليه ..

سيف الدولة. ولكن ماذا يستطيع ان يعمله الحمدانيون وقد صمدوا وحدهم يردون اعظم غارة حربية تستهدف بلاد الشام. وكان يؤلم الخليفة ان يقف البويهيون هذا الموقف المزري من الحمدانيين الذين كانوا يطمعون ان تصلهم نجدات الخليفة لصد هذه الغارات الاجنبية على تخوم المملكة الاسلامية الكبرى. وفي المعركة التي دارت رحاها على ابواب حلب بين نيسفور فوكاس وسيف الدولة عام ٣٦١ هـ - ٩٦٢ م - اتصل الامير الحمداني بالخليفة العباسي وطلب اليه ان ينجده لكيلا يفسح المجال للبيزنطيين ان يمضوا في غزوتهم الكبرى فماذا كانت النتيجة؟ يصف الذهبي صاحب «تاريخ الأسلام» هذه الحادثة بقوله (١):

«.. وذاع الخبر في بغداد فاغلق الناس الاسواق، وذهبوا الى باب الخلافة ومعهم كتاب يشرح مصيبة حلب وضجوا.. فخرج اليهم الحاجب واوصل الكتاب الى الخليفة فقرأه ثم خرج اليهم وافهمهم ان الخليفة بكى ونقل اليهم كلماته بنصها:

(لقد غمني ما جرى وانتم تعلمون ان سيفي معز الدولة وانا ارسله في هذا)

---

(١) تجارب الامم لابن مسكويه ص ٢٠١

ولكن الشعب العراقي الذي تربطه ببلاد الشام اواصر القربى والدم واللغة والحس المشترك ، ان هذا الشعب لم يرض هذا الجواب فضج وطلب الى الخليفة ان يخرج الى الجهاد بذاته

(لانقنع الا بخروجك انت ، وان تكتب الى سائر الآفاق وتجمع الجيوش والا " فانعزل لنولي غيرك) ، هذه نزوة صارخة من شعب متألم يشعر أي كارثة تنزل بالاقطار الاسلامية اذا لم تتوحد الصفوف وتصمد للخطر متكاتفة الجهود لصد الهجمات .. وفاتهم - على مايظهر - ان الخليفة الذي يوجهون اليه هذه الكلمات هو شبح من الاشباح .. ولاشك انه كان يحس احساسهم ولكن السلطة لم تكن بيده .. وقابل الشعب هذا الجواب بكثير من الهزء ..

ولانزيد شيئاً على ما أجاب به الخليفة فكل حرف من حروف جوابه ينطق بضعفه وبمسؤلية البويهيين الكبرى .. ولا ينقذ سمعتهم التاريخية انهم رعوا الادب وقربوا الشعراء وأغدقوا على العلماء . فشأنهم ، في ذلك ، شأن حكومة باطشة تستخدم الصحف المأجورة لتبرير عملها في خنق الحريات ومطاردة الاحرار .. وما كان التاريخ ليعفيهم مما اقترفوه من أثم !

المتنبي

ولد المتنبي في السنة التي ولد فيها سيف الدولة ،
وفي رواية ان سيف الدوله ولد قبله بعامين .
ومهما يكن فنستطيع ان نعتبر ولادتهما في سنة واحدة
ومن غرائب الاقدار ان يعيشا عمراً متقارباً
وان لا يفصل بين موتهما غير سنة وبعض سنة .

****

لسنا نريد أن نؤرخ حياة المتنبي في هذا الفصل ، فالمتنبي سفر خالد من تراثنا الفكري ، وقد كتب عنه الكاتبون مجلدات ضخمة ، وهو لا نزال يستهوي الباحثين لأن يدرسوا حياته ويكتبوا عنه اسفاراً ومجلدات أضخم . ولكن التصاق حياته بحياة سيف الدولة يجعلنا ان نلم المامة موجزة بسيرته وبجوانب من نواحي عظمته وايامه في بلاط سيف الدولة :

ولد شاعرنا احمد بن الحسين ، في الكوفة ، عام ثلاثمائة وثلاثين هجرية . والواقع ، ان الدراسات الادبية لم تهدنا الى شيء ملموس عن طفولته ، ولكن هذا لا يمنع ان نفترض فيه توقد الذهن وفرط الذكاء . ويظهر ان اباه - رغم زراية مهنته - كان يقدّر ما للحياة الفكرية من أثر في تكوين الرجل ، فبعث بابنه الى مكاتب تلك الايام يتعلم القراءة والكتابة ويلم بثقافة ذلك العصر . ولكن سرعان ما تدهمه الحوادث فيهجر الكوفة مع أسرته الى بادية (السماوة) فراراً من تغلب القرامطة الذين أعملوا النهب والسلب في وطنه وفي هاتيك الاطراف . ونتجاوز حياة طفولته وصباه وملازمته الورّاقين وأخذه الادب عن كبار الادباء كأخذه اللغة صافية عن اعراب البادية الاقحاح ، نتجاوز هذه الناحية ، ناحية احمد الطفل الناشيء ، الى شاعر في العشرين من عمره ، يتقدّ صدره بهذه الشعلة القوية ، شعلة الشعر التي حفزته ان ينتقل من الكوفة الى بغداد الى الشام يمدح هذا وذاك ، ولا نعلم أكان يتخذ الامرآء والملوك وسيلة لقول الشعر أم كان يتخذ مدحهم وسيلة للاثرآء والمجد أم هما معاً ؟ على كل فأن تفوقه في الشعر ، وحدّة ذكاءه وكثرة مطامحه ألهبت في نفسه روحاً جديدة لعلها روح العظمة التي دفعته وهو في اللاذقية ان يعلن

نبوته وان يصطاد زعامة من زعامات الفوضى التي كان المتغلبون يتقاسمونها دونما حساب فصورت زعامته نبوة، ولكن يا لها من نبوة جرّته الى السجن عامين كاملين لم يطلق امير حمص سراحه الا بعد ان استوثق من توبته ورجوعه الى حظيرة الايمان!..

ترك المتنبي اللاذقية بعد هذه الصدمة الأليمة، وأخذ ينتقل من شواطئ البحر المتوسط الى صرود لبنان الى ارض الشام حتى هبط على سيف الدولة في حلب فرأى فيه عنصراً قوياً من عناصر العظمة فأحبه وأخلص اليه الحب وظل تسع سنوات كاملة في حماه ينعم بهباته وعطفه. ولكن الرجل الموهوب لابد ان يكثر حاسدوه ـ وشاعرنا من هذا النفر ـ فما زال منافسوه يكيدون له المكائد ويؤلبون عليه الامير حتى ترك حلب الى مصر حيث اتصل بكافور الاخشيدي ومدحه بقصائد قوية. ولكن للمتنبي رغبات وطمحات وكافور لم يحقق هذه الرغبات ولم يكن من جهة ثانية كسيف الدولة لا بسموّ نفسه ولا باعطياته ولا بكرم محتده ولا بصباحة وجهه فخابت آمال المتنبي فيه وانقلب المدح الى هجاء لاذع ثم انسل في جوف الليل الى بغداد ومنها الى الكوفة. ولكنه لم يلبث فيها كثيراً لأن المدن الصغيرة تضيق بعظماء الرجال فسافر الى بلاد فارس يمدح ابن

العميد حيناً وعضد الدولة حيناً آخر . وإذ امتلأت نفسه من الامراء والملوك وزيارة البلدان رجع الى وطنه يحمل الاموال الكثيرة والهدايا الثمينة والكتب النفيسة . وما اقترب من بغداد حتى داهمه فاتك الاسدي على رأس شرذمة من رجاله فقتلوه وكان قد أشرف على الخمسين .

* * *

هذه نبذة عن نشأة المتنبي وسيرته . ولا شك ان الانتقال من بلد الى بلد ومن وطن الى وطن في ذلكم العهد هو لون صريح من الوان المغامرة والطموح والاعتداد بالنفس . وقد عاش المتنبي عمره وهو يحمل في صدره عزم الشباب : نفس طموحة ، وروح مغامرة ، وقلب قلق وثاب ، وجنون بالمجد والتعالي والعظمة وأعان الواثق من نفسه ، وما الى ذلك من هذه الالوان التي تتلاقى ظلالها في حياة العصاميين الذين يرفعون بنفوسهم من الضعة الى قمة المجد وذروة العلاء .. هذا هو المتنبي وهذه اظهر خصائص نفسيته .

* * *

كان المتنبي حين فرض سيف الدولة امارته على حلب ، في العقد الثالث من عمره ، أي في السنة التي تتفتح فيها آمال الشباب قوية زاخرة ، وكان قد مرّ بالوان مريرة من بؤس الحياة وشظف العيش ، ذاق الفقر وذاق الهوان ، ناضل وكافح وما زال حتى انتهت به

اطماعه ومطامحه - كما قدمنا - الى غيابات السجن، ومع كل ذلك ظل باسم الثغر، ثبت الجنان، لا تهزه الاحداث، يطمح الى ما يوآئم هذه النفس التي وصفها ووصف هذه المنازع التي تضطرم في ضميره بقوله :

يقولون لي ما أنت في كل بلدة
وما تبتغي ؟ ما أبتغي جل ان يُسمى
اذا فل عزمي عن مدى خوف بعده
فأبعد شيء ممكن لم يجد عزما
واني لمن قوم كأن نفوسهم
بها انف ان تسكن اللحم والعظما

دخل ابو الطيب عاصمة الحمدانيين وبه بعض الهيبة والذعر، لأن بلاط سيف الدولة كان يعج بأكابر العلماء والادباء والشعراء من الفارابي الفيلسوف الى ابن خالويه النحوي الى ابن جني اللغوي الى ابي ذر الصنوبري الى البكتمري الى كشاجم الى ابن نباته الى ابن ابي الفياض الى ابي الفرج العجلي الى كثير من الشعراء والقضاة والفنانين .. ولكن وثوق المتنبي من نفسه، وطمعه بالمجد والشهرة، ونزعته العربية الصميمة هي التي جعلته ان يقتحم هذا الميدان وان

لا يعدّ نفسه غريباً. لقد رأي في بلاط سيف الدولة حياة تختلف عما الفه من حياته السابقة: بذخ وثراء، وأدب وفن، وفروسية ومجد ورأي في سيف الدولة رجلاً يختلف عمن خبرهم من الرجال. ورأي الى هذا نزعات قومية تضطرم اضطراماً وحياة فكرية تموج بالقوة والازدهار، هذه الظواهر مجتمعة قد فتحت امام عينيه آفاقاً جديدة نقلته من حال الى حال: من حياة القلق والضجر الى الرغد والاطمئنان. لقد سبح ابو الطيب بهذا الفيض الذي غمره به سيف الدولة حتى كاد يضيق به. ولا عجب في ذلك، ففي نفوس الشعراء هذا البرم والملل من الركود والركون الى لون واحد من الوان الحياة. والمتنبي المغامر تتنافى طبيعته وهذه الحياة الرتيبة ذات النغم الواحد. كيف البقاء في حلب والاكتفاء بهذا الافق الضيق؟ لم لا يشارك اميره لذة الظفر في حروبه وغزواته؟ وما قيمة العلم بالشيء اذا لم يعمل به؟ لقد اعده الامير لحياة الطعان والعراك منذ اتصاله به، سلمه للرواض فعلموه الفروسية والطراد والمثاقفة واصبح المتنبي الشاعر ابن الطعن والعراك، وبعد.. فالوطن يتطلب منه هذا الجهاد والعروبة تقتضيه هذا الحق. واذ اظهر هذه الرغبة الى اميره صحبه معه وكان به جد فخور، ولا حاجة للالماع الى هذه الغزوات

التي شهدها المتنبي ، وهي بعض الغزوات التي شهدهـا اميره، والتي وصفها وصف الشاعر الذي امتزج بهـا و بنيران المعارك دمه وحسه فحسبنا ان نردد ما قلناه من ان شعره في سيف الدولة ، ونريد في غزواته ومعاركه ، هو اقوى شيء ، من ناحية الوصف في ديوانه . لانه مس الواقع في الصميم وعبر عن نزعة الكفاح في نفسه ..

نعم، لا حاجة للالماع الى هذه الناحية من فن المتنبي الذي ينضج بالقوة والدقة وعمق الخيال ، فهذا الخيال المرهف الذي صهر في نيران المعارك هو الذي جعل لشعره هذا الاثر القوي في النفوس . وما خاض المتنبي معركة الا وقف مبهوتاً من شجاعة الفرسان وهول القتال فوصف الجياد ووصف السلاح ووصف وحدات الجيش ولم تفته حتى برود مياه الانهر التى عبرتها جيوش الامير وثبته على فرسه من ضفة الى ضفة وغير ذلك مما تلمس فيه اثر نفسه وحسه . وهـذه القصائد هي عندي وللذين يحبون ان يدرسوا عصر الحمدانيين اصدق من روايات المؤرخين التى يعتري اكثرها الاضطراب والتشكيك .

شهد المتنبي هذه المعارك الدامية التى كانت تخط مجداً جديداً للعرب ولم يكن كأولئك الشعراء الذين ينعمون بالترف دون ان يزجوا انفسهم في هذا المعترك . وكأن المتنبي وقـد ظمأن نزعة النضال في

نفسه وعاد يزهو على خصومه بجهاده - عاد ليشهد من جديد هذه المعارك التي كانت تثور بين الادباء والشعراء في بلاط سيف الدولة والتي كان ضرامها الدس والحقد عليه . لا لشيء الا لعبقريته ولهذه الحظوة التي خصه بها الامير فأوغر بذلك صدر الكثيرين ممن ضمهم البلاط - ولاشيء كالحسد يقرض نفوس الادباء والشعراء والفنانين - كيف يتاح لهذا الكوفي الوضيع الأصل ان ينال هذه الحظوة عند الامير؟ ولِمَ يخصه بعطفه ويغمره بعطاياه ؟ هل في شعره هذه القوة التي تجعله في طليعة من يصطحبهم في غزواته وحروبه ، وفي صيده ولهوه، وفي سمره وليالي انسه . وبدأت المؤامرات تحاك حوله وبدأوا يدسون عليه ويصورون شعره شعراً مبتذلاً ،أجمله مسروق ، لا يستحق هذا الاكبار والاجلال. وكان في طليعة هذا النفر النامي الشاعر وابن خالويه مؤدب سيف الدولة وابوفراس ابن عمه، وكان ابو فراس اكثرهم حقداً عليه. و كلمته التي خاطب بها سيف الدولة وتأليبه عليه الشعراء تدل على مدى هذا الحقد .

«ان هذا المتشدق - يريد المتنبي - كثير الادلال عليك وانت تعطيه كل سنة ثلاثة الاف دينار عن ثلاثة قصائد ويمكن ان تفرق مائتي دينار على عشرين شاعراً يأتون بما هو خير من شعره»

ولكن المتنبي لم يكن من الضعف والميوعة بحيث يهرب من اول تعريض به . فصمد لهم وكوّن حوله جماعة من محبيه وظل طيلة مدة اقامته الشاعر الفذ الذي لا يدانيه شاعر في الحظوة والرعاية.

هذه الخصومات التي بدأت بين الشعراء والادباء أدّت الى ان يكون في حلب مدرستان ادبيتان ، مدرسة قديمة ومدرسة حديثة وان يبدأ النضال قوياً بين المدرستين . وان تتباين وجهات النظر في فهم الادب والشعر ، وان يكون على رأس الفئة القديمة ابن خالويه وان يتزعم المتنبي الزمرة الثانية ، يناقش خصومه ويرد ارهاصاتهم بجرأة وفهم، وحين يفحمهم بالادلة والبراهين يلجأون الى أخس الصفات البشرية، ولا يتحرج ابن خالويه ـ هـذا الشيخ الوقور ـ ان يخرج من كمه مفتاحاً من حديد ويقذفه في وجه المتنبي فيشج رأسه ويسيل دمه . وكأن ابن خالويه قد عجز عن مقارعة الحجة بالحجة ومصارعة الفكر بالفكر فأعتمد على النزق والحمق وهذا منتهى الضعف والغيظ وانتكاس الخلق.

ولا نتوسع هنا بعرض هذه الخصومات وهي تجدد في كل عصر فلا يكاد يلمع ذكر الموهوب ويبهر ضوؤه عيونهم حتى تبدأ وخزات خصومه والعاجزين عن بلوغ مكانته بالدس والكيد .

ان هذه السنوات التي أمرّها المتنبي في حلب والتي لقي فيها المجد والغنى وهناءة العيش ولقي الى هذا الكيد والدس ، وعرف خصائص النفس البشرية على الوانها المتباينة هي التي خلقت منه هذا الشاعر الفذ الذي فرض موهبته وشعره على الاجيال فرضاً . واذا كانت البيئة هي التي تلون العبقريات باصباغها فلا شك ان بيئة حلب ، في القرن الرابع الهجري - حيث كانت الحياة الفكرية والحياة القومية تعجان بالفيض والقوة والازدهار - هي التي عملت عملها في نفسه وجعلت لشعره - في هذه الفترة من حياته - طابع الصدق والاخلاص .

لقد اكبر المتنبي في سيف الدولة الفكرة العربية والطموح والفروسية وطلب المجد ، وهي صفات تقمصت في المتنبي ، وهذا الذي وحّد بين نفسيهما وقرب بين روحيهما ووآم بين نزعاتهما ، وهذا الذي حفزنا ان نهز ذلك الاتجاه الذي يقرره مؤرخو الادب بأن خلود سيف الدولة مرده المتنبي وانه لولا ابو الطيب لكان الامير الحمداني نسياً منسياً . فالواقع ان كليهما عظيم وان أثر سيف الدولة في تكوين عبقريته لا يمكن انكاره ، واذا اردنا أن لا نغمط المتنبي قلنا ان كل واحد كان متمماً لخلود الثاني وفي هذا انصاف الادب وانصاف التاريخ معاً .

ابو فراس الحمداني

٣٢٠ - ٣٥٧ هـ

« لما أدركت أبا فراس حرفة الادب، واصابته عين الكمال أسرته الروم في بعض وقائعها ، وهو جريح وقد اصابه سهم بقي نصله في فخذه ، وحصل مثخناً بخرشنة ، ثم بقسطنطينية وتطاولت مدته بها لتعذر المفاداه ، وقد قيل : على كل نجح رقيب من الآفات ، وكانت تصدر اشعاره في الاسر ، والمرض ، واستزاده سيف الدولة ، وفرط الحنين الى اهله واخوانه واحبابه ، والتبرم بحاله ومكانه ، عن صدر حرج وقلب شجي ، فتزداد رقة ولطافة، وتبكي سامعها ، وتعلق بالحفظ من سلاستها »

« الثعالبي »

ابو فراس الحمداني ابن عم سيف الدولة وأحد قواده وولاته . شاعر وجداني ، قوي العاطفة ، زاخر الاحساس ، فياض الشعور خاض غمرات القتال وذاد عن حمى الوطن بحماس وايمان . ووهب

نفسه للمجد وللمكرمات وهو القائل :

فلا تصفن الحرب عندي فانها طعامي مذ بعت الصبا وشرابي

وقد عرفت وقع المسامير مهجتي وشقق عن زرق النصول إهابي

ولججت في حلو الزمان ومره وانفقت من عمري بغير حساب

وقع أسيراً بيد البيزنطيين فكتب في الأسر اجمل قصائده وأرق الآيات الزاخرة بالالم واللوعة وبالشوق والحنين

وسنلم في هذا الفصل المامة موجزة بسيرته لالتصاق حياته بحياة ابن عمه

مولده ونشأته

نشأ ابو فراس في خضم الزعازع العصيبة التي نشأ فيها سيف الدولة ولا نعود الى وصف صورة العصر الذي عاش فيه ابو فراس فقد كشفنا عن هذه الصور في الحديث عن سيف الدولة . اذن ، فلنحصر حديثنا عن ابي فراس الشاعر القائد ، ولنصف جوانب من حياته ولنبدأ بمولده ونشأته .. فتى ولد وأين نشأ ؟

في الواقع ، اننا لانعلم شيئاً عن نشأة ابي فراس غير انه ولد في منبج سنة ٣٢٠هـ وانه فقد اباه طفلاً وربي يتيماً تحت اكناف والدته وفي ظلال رعايتها . وكذلك لانعلم شيئاً عن ادوار طفولته ولا عن

الذين لقنوه فن الرمي والفروسية وهو في فجر شبابه - وهما من مفاخر العرب آنئذ بل وعند الكثير من القبائل العربية حتى يومنا هذا ؛ لسنا نعلم من ذلك شيئاً لان القصاص والرواة بخلوا علينا بالكثير من حوادثه فكان حظه، من هذه الناحية، غير موفور بالنسبة الى غيره من انداده المعاصرين ومَنْ هم دونه في الحسب والادب. لذلك فسنحاول «الافتراض» احياناً والرجوع الى نصوص التاريخ احياناً أخرى في حديثنا عن نشأته التي لاتختلف عن نشأة غيره من اولاد الامراء الذين ينشأون في حجر النعيم والرفاه وبين عظمة الملك وعز السلطان وعلى هذا فلننتقل الى منبج الى موطنه الذي تغنى بمحاسنه كثيراً، ولنقف وقفة عند «اكناف المصلى» و «الجوسق الميمون». ولنسمع خرير مياه النهر وحفيف اوراق الاشجار، ولنستمل محاسن تلك الحدائق الزاهرة والجنائن الغناء التي يخيم ظلال اشجارها الربوع والتي يصفها بقوله.

تلك المنازل والملا — عب لا اراها الله محلا

حيث التفت وجدت ماء — سابحاً ووجدت ظلا

وتحل بالجسر الجنا — ن وتسكن الحصن المعلى

تجلو عرائسه لنا — هرج الذباب اذا تجلى

واذا نزلنا بالشوا جير اجتنينا العيش سهلا
والماء يفصل بين رو ض الزهر في السطين فصلا

لنذكر هذه المنازل، وهذه المغاني التي كان يرتادها مع صحبه يسمعون غناء القيان ويطربون طرباً بريئاً ملء النفوس، ولنتخيله على الجسر وقد اتكأ على بساط سندسي يحدث خلانه بما ينطوي عليه فؤاده اليقظ من ذكريات الحب تارة وذكريات المجد تارة أخرى ويستوضح شيوخه حوادث الماضي وعبر الايام، ويعرض عليهم بواكير قصائده التي اخذ يقرضها، تلك القصائد التي كان ينزع فيها نزعة مَنْ يرى نفسه رب البيت وسيد الدار مفاخراً بما لقومه من سمة المجد وعز السيادة؛ لنذكر كل ذلك، ولنمر بعهد طفولته الى عهد شبابه؛ ولنذكر انتقاله الى حلب؛ واتصاله بابن عمه سيف الدولة الذي كان معجباً به اعجاباً دفعه الى تفضيله على سائر بني عمومته من قومه، هذا التفضيل الذي استحال الى اصطناعه لنفسه واصطحابه في غزواته وما زال به يقدمه حتى استخلفه على عماله؛ لنذكر هذا الشاب الرزين الطامح الى ذروة الملك والذي استطاع وهو في بلهنية الصبا ان يقود جيوش سيف الدولة في الحرب وان يرأس كتابه في السلم. والذي تكللت هامته بأكاليل الظفر في كثير من الوقائع

تحبته القلوب حبها، وانطلقت الالسن تذكره بالحمد والثناء وتعجب ايما اعجاب بشجاعته، ثم لنتذكر نشوات الظفر التي كانت تهز جوانب فؤاده الطروب فينطلق لسانه بقول الشعر في وصف المعارك والميادين التي خاضها بقلب ثابت قوي، لنذكر كل ذلك ولنتخذ من هذه الذكرى صورة بارزة عن هذه الشخصية المذبة، ثم لنبحث عن رأي القدماء فيه. وعن رأي معاصريه بصورة خاصة، ولنسجل رأي ابي منصور الثعالبي وهو خاتمة المترسلين في العصر العباسي واكثر الادباء آثاراً واغزرهم مادة، ورأيه في ابي فراس انه «كان فريد دهره، وشمس عصره ادباً وفضلا وكرماً ومجداً وبلاغة وبراعة وفروسية وشجاعة» ولنسجل الى جانب هذا رأي الصاحب بن عباد الذي ازدهر الادب في عهد بني بويه بفضله والذي سأل عن رأيه بأبي فراس، فقال: بدأ الشعر بملك وختم بملك: يعني امرأ القيس وابا فراس، لنذكر هاتين الروايتين. ولنضرب عرض الحائط بما يرويه الرواة عن المتنبي الذي كان يشهد لابي فراس بالتقدم والتبريز، والذي كان - كما قيل - يتحامى جانبه فلا ينبري لمباراته، ولا يجترئ على مجاراته، وانه لم يمدحه ومدح من دونه من آل حمدان تهيباً له واجلالا، لا أغفالا ولا اخلالا؟!. لنضرب بهذه

الرواية التي تروى عن المتنبي عرض الحائط . ذلك لأننا نعلم كثيراً
عن الجفاوة التي كان يلقاها المتنبي من سيف الدولة في بدء اتصاله
ونعلم ان هذه الجفاوة كانت تثير حفيظة ابي فراس ، وان التنافس كان
على اشده بين الشاعرين ، نعم ، لنهمل هذه الرواية ولنعد الى رواية
الثعالبي والى رواية الصاحب بن عباد وكلاهما سيد من اسياد البيان
وأمير من امرائه المبرزين ، ولنقبل حكمهما مع قليل من الاحتياط
أي لنأخذ من وصف الثعالبي تدليله سمات الكرم والفروسية والمجد
لأنه يعرف منها ما لا نعرفه نحن لقرب عهده به، ولنحكم على شعره
غير مؤثرين بتلك الاقوال التي اضافها الى رأيه بأن شعره «سائر بين
الحسن والجودة والسهولة والجزالة والعذوبة والفخامة والحلاوة
ومعه رواء الطبع وسمة الظرف وعزة الملك» لنترك هذا الوصف
المماسك الاجزاء ولنتلمس شعره بذوقنا الادبي ليكون حكمنا قريباً
من الحقيقة غير بعيد عن الواقع .

ويجمل بنا الآن قبل ان نعرض الى شعره ان ندوّن كلمة عن أسره
وعن حمله الى بلاد الروم والى «القسطنطنية» لما لذلك من الأثر
البين في شعره الذي رق وجزل واصطبغ بصبغة عليها مسحة من
الروعة والجمال بعد ان اكتحلت عيناه بمرأى الروميات

أسره

يروي ثقاة المؤرخين وغيرهم ممن عرضوا الى وقائع الدولة الحمدانية والى غزوات سيف الدولة بصورة خاصة - ان ابا فراس وقع اسيراً في ايدي الروم في سنة ثمان واربعين وثلاثمائة ٣٤٨ هـ، وان سيف الدولة فداه في سنة خمس وخمسين !؟ وفي رواية انه أسر مرتين.

الاولى: «بمغارة الكحل» سنة ثمان واربعين وثلاثمائة وان الروم لم يتعدوا به «خرشنة» وهي قلعة ببلاد الروم.

والثانية: «بمنبج» في شوال سنة أحدى وخمسين وان الروم حملوه الى «القسطنطينية» فاقام في الاسر اربع سنين

وفي ترديد الروايتين على علاتهما ما يدفعنا الى الشك بهما، لاننا اذا قبلنا ان ابا فراس بقي في الاسر اربع سنوات - وهذا هو المتداول بين المؤرخين - رغم هذا البيت الوارد في سياق قصيدته التي ارسلها من الاسر والذي يبين انه بقي عامين لا اربع حيث يقول:

أقمت بأرض الروم عامين لا أرى   من الناس محزوناً ولا متصنعاً

بالرغم من ذلك. فنحن مضطرون الى ان نعتبر ان مدة أسره لا تزال غامضة لم يكشف عنها المؤرخون وان كلامهم لا يتعدى الافتراض. وقد اوضح «بروكلمن» في البحث الذي كتبه لدائرة

المعارف الاسلامية عن ابي فراس ان الرومان أسروه سنة ٣٤٨ هـ ـ ٩٥٩ م . وحملوه الى «خرشنة» بالقرب من الفرات وانه تمكن من الهرب ـ كما روي ـ بوثبة خطيرة !؟ ثم قبض عليه سنة ٣٥١ هـ ـ ٩٦٢ م وقادوه الى الاستانة حيث ظل مسجونا فيها اربع سنوات .

وبذلك نلتقي مع المؤرخين الذين ذكروا انه بقي في الاسر اربع سنوات ؛ والا فتكون مدة بقائه سبع سنوات وهذا ما لم يجر به قلم مؤرخ .

ويظهر لنا من تشدد القوم بعدم فك أساره انه كان من القواد المخيفين الذين عرفوا ان يضربوا جيوش الروم ضربات قاضية ، وهذا الذي جعلهم مع اكرامهم له ، وتقديرهم لبطولته ـ وهذا نوع من المجاملات السياسية ـ ان يحتفظوا به كأعظم رهينة يحتفظ بها عدو من عدوه !

وما زال في الأسر يشكو آلام الغربة ولوعة النوى حتى تنوظر في الهدنة وفداه سيف الدولة فعاد الى وطنه وهو أمضى عزيمة وأثبت جنانا ، وأوفر قوة واكثر تحدثا عن نفسه وعن قومه منه قبل أسره وقد كتب في الاسر أجمل قصائده وارقها وعرفت هذه القصائد بالروميات ، وهي وان اختلفت اغراضها ومراميها الا انها ذات نغم حزين

واحد سواء هذه التي بعثها الى سيف الدولة او الى اصدقائه أو الى امه او التي ناجى فيها نفسه في وحدته وغربته وهي مزيج من الحنين والنجوى ومن الفخر والعتاب والشكوى. وسنشير الى هذه القصائد في حديثنا عن شعره وحسبنا هنا ان نقف وقفة قصيرة عند قصيدتين من قصائد العتاب التي وجهها الى سيف الدولة حين احس منه فتوراً في تفديته ففي هاتين القصيدتين يصف غربته أدق وصف وكأنما هذا الاسر قد ايقظ في نفسه هذا التشاد الذي كان بين ابيه وبين عمه على الملك فكتب اليه حين طال به الاسر وكاد يقنط من اهتمام سيف الدولة بافتدائه يقول :

«مفاداتي ان تعذرت عليك ، فأذن لي في مكاتبة اهل خراسان ومراسلتهم ليفادوني ، وينوبوا عنك في امري» . فأجابه سيف الدولة بكلام خشن وقال له : «ومن يعرفك بخراسان» فكتب اليه ابو فراس هذه القصيدة التي يكشف فيها عن نوازع نفسه قال :

أسيف الهدى ، وقريع العرب ، ... الام الجفاء ؟ وفيم الغضب ؟
وما بال كتبك قد اصبحت ... تنكبني مع هذي النكب
وانت الكريم ، وانت الحليم ، ... وانت العطوف ، وانت الحرب[1]

---

(١) الحرب : الشجاع

وما زلت تسعفني بالجميل ، وتنزلني بالمكان الخصب
وتدفع عن عاتقي الخطوب وتكشف عن ناظري الكرب

وما غص مني هذا الاسار ، ولكن خلصت خلوص الذهب
ففيم يقرعنى بالخمول مولى به نلت أعلى الرتب (١)
وكان عتيداً لدي الجواب ، ولكن ، لهيبته ، لم أجب (٢)

فلا تنسبن الي الخمول ، عليك اقمت ، فلم اغترب
وأصبحت منك فان كان فضل وان كان نقص ، فانت السبب
وان خراسان إن انكرت علاي ، فقد عرفتها حلب
ومن اين ينكرني الابعدون أمن نقص جد أمن نقص اب ؟
ألست واياك من أسرة ؟ وبيني وبينك فوق النسب :
وداد تناسب فيه الكرام ، وتربية ، ومحل أشب (٣)
ونفس تكبر الا عليك ، وترغب ، إلاك ، عمن رغب
فلا تعدلن ، فداك ابن عم ك ، لا بل غلامك ، عما يجب!
وانصف فتاك ! فانصافه من الفضل والشرف المكتسب

---

(٢) مولى : اي سيف الدولة
(٣) عتيداً : مهيئاً
(٤) اشب : محكم ، ملتف

وكنت الحبيب، وكنت الغريب

ليالي ادعوك من عن كثب

فلما بعدت، بدت جفوة، ولاح، من الامر، مالا احب

فلو لم اكن بك ذا خبرة لقلت: «صديقك من لم يغب»

لقد عز على سيف الدولة ان يطلب ابو فراس الاذن بمكاتبة اهل خراسان لتفديته. وهذا الذي دعاه ان يجيبه بهذه اللهجة القاسية المريرة التي نبهت الشاعر الى هفوته فكتب هذه القصيدة التي التوت فيها المقاصد والنزعات من استعطاف الى تفاخر الى اعتذار الى شكوى الى رجاء! وانا لنتساءل هل اهمل سيف الدولة ابن عمه ولم يعمل على تخليصه؟ هل نسيه وهو من اعظم قواده في الحرب؟ لا نظن.. ومن يدري؟ فقد تكون مشاغل سيف الدولة في دفع الخطر عن ارض الوطن هي التي اقعدته عن تخليص ابن عمه. لاننا رأينا في الفصول السابقة انه لم يترك وسيلة الا بذلها في سبيل جنوده وقواده وبديهي ان يهتم بابن عمه اكثر. ولكن طبيعة الشعراء هي البرم بكل شيء، وقد ضاق ابو فراس بالاسر واشتاقته المعارك والرجوع الى ميادين القتال كما شاقه اكثر فراق امه التي قضت ايامها موصولة الانين، قد قرحت الدموع جفنيها فكان نشيجها يصل الى سمعه

فيثيره رغم بعد الدار . وهناك ، على ضفاف البوسفور كان يكتب القصيدة تلو القصيدة وكان من جراء ذلك ان ظفر الشعر العربي من وراء هذا الاسر بمقطوعات عاطفية سامية ، وظفر بقصيدة من اجمل قصائد اللوعة والحنين واريد بها قصيدته «اراك عصي الدمع شيمتك الصبر» فهي من السمو وصدق العاطفة وتصوير منازع الافئدة والشكوى بمكان عظيم .

ولا نريدان نسترسل في الالماع الى «رومياته» فلنكتف بما قدمناه ولنثبت هذه القصيدة التي ارسلها زفرة من الزفرات الحرى حين بلغه ان والدته قصدت سيف الدولة، من منبج ، تكلمه في المفاداة، وتضرع اليه ولكنها لم تلق عنده مارجت من حسن الايجاب ، ووافق ذلك عنفاً من الدمستق بأبي فراس ومن معه من الاسرى، وزيادة في ارهاقهم فكتب الى سيف الدولة هذه القصيدة التي يشيع في كل مقطع من مقاطعها ثورة من الحزن والألم . قال :

يا حسرةً ما أكاد أحملها ! آخرها مزعج واولها !
عليلة بالشام ، مفردة ، بات بايدي العدى معللها(1)
تمسك احشاءها على حرقٍ تطفئها ، والهموم تشعلها

---

(1) العليلة هي امه والمعلل ، اي المعزي والمسلي والمقصود هو .

اذا اطمأنت ـ واين ؟ ـ او هدأت عنت لها ذكرى تقلقلها !
تسأل عنا الركبان ، جاهدةً يا دمع ما تكاد تمهلها :
«يامن رأى لي بحصن خرشنة أسد شرى ، في القيود أرجلها !
يامن رأى لي الدرب شامخة ، دون لقاء الحبيب أطولها !
يامن رأى لي القيود موثقة ، على حبيب الفؤاد أثقلها»
يا ايها الركبان ، هل لكما في حمل نجوى ، يخف محملها !
قولا لها ، ان وعت كلامكما وان ذكري لها ليذهلها :
«يا امتا ! هذه منازلنا ، نتركها ، تارةً ، وننزلها !
«يا أمتا ، هذه مواردنا ، نعلها ، تارة ، وننهلها
اسلمنا قومنا الى نوب ، ايسرها في القلوب اقتلها
واستبدلوا ، بعدنا رجال وغى ودون أدنى علاي امثلها»
يا سيداً لا تعد مكرمة الا ، وفي راحتيه ، اكملها(١)
ليست تنال القيود من قدمي وفي اتباعي رضاك ، احملها
انت سماء ، ونحن انجمها ! انت بلاد ، ونحن اجبلها !
انت سحاب ، ونحن وابله ! انت يمين ، ونحن انملها

---

(١) ياسيداً : يخاطب سيف الدولة .

بأي عذر ، رددت والهة ، عليك ، دون الورى معولها(١)

جاءتك تمتاح رد واحدها ، ينتظر الناس كيف تقفلها !

سمحت مني بمهجة كرمت ، انت ، على يأسها ، مؤملها

ان كنت لم تبذل الفداء لها فلم أزل في رضاك ، ابذلها !

تلك المودات كيف تهملها ؟ تلك المواعيد كيف تغفلها ؟

تلك العقود التي عقدت لنا كيف ، وقد احكمت تحللها

أرحامنا ، منك ، لمْ تقطعها ؟ ولم نزل دائماً نوصلها !

أين المعالي التي عرفت بها تقولها دائماً وتفعلها ؟

ياواسع الدار، كيف توسعها، ونحن في صخرة نزلزلها ؟

يا ناعم الثوب كيف تبدله ثيابنا الصوف ما نبدلها !

ياراكب الخيل لو بصرت بنا نحمل اقيادنا وننقلها

رأيت في الضر أوجها كرمت فارق فيها الجمال اجملها !

قد أثر الدهر في محاسنها ، تعرفها ، تارة ، وتجهلها !

****

لايفتح الناس باب مكرمة صاحبها المستغاث يقفلها

---

(١) معولها : اتكالها . يعاتب سيف الدولة على رد أم الاسير التي لااتكال لها في الورى الا على سيف الدولة

أينبري ، دونك ، الانام لها ، وانت قمقامها ومعقلها(١)
وانت ، ان عنّ حادث جلل ، قلبها المرتجى وحوّلها (٢)
منك تردى بالفضل افضلها ! منك افاد النوال انولها
فان سألنا سواك عارفة ، فبعد قطع الرجاء ، نسألها
لم تبق في الارض امة عرفت الا وفضل الامير يشملها
نحن أحق الورى برأفته ! فأين عنا ، وكيف ، معدلها
يا منفق المال ، لا يريد به الا المعالي التي يؤثلها
اصبحت تشري مكارماً فضلاً فداؤنا ، قد علمت افضلها؟
لا يقبل الله ، قبل فرضك ذا ، نافلة عنده تنفلها (٣)

شعره

ونستطيع الآن ، وبعد ان ألممنا الماعاً الى صورتين من تاريخ حياته المليئة بعناصر القوة والشباب ان نعرض الى شعره الذي اصطبغ بالوان الحضارة فاصبحت عليه مسحة زاهية من العواطف الجياشة ومن الأماني الزاخرة بمعاني الحياة بعد ان أسر وبعد ان شرده النوى ؛

(١) القمقام : السيد . المعقل : الملجأ .
(٢) قلبها ...: رجل قلب حول : بصير بتقليب الامور ، حكيم .
(٣) النافلة : مايفعل من الخير فوق الواجب . المعنى : ان الله لايقبل منك فضائل قبل ان تتم الواجب هو فداء ابي فراس .

وبديهي ان نلمس هذه المسحة الرقيقة المذبة في شعر ابي فراس بعد ان صهرت الالآم نفسه واكتحلت عيناه بمرأى بلاد الروم الساحرة وبمرأى الروميات بصورة خاصة نعم؛ بديهي ذلك لان الحزن والاسى وألم الوحدة وغصة الاغتراب ، ضف الى هذا ذكرى الوطن وما كان له فيه من صولة ومجد ومن ذكريات وخواطر ، كل ذلك مما يصهر «الشاعرية» في أتون الابداع والجزالة ، ويجعل الشعر ـ بحكم هذه العوامل ـ صورة من صور النفس المتباينة الالوان ، وزفرة من زفرات القلب ، وحرقة من حرقات الافئدة المكلومة . ولا شك ـ ولم يكن كسائر الأسرى بل كان موفور الكرامة ، ممتازاً على غيره من الصفات والامور ومحافظاً على سربال الامارة ـ لاشك ان جمال الروميات واختلاطه بالقياصرة ، ورؤيته آثار العمران ومطارف النعيم ؛ وما الى ذلك مما هو اقرب الى الحضارة منه الى البداوة ـ كان من الوسائل التي أنضجت شاعريته الخصبة بمعاني الوحي والالهام .

ومع تسليمنا بأن هذه الظواهر الحسية كان لها اكبر أثر في شاعريته ، فلسنا ننكرها عليه قبل أسره ـ وشعره قبل أسره ـ هو صورة من صور البداوة القريبة من نعيم الحضارة التي انتقلت الى حلب

من دمشق ومن بغداد بصورة خاصة! وعلى هذا فنستطيع ان نقول ان شعره بدوي قبل الاسر، حضري بعده، واذا اردنا التوسع قلنا ان على شعره الغرامي مسحة من روح البداوة الصافية ومن رقة الحضارة الزاهية اي انه كان مزيجاً من لونين: من روعة البداوة ومن رقة الحضارة وكان فوق ذلك - ذا صور متشابهة لأن ذكريات الوطن ومن فيه من أهل فقد عشرتهم، وصحب فقد الأئتناس بحديثهم، ثم ما يكتنف الأسر من شقاء وآلام - كل ذلك مما اثار عوامل الوجد في فؤاده فبكي بكاءً حزيناً صادقاً ليس كبكاء بعض الشعراء الندابين. ولا أدل على صدق بكائه وحنينه من هذه المقطوعة التي ناجى وحدته بعد ان سمع - في يوم من الايام - حمامة تنوح على شجر بالقرب من سجنه، فاشجاه الصوت وذكر كل شيء يخفق به قلبه وما هي هنيهة حتى أنشد:

أقول وقد ناحت بقربي حمامة ... أيا جارتا لو تشعرين بحالي!

معاذ الهوى ما ذقت طارقة النوى ... ولا خطرت منك الهموم ببال

ايا جارتا ما أنصف الدهر بيننا ... تعالي أقاسمك الهموم تعالي

تعالي تري روحاً لدي ضعيفة ... تردد في جسم يعذب بالي

أيحمل محزون الفؤاد قوادم ... على غصن نائي المسافة عالي؟

أيضحك مأسور وتبكي طليقة ويسكت محزون ويندب سالي؟
لقد كنت اولى منك بالدمع مقلة ولكن دمعي في الحوادث غالي

بمثل هذه الدموع السخينة كان يبكي ابوفراس : وهي دموع حرى ترينا صدق العاطفة التي تختلج في صدر هذا الشاعر الامير الشاب الذي كانت تحرك فؤاده تجاوب الرياح وابتسام البدر ونوح الحمام وسكون الليل وكل عامل من تلك العوامل الطبيعية التي تفيض على الحياة .

ولقد لاحظنا ان قصائده الى أمه كانت غيرها الى سيف الدولة .

كان يستعطف سيف الدولة استعطافاً ويذكره بحقوق الرحم وبما بينهما من العهود ، ولكن قصائده الى امه كانت تفيض بما بنفسه من الالام ؛ وما في اعماق قلبه من الحرقة والجراحات . كان يذكر لها وحدته وغدر الدهر به وجفوة الصحب والخلان ؛ وميلهم مع النعماء حيث تميل ، يذكر لها هذا ولا يلبث ان يرشق الدهر بسهامه ويراه من اكبر الاعداء وغير ذلك مما تشعر به النفس في مثل هذا الموقف .

كتب الى امه يوماً ـ وقد ثقل من الجراح التي نالته ويئس من نفسه ـ يعزيها ويخفف من لوعتها بقوله :

مصابي جليل ، والعزاء جليل وظني بأن الله سوف يزيل

جراح تحاماها الاساة مخافة وسقمان : باد منهما ودخيل

وأسر أقاسيه ، وليل نجومه أرى كل شيء غيرهن يزول

تطول بي الساعات وهي قصيرة وفي كل دهر لا يسرك طول

تناساني الاصحاب الا عصبية ستلحق بالاخرى غداً وتحول

ومنها

أقلب طرفي لا أرى غير صاحب يميل مع النعماء حيث تميل

أكل خليل أنكد غير منصف وكل زمان بالكرام بخيل ؟

نعم ، دعت الدنيا الى الغدر دعوة أجاب اليها عالم وجهول

فيا حسرتي من لي بخل موافق أقول بشجوي تارة ويقول

ثم يناجي نفسه مخاطباً امه بقوله :

وان وراء الستر أماً بكاؤها علي : وان طال الزمان طويل

تأسي كفاك الله - ماتحذرينه فقد غال هذا الدهر بعدك غول

وقصائده الى أمه العجوز ، قصيدة منبج ، كثيرة اجتزأنا منها بالقدر الذي قدمناه ، ويحدثنا «بروكلمن» ان العالم الالماني «آلفرات» ترجم احدى هذه القصائد الى الالمانية وقد اثبتها في الصحيفة ٤٤ من كتابه «عن الشعر العربي» ..

****

ولننظر نظرة على الى قصائده التي ارسلها الى سيف الدولة والى اصحابه ، فهي وان كانت لا تعطينا صورة من تلك النفسية المتألمة الصادقة التي نراها في قصائده الى امه الا اننا نلمس الى جانب آلامه البادية صورة ند يخاطب نداً ؛ ونراه يذكر نفسه مقرونة الى اعماله وجهاده الخالد ؛ ونراه يهمس في اذن سيف الدولة همسات فيها من التقريع والتأنيب مالا حد له ؛ يذكره بذلك وبمواقفه العصبية التي كان يلقى فيها كل الف رومي بسبعين فارساً من كماة العرب ؛ثم نلمس نزوات الألم واللوعة تدفعه الى مخاطبة ابن عمه بقصيدة طويلة نأخذ منها هذه الابيات :

فلا كان كلب الروم ارأف منكم ... وأرغب في كسب الثناء المخلد

ولا بلغ الاعداء ان يتناهضوا ... وتقعد عن هذا العلاء المشيد

أأضحوا على أسرائهم لي عوداً ... وانتم على أسراكم غير عود

متى تخلف الايام مثلي لكم فتى ... طويل نجاد السيف رحب المقلد

متى تخلف الايام مثلي لكم فتى ... شديداً على البأساء غير ملهد(١)

فأن تفتدوني تفتدوا لعلاكم ... فتى غير مردود اللسان ولا اليد

---

(١) غير ملهد لا ذليل ولا ضعيف

يطاعن عن احسابكم بلسانه ويضرب عنكم بالحسام المهند

وقد أرسل هذه القصيدة على أثر رجوع الروم اليه وهو في الاسر لفك أسراهم بينما تقاعس سيف الدولة بل لم تطاوعه عزة نفسه واباؤه ان يرجع اليهم بهذا الامر !؟

ويظهر ان الوشاة لعبوا دورهم طيلة غيابه - شأنهم في كل زمن - فكانوا يوترون سيف الدولة على ابي فراس الذي وقف شبابه وما يملك من قوة وجهد على تدعيم ملكه ؛ وتظهرنا قصائده من الأسر ان لسان سيف الدولة قد زلق غير مرة بكلمات وصلت الى مسامع ابن عمه من خدّص اصدقائه فكتب اليه قصيدة طويلة لا تقل في الوخزات عن سابقتها ؛ نجتزئ منها الابيات الآتية :

وهبت شبابي ، والشباب مضنة لأبلج من ابناء عمي أروعا
أبيت معنى من مخافة عتبه واصبح محزوناً وأمسي مروعا

ومنها :

تطلبت بين الهجر والعتب فرجة وحاولت امراً لا يرام ممنعاً
وصرت اذا ما رمت في الخير لذة تتبعتها بين الهموم تتبعاً
اما ليلة تمضي ولا بعض ليلة أسر بها هذا الفؤاد الموجعا
اما صاحب فرد يدوم وفاؤه فيصفي لمن أصفى ويرعي لمن رعى

وفي كل دار لي صديق أوده　　اذا ما تفرقنا حفظت وضيعا
اذا خفت من اخوالي الروم خطة　　تخوفت من اعمامي العرب اربعا
وان اوجعتني من اعادي شيمة　　لقيت من الاحباب أدمى واوجعا
تنكر سيف الدولة.. لما عتبته　　وعرض بي تحت الكلام وقرعا
فقولا له يا صادق الود انني　　جعلتك مما رابني الدهر مفزعا

ومنها:

ولا تقبلن القول من كل قائل
سأرضيك مرأى لست ارضيك مسمعا

وكتب الى القاضي أبي حصين بن عبد الملك ـ وكانت بينهما مودة أكيدة ـ قصيدة طويلة جاء منها قوله:

هل انت مبلغه عني بأن له　　وداً تمكن في قلبي يجايره
واني من صفت منه سرائره　　وصح باطنه منه وظاهره
وما أخوك الذي يدنو به نسب　　لكن أخوك الذي تصفو ضمائره

ومثل هذه النبرات كثيرة، لو شئنا ان نأتي منها لضاق بنا المجال ولملأنا عدة صفحات.

مصرعه ووفاته

رجع ابو فراس من الاسر وهو اوفر نشاطاً واقوى عزيمة،

واكثر آمالا واثبت جنانا منه قبل أسره ، رجع ونفسه جياشة بمطامع
المجد ولكن رزانته كانت تمسك به عن الاندفاع في مجاهل الخطر
كان يترقب الفرص وما زال حتى توفي ابن عمه سيف الدولة في عام
٣٥٦ هـ أي بعد رجوعه من الاسر بعام واحد ، فنهض بعد مماته نهضة
مليئة بعزيمة الشباب يريد التغلب على حمص وادخالها تحت حوزته ،
وحمص وقتئذ في يد ابي المعالي بن سيف الدولة ، وما كادت تبدو منه
هذه الرغبة التي تجلى في الانتقام لنفسه من نكد الايام ولابيه سعيد من
ابن عمه ناصر الدولة ، هذه الرغبة التي دفعت به الى حيث بريق الملك
وصولجان الامارة - حتى أحسها ابا المعالي فأنفذ اليه من اتباعه من
قاتله ومازال حتى تغلب عليه وقتله . وقد اختلفت الروايات في قتله ،
فمنها ان ابا المعالي ارسل غلام ابيه «قرعويه» فقتله وضربه ضربات أليمة
حتى مات في الطريق ، ومنها ان ابا فراس قتل في قرية تعرف «بصدد»
وفي تاريخ ثابت ابن سنان الصابي ان حرباً جرت بين ابي فراس
وكان مقيماً في حمص وبين ابي المعالي الذي استظهر عليه فقتله في الحرب
واخذ رأسه وبقيت جثته مطروحة في البرية الى ان جاءه بعض
الاعراب فكفنه ودفنه . وفي رواية غير التي قدمناها ان «قرعويه»
لما قتل ابا فراس لم يعلم به ابو المعالي وانه لما بلغه الخبر شق عليه ، وفي

ديوانه الذي اعتمدناعليه في كثير من الحوادث ان ابا فراس ضرب في هذه الحادثة ضربات فمات في الطريق وانه انشد قبل موته الابيات الآتية .

اذا لم يعنك الله فيما تريده — فليس لمخلوق اليه سبيل

وإن هو لم ينصرك لم تلق ناصراً — وان عز انصار وجل قبيل

وإن هو لم يرشدك في كل مسلك — ضللت ولو ان السماك دليل

وأنشد ايضاً :

اراني وقومي فرقتنا مذاهب — وان جمعتنا في الاصول المناسب

واعظم اعداء الرجال ثقاتها — وأهون من عاديته من تحارب

والقصيدة لا تزيد على السبعة ابيات وهي آخر ما قاله من الشعر في رواية ابي عبدالله الحسين بن محمد بن خالويه .

ونضيف الى ما قدمنا رواية لا نذكر اين عثرنا عليها وهي انه قد اثقل ـ بعد المعركة ـ بالجراح وما زال يشكو حتى حضرته الوفاة في عام ٣٥٧ هـ وانه كان يخاطب ابنته بهذه الابيات :

ابنيتي لا تجزعي — كل الانام الى ذهاب

نوحي علي بحسرة — من خلف سترك والحجاب

زين الشباب ابو فرا — س لم يمتع بالشباب

واذا كان الشعر هو اصدق خالجة من خوالج النفس فتكون هذه الرواية هي اقرب الى الحقيقة من كل ما قدمناه . أي انه رجع الى بيته بعد صراع طويل قام بينه وبين قرعويه .

وقد وقع نعيه كالصاعقة على صحبه وذويه وعلى أمه العجوز «سخينه» فارتمت مذهولة تبكي شبابه الغض بدموع حرى وبقلب دام ونفس ملوعة وما زالت في ثورة من الذهول وفي بحر من الدموع تلطم خدها وتنوح نوح الخنساء على صخر حتى امتدت يدها بدون وعيها - كما رووا - الى عينها فقلعت !؟

وهكذا ، قضى ابوفراس وهو لدن العود ، غض الأهاب ، لم يتمتع بشبابه الداوي فكان مصرعه شاقاً على صحبه وخلانه ، ولم يترك من تراث المجد غير ذكرى البطولة الخالده التي تزين مفرقه وديوان شعر يضم قصائده التي ينشدها محبو الادب بلذة واعجاب ، هذه القصائد المختلفة في الفخر والغزل والاستعطاف وغير ذلك مما جادت به قريحته الوقادة وقلبه الزاخر بحب المجد والحياة .

- ٢ -

... لا اقرأ قطعة من شعر ابي فراس الا وتمثل امامي شاب من فرسان العرب الاشداء فيه كل صفات الرجولة والفروسية : شعر فاحم قد انسدلت ضفائره على كتفيه ، ووجه مستدير يفيض بدم الشباب وعينان سوداوان يشع منهما النور وينبعث عنهما الذكاء . يتمثل لي في هذه الصورة الحلوة العذبة وقد تمنطق خنجراً من خناجر الروم وامتطى جواداً من كرام الاصائل ، وبيده رمح يعلو به على الارض في سيره وخببه . نعم ، أتمثله بهذه الصورة الجذابة وقد طبعته الصحراء بشمسها اللاذعة ورمالها الغبراء وفتحت امام ناظريه مناحي المجد

والمغامرة فشغف بها وامتلأ قلبه بحب المفاخر وكأنما فطمت نفسه على المكرمات فكانت حياته رخيصة بين كفيه يلاعبها كما يلاعب الطفل اكرته في سبيل عبثه ولهوه .

ألمح هذا من سجوف القرون السحيقة ولا أخالني الا صادق النظرة فيما ألمحه لحياة ابي فراس مليئة بصفحات الفروسية والمغامرة وهو بهما جدّ فخور . ولعل احب شيء الى نفسه والى سمعك حين يغنيك نغمة من تلك النغمات التي توحيها اليه معركة من المعارك الدامية ـ هذه المعارك التي سجل فيها اكثر هذه الوقائع والتي كان الحرب فيها سجالا بين العرب والروم في هذه الديار وفي نواحيها الشمالية . وهو فياض الشعور حين يصف لك أسره بشعر رقيق يستنزل الدموع الحرى من مآقيك ويهز منك شعبات القلب لوعة وأسى . وهو عذب اليك ، محبب الى نفسك حين يرسم لك إباءه في الحب وحين يخاطب نفسه وقلبه وعفته بقوله :

فيانفس مالاقيت من لاعج الهوى ويا قلب ما جرّت عليك النواظر
ويا عفتي ما لي وما لك كلما هممت بأمر هم لي منك زاجر
كأن الحجى والصون والعقل والتقى لديّ ، وربات الحجال ضرائر
وهن وان جانبت ما يبتغينه حبائب عندي منذ كن أثائر

وكم ليلة خضت الأسنة نحوها وما هدأت عين ولا نام ساهر

فلما خلونا - يعلم الله وحده - لقد كرمت نجوى وعفت ضمائر

وبتّ يظن الناس فيّ ظنونهم وثوبي مما يرجم الناس طاهر

بمثل هذا الشعر الجزل الممزوج برقة المعنى وبفخامة اللفظ يرسم خفقان قلبه ويصور لوعات حبه . وكم له وقفات صادقة في تصوير هذا الحب .

وعلى ضوء هذه الصورة التي رسمناها نريد ان نرسم صورة من لهوه وعبثه، لقد كان ابو فراس يلهو ويعبث . ولكن اي لهو هذا؟ لقد كانت اجمل ساعات لهوه هي التي يقضيها في الصيد ، ونحسب ان هذه الصورة التي سنعرض اليها والتي تتناول وصف صيده مع صفوة من اخوانه هي من الصور القليلة الجميلة التي تراها في الشعر العربي ..

****

الوقت صحو والسماء مزدانة بالنجوم والنسيم يهب فيوقظ الارواح وابو فراس في قصره مع نفر من صحبه وخلانه يتسامرون ويقصّون أعذب القصص وأروع الاحاديث ؛ وكل اصدقائه في فجر الشباب ، ولكل واحد قصة من أقاصيص المجد والحب والمكرمات

هذا يقص لك وقائع الماضي وعبر الايام، وذاك يروي تنافس القبائل وتطاحنها المريع في غاراتها الشعواء، وآخر يهزأ بهذا التنافس الذي يقوم على عصبيات مجزأة ويود لو تحقق احلامه بزوال هذا وبوحدة الجزيرة العربية والثغور الاسلامية لتكون حصناً يرد عاديات الايام، ويعلو غيره في تفكيره الفلسفي فيود لو زالت الفوارق المذهبية بين الامم واصبح العالم في «وحدة انسانية مستقلة» فلا تكون احلامه الا مبعث ضحك الحاضرين وهزأهم القوي، ويضيق آخر بهذه الاحاديث لان لقلبه قصة يريد ان يبثها اخوانه الخلص ليحملوا عنه بعض ما يضني فؤاده ويستنزل دموعه الحرى، وابو فراس ينصت الى الجميع .. وما هي لمحة حتى يفيض قلبه باحاديث المجد والمكرمات؛ وما يكاد صوته العذب يرن في جوانب القصر حتى ينفذ الى جوانب القلوب، يروي لهم مغامراته ويهزأ بمنافسيه. ومن هم منافسوه؟

«الى الله اشكو عصبة من عشيرتي يسيؤني في القول غيباً ومشهداً

. . . هذا جواب لا سبيل الى الافاضة به في هذه الناحية من حياته وما يكادون يفرغون من احاديث المجد والحب والشباب حتى يعلن لأبي فراس - وهم في هدنة مع الروم - ان يخرج الى الصيد مع

اصحابه . وكيف يخرجون ؟ هل يكتفي كل واحد بنبلة وكلب؟ لا ... انه ينوي رحلة طويلة مضنية، ولابد من اعداد كل ما يلزم لهذه الرحلة الطويلة من العدد . انه لا يكتفي بان تحمل النبال والغدارات وان تطلق «السلوقيات» وان تعتلي ظهور الجواد المطهمة ! لا ، انه لا يكاد ينتبه من نومه عند السحر حتى يصرخ بالخدم ان يختاروا له الخيول المطهمة التي لا يشق لها غبار ، وان يخصص بعضها الصيد الارانب وبعضها لصيد الغزلان ، وهو يوصي ان ترسل كلاب الصيد على نوبتين : أي ان يكون ارسالها اثنين ثم يختار خمسة فهاد(١) وقسماً غير قليل من الصقور ذات المخالب الحادة التي تنقض من حالق السماء على الطيور الصغيرة فتوقعها بمناسرها . ولا تكاد تتهيأ هذه المعدات حتى يصيح باصحابه هيا استعدوا الى الطراد ولينفض كل واحد منكم آثار همه ووصبه وينشدهم :

ما العمر ما طالت به الدهور

العمر ما تم به السرور

أيام عزي ونفاذ أمري

---

(١) الفهد : سبع يصاد به . وهو من هذا النوع المعروف بضيق الخلق وشدة الغضب . له وثبات قوية بعد النوم .

هي التي أحسبها من عمري

ولا يكادون يمتطون ظهور خيلهم في يوم جميل رقّ هواؤه حتى يولون وجوههم نحو «عين باصر» وهو مكان يبعد عن «منبج» مسيرة يوم ويكثر فيه الصيد :

ثم قصدنا صيد «عين باصر»

مظنة الصيد لكل خابر

جئناه والشمس قبيل المغرب

تختال في ثوب الأصيل المذهب

أنهم الآن يستعدون للطرد والصيد ، في ناحية قريبة منهم يسمعون صياح الدراج(١) .أنه يغني لحن حبه ويشدو أعذب النغمات، انه ينعم بحريته وبفضائه الواسع بدون ان يعلم ان سهام الاجل ترقبه، وهنا يرق ابو فراس ويصف زقزقة الدراج بقوله :

واخذ الدراج في الصياح

مكتنفاً من سائر النواحي

في غفلة عنا وفي ضلال

(١) الدراج: طائر جميل المنظر . ملوّن الريش وهو يطلق على الذكر والانثى والدرجة : طائر باطن جناحيه أسود وظاهرهما على شكل القطا الا انه ألطف.

ونحن قد زرناه بالاجال

يطرب للصبح وليس يدري

ان المنايا في طلوع الفجر!

ولكنه لا يريد ان يعرف عنه هذا الحنو فهو يمضي في سيره ويبعث احد اتباعه ليرقب ظبياً في فجوة من الفجوات وما يكاد الغلام يلمحه عن بعد حتى يصيح بسيده الذي يتساءل إن كان العيان قد صدق :

سرت اليه فأراني جاثمة

حسبتها يقظى وكانت نائمة

ثم أخذت نبلة كانت معي

ودرت دورين ولم أوسع

حتى تمكنت فلم أخط الطلب

لكل حتف سبب من السبب

وهنا تضج الكلاب في مقاودها وتطلب هذه الصيدة بعد جهد جهيد ثم يحب ابو فراس ان يداعب من معه فيفاخر بازيه(1) ويعرض بازي غيره ويعرض لهم البراز فيقدم اليه أغيد وسيم الطلعة

---

(1) الباز : الصقر

صبيح الوجه فيعرض به ويود لو فكر فيما يقدم عليه . ثم يقول له هيا قابلني وراء النهر ، انت لشطر وانا لشطر . وهنا تطير دراجة ويرسل الاغيد بازه وتعلو الطمطة والضجيج. ولكن على مَ ذلك؟. لا شيء الا الأن من آلة الصيد الصياح !... ثم تطير «سلوى»(١) امام أبي فراس فتحلّ بها «قبل العلو البلوى» !. وجميل من أبي فراس حين يفاخر ببازيه ويعرض ببازي الأغيد :

صحت : أهذا الباز أم دجاجة ؟

ليت جناحيه على دراجه !

وهنا تحمر الاوجه ويبدو من «الأغيد» اعتذار كله ضعف ودلال وبعض النزق فينسب فشله الى المكان الذي هم فيه ويود لو رجعوا الى «منبج» فيخاطب ابا فراس :

اعدل بنا للمنبج الخفيف

والموضع المنفرد المكشوف

فيظهر ابو فراس التبرم بهذه الرفقة وبهذا الاعتذار :

نحن جميعاً في مكان واحد

فلا تعلل بالكلام البارد

---

(١) السلوى : طائر ابيض مثل السماني واحدته «سلواة»

ثم يطلب اليه ان يقص جناحي البازوان لايستصحبه الى الصيد وان يغلقه في الدار مع الدباشى(١) ومع القمارى . يقول له هذا فيخجل ويخفق جنانه لهذا الفشل وتصطبغ وجنتاه بحمرة الورد . ولكن ابا فراس يريد ان ينقذ الأغيد من هذا الموقف فما هو السبيل ؟ . . انظر اليه كيف ينقذه ليوقعه في ورطة أخرى !.. ويظهر ان ولعه لم يقف عندصيد الطيور بل تعداه الى صيد «الغيد» ! ها هو يهبه بازاً ليكون عدته في مثل هذه المواقف ولكيلا يقع في ورطة ما .ولكن ما ثمن هذه الهبة ؛ تمهل قليلا فسأجيبك بعد ان أريك كيف يصف ابو فراس هذا البازي الذي سهبه للاغيد ، انه وصف دقيق لم يسبقه شاعر عربي اليه :

جئت بباز حسن وهرج
دون العقاب وفويق الرمج(٢)
زين لرآئيه وفوق الزين
ينظر من نارين في غارين
كأن فوق صدره والهادي

---

(١) الدباشي : الدبسي . طائر اد كش يقرقر
(٢) الرامج : جنس من الطيور تصطاد به الجوارح كالصقور ونحوها

آثار متن الدار في الرماد

ذي منسر فحم وعين غائرة

وانخذ مثل الجبال وافرة

خضم قريب الدستبان جداً

يلقي الذي يحمل منه كدا

قل لي أي قارئي الكريم لو كنت ولعاً بالصيد ووقعت في ورطة كهذه التي عرضنا اليها وقدم لك هـذا البازي ليكون عدتك في الصيد ولينقذك من ورطات الخجل ازاء امير عربي كريم فكم تدفع ثمنه ؟ . دينار .. عشرة .. ماءة !.. لا . ان ابا فراس يريد ان يهب هذا البازي الى «أغيده» بـ ... بقبلة فقط !

قلت نخذه هبة بقبلة

فصدّ عني فمددته خجلة

فلم أزل امسحه حتى انبسط

وهش للصيد قليلا ونشط

وأجب منك ايها القاريء ان تمعن بشطر البيت الثاني ـ فلم أزل أمسحه حتى أنبسط ـ .. ففيه كل المعاني التي تفسر لك هذه المغامرة التي اقدم عليها ابو فراس ! ..

****

. . . ويستأنفون الصيدمرة ثانية، في جهة غير الجهة التي فشل فيها الأغيد : في «نهر الوادي» حيث الطيور كثيرة بعدد الجراد .. ويحدثنا هنا كيف اطلق شاهينين(١) وكيف رميا اربعة طيور : «ثلاثة خضراً وواحداً أبقعا»(٢) وكيف ذبحوا هذه الطيور ليأكلوها هنيئاً ويشربوا عليها مريئاً ، ثم يحدثنا كيف اطلقوا شاهينين مرة اخرى فرموا اربعة طيور كالمرة الاولى الا انها اكبر منها بعض الشيء . يحدثنا عن هذا بشعر سهل رقيق يسيل عذوبة ويفيض بالجزالة ودقة الوصف البديع . ثم ينتقل بنا الى صيد الكراكي(٣) الجاثمة بقرب النهر وكيف صاد منها عشرة او أكثر من عشرة فيحدثنا ايضاً كيف اطلق بازه في هذا الصيد وكيف صاح بالطباخ لينزل النهر ويأتيه بما تساقط على ضفتيه . ويأتي الطباخ حاملاً الكراكي والحجل والدراج ويود هنا لو نزل قليلا ليستريح ولكنه بعد تفكير قليل ، رأى انه لم يرو اوار ظماه من الصيد وان صيد

---

(١) الشاهين : طائر من جنس الصقر

(٢) طير أبقع : مختلف اللون

(٣) الـكركي : طائر يقرب من الوز ، ابتر الذنب رمادي اللون ، في خده لمعات سود ، قليل اللحم ، صلب العظم ، يأوي الماء احياناً جمعه : كراكي .

الطيور أقل مما يشبع عيشه ولهوه . وانه لا بد من ان يحوّل من ضفاف الانهر ومن قلب الحدائق الى الصحراء. فيصيح بصحبه ان هيا نلتمس الوحوش والظباء في الصحراء. وما تكاد صيحته تلمس اعماق القلوب حتى يطلقون العنان الى خيولهم تنهب الارض نهباً . وماهي برهة حتى يطوون الفيافي والقفار الى جزع واد قد سقت ارضه الوسمي فاخضل وازدهرت بشتى الحشائش والنبات ، واد موحش لم تطرقه يد الانسان فهو مرعى خصب للغزلان الشاردة التي كانت ترعى فيه مذعورات !. وهنا يصف لنا كيف اطلق الصقار والفهاد وكيف ان احد فهوده قد جدل «الكبير الاقرنا» وكيف شد على مبطنه ، وكيف ان فهداً آخر قد جدل «عنزاً حائلا» قد رعى حمى الغورين مدة حول كامل ! يحدثنا عن هذا فيرينا كيف رمى الباقي بالصقور . ولا تقرأ وصف هذه المعركة الا وتحس كأنما تشاهد معركة دامية . ويقف عند هذا الحد موفور الغضب فيريد ان ينتهي من رحلته الطويلة التي دامت سبع ليال كاملة . وكيف ينهيها قبل ان يصعد الجبال الوعرة الشاهقة ليرى ما في اوكارها ومخابئها من صيد لذيذ ، وقد يكون من الطريف ان ننصت له لنريك كيف ينهي هذه الرحلة ـ اللذيذة التي لم نقرأها مرة الا وددنا لو تأخر بنا

الزمن الف سنة فقط لنشهد بعض سمره وبعض هذه الرحلات المتعة!..

ثم عدلنا عدلة الى الجبل
الى الاراوي[1] والكباش والحجل
فلم نزل بالخيل والكلاب
نحوزها حوزاً الى الغياب
ثم انصرفنا والبغال موقرة
في ليلة مثل الصباح مسفرة
حتى أتينا رحلنا بليل
وقد سبقنا بجياد الخيل
ثم نزلنا وطرحنا الصيدا
حتى عددنا مئة وزيدا
فلم نزل نلقي ونشوى ونصب
حتى طلبت صاحباً فلم اصب
شرباً كما عنّ من الزقاق
بغير ترتيب وغير ساق

(١) الاراوي: الوعول.

فلم نزل سبع ليال عدداً

اسعد من راح وأحظى من غدا

وهنا تم الرحلة ..

****

وأحسب ان لا حاجة الى ان نزيد شيئاً على هذه الارجوزة الخالدة التي جادت بها قريحة ابي فراس في سويعات هدوئه ومرحه. والتي عرضنا بعض مقطوعاتها، فهي اول قصيدة عربية بليغة تصف رحلة صيد بهذه الروعة. وفي وسعي ان اقول ان هذه الارجوزة هي من القصائد القليلة في العربية التي يستطيع القارئ ان يلمس فيها «الوحدة» التي نتطلبها في الشعر العربي فلا نجدها الا لماماً. وقد يكون سبب ذلك انها خرجت من قيد «القصيدة» ذات البحر الواحد والقوافي الواحدة الى الارجوزة التي لا تخضع لهذه القيود

تم

خاتمة

لا اعرف اذا كنت استطعت ان اعطي القرآء صورة صادقة عن الامير الحمداني سيف الدولة الذي لعب اكبر دور في صون هذه البلاد من الزحفات البيزنطية قبل الف عام، لأن مجال الكلام يتسع فيه لاكثر مما كتبت . وقد قصدت من هذه الرساله ان اوجه الشباب ، والشباب الحلبي بصورة خاصة، الى دراسة عصر الحمدانيين ودراسة حياة هذا البطل العربي الذي لم تتناوله الدراسات الادبية مع كثرة ماعرضت لكثيرين من ابطال الاسلام. فكتبتُ هذه الفصول المتفرقة المتماسكة في آن واحد ، وكتبتها في زحمة من مشاغلي وفي بعض ساعات فراغي ، وكان بودي ان ادرس حياة جميع المفكرين والادباء والشعرآء الذين انتظمهم بلاط سيف الدوله . ولكني رأيت ان المضي في مثل هذه الدراسة يتطلب مني كتابة مجلد قد لاتقل صفحاته عن صفحات هذا الكتاب ، فاكتفيت بهذا القدر ولم اعرض الا لحياة المتنبي وابي فراس لانهما كانا اكثر التصاقاً بحياة سيف الدولة من جميع من انتظمهم بلاطه . وانا ارجوان أجد من الوقت متسعاً لكتابة الفصول التي اشرت اليها في فرصة مؤآتية لتكون الدراسة اشمل ؟

ومن الله التوفيق

سامي الكيالي

١٦ حزيران ١٩٣٩

٢٧ ربيع الآخر ١٣٥٨

المراجع

الدر المنتخب في تاريخ مملكة حلب لابن الشحنه طبعة بيروت ١٩٠٩

نهر الذهب في تاريخ حلب الشيخ كامل الغزي

محاضرات تاريخ الامم الاسلامية : الدولة العباسية لمحمد الخضري

تاريخ العالم الاسلامي لعمر رضا كحاله

تاريخ الموصل للقس سليمان صائغ الموصلي المطبعة السلفية مصر ١٩٢٣

معجم البلدان لياقوت الحموي طبعة مصر ١٩٠٦

امرآء الشعر العربي في العصر العباسي لانيس المقدسي طبعة بيروت ١٩٣٢

ديوان المتنبي شرح اليازجي طبعة بيروت سنة ١٨٨٧

ديوان ابي فراس طبعة بيروت سنة ١٩١٠

مواقف حاسمة في تاريخ الاسلام للاستاذ محمد عبد الله عنان طبعة مصر سنة ١٩٢٩

يتيمة الدهر للثعالبي طبعة مصر سنة ١٩٣٤

تاريخ ابو الفدا المؤيد الطبعة الاولى

كتاب السلوك لمعرفة دول الملوك للمقريزي مطبعة دار الكتب المصريه ١٩٣٤

تاريخ الاسلام السياسي للدكتور حسن ابراهيم حسن طبعة مصر

دائراة المعارف الاسلامية

دائرة معارف القرن العشرين لمحمد فريد وجدي بك

خطط الشام لمحمد كرد علي طبعة دمشق ١٩٢٦

تاريخ الكامل لابن الاثير

تاريخ ابن خلدون

تجارب الامم لابن مسكويه طبعة مصر ١٩١٤

النجوم الزاهرة . ج ٤ طبعة مصر ١٩٣٣

Encyclopédie de l'Islam
Paul Bourain — Alep , outrefais oujourd'hui Alep 1930
André Devens - Le Roman de L'Êmir Séif Paris 1935
Marius Canard — Sayf al daula Alger 1934

«بيوك تاريخ عمومي» لاحمد رفيق ، الجزء الرابع ، القسم الخاص بالبيزنطيين وقد اعتمد المؤلف على مصادر بزنطية قديمة وعلى ما كتبه شلمبرجر ، ورامبو وشارل وغيرهم من كبار مؤرخي الالمان والافرنسيين عن البيزنطيين

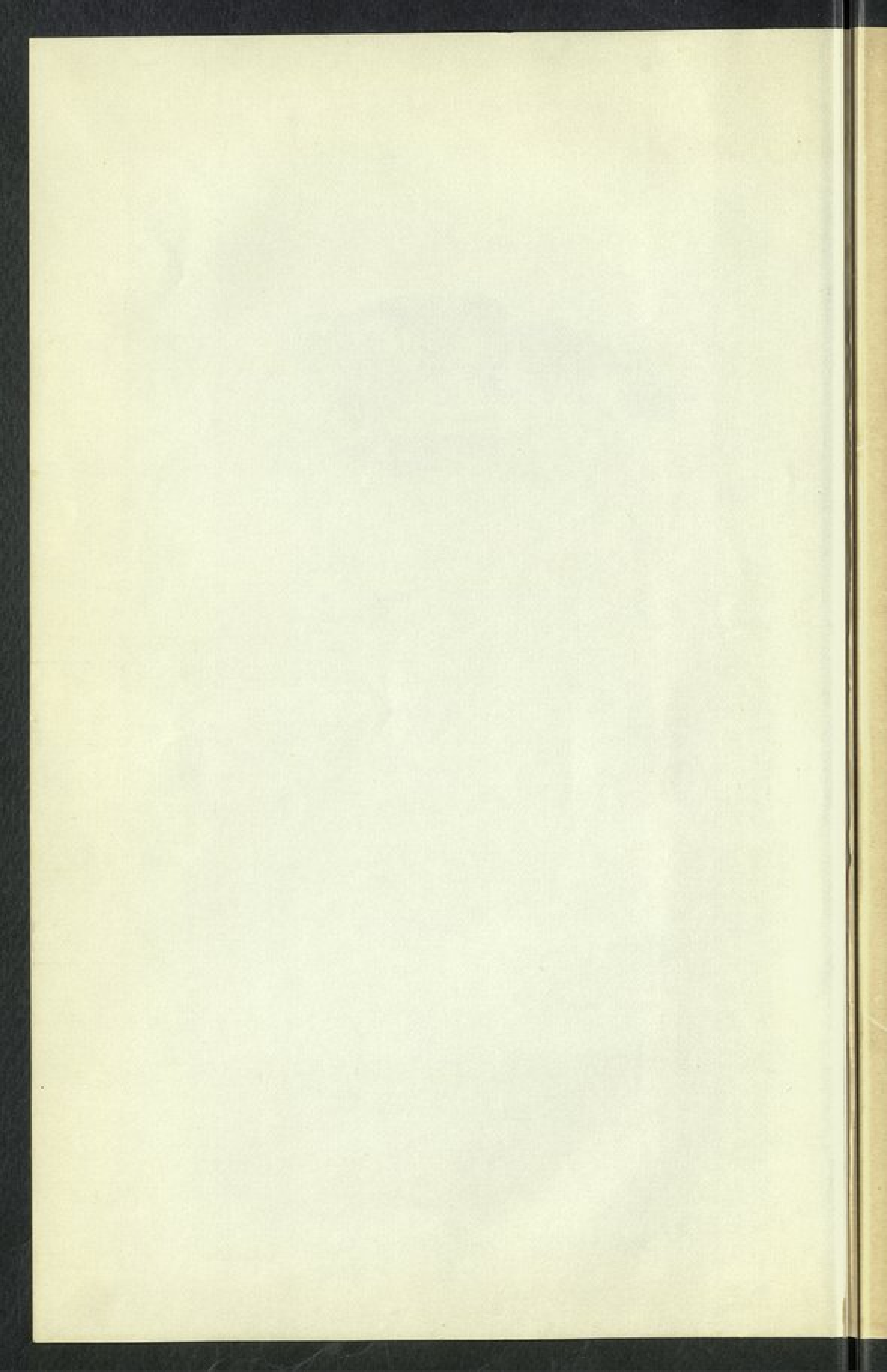
الفهرس

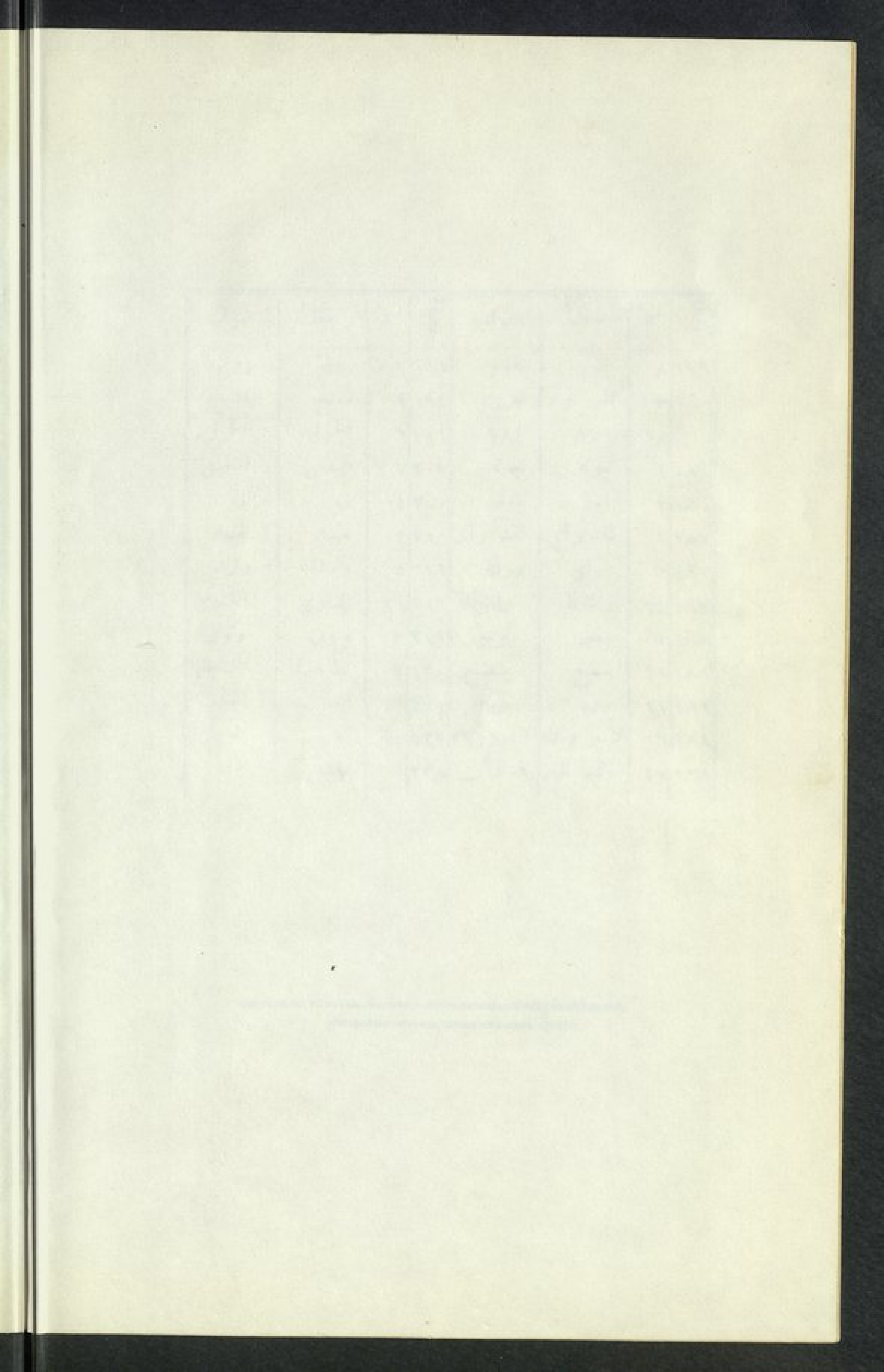
تصويبات

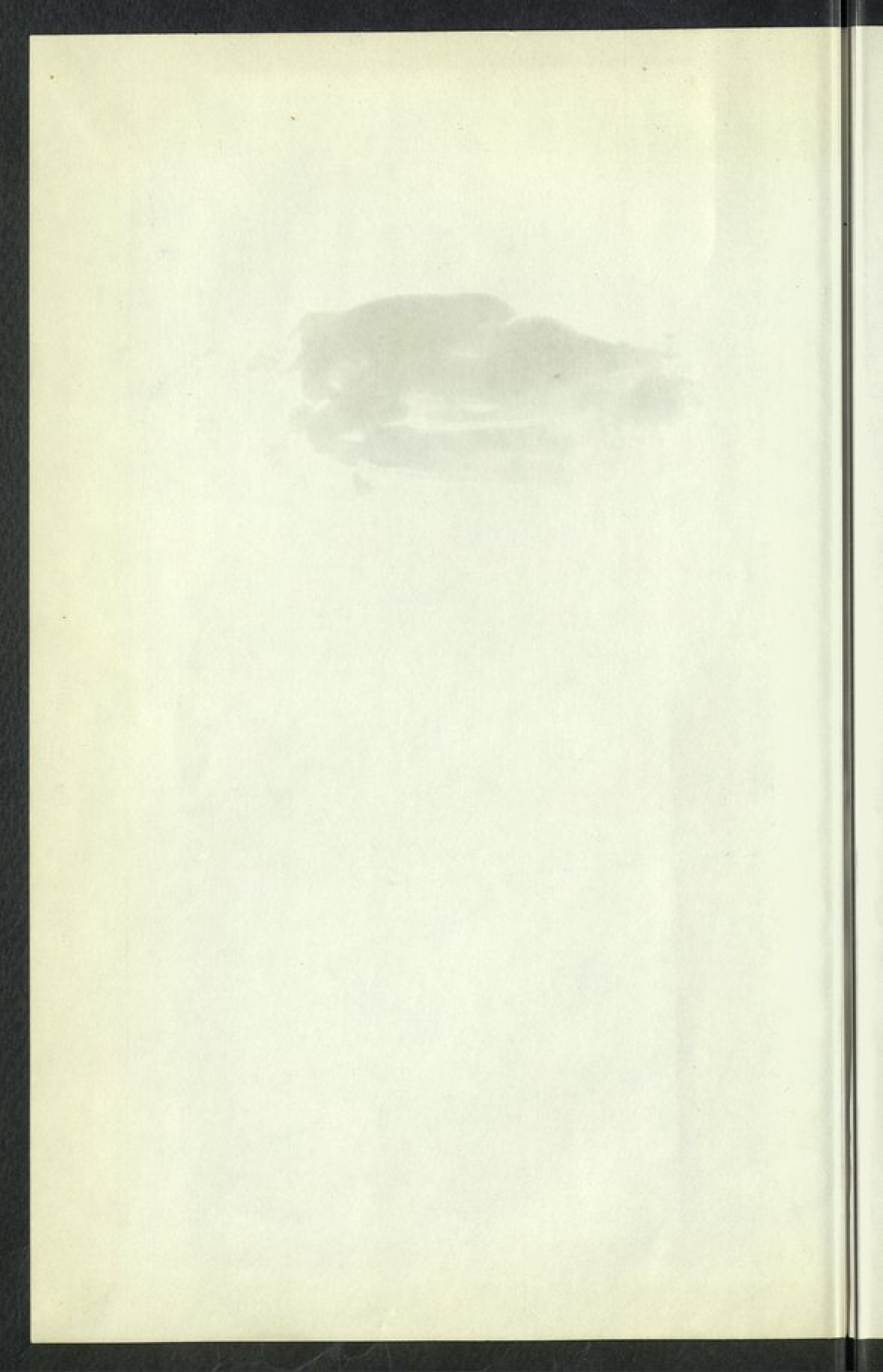
وقع اثناء الطبع غلطات مطبعية نذكرها هاهنا ليستدركها القارئ قبل ان يمضي في قراءة الكتاب :

صحيفة	سطر	خطأ	صواب	صحيفة	سطر	خطأ	صواب
١	٥	قلبها	قلبها	١٠٤	٨	ولد	والد
٢	٨	ربانه	ربّانة	١٠٧	٤	حربا	حربًا
٢	١٧	ومرد	ومردّ	١١٢	٦	وظنو	وظنوا
٧	٤	الرافدين	الرافدين	١١٥	١	وقد ريد	وقد تذر
٢٧	١٢	من حيرات	من خيرات	١١٥	١١	فلم يكاد	فلم يكد
٢٧	١٢	وحيراتها	وخيراتها	١١٦	٤	اتجة	اتجه
٣٣	٨	وويعض	وبعض	١٢١	٣	طبيمة	طبيعة
٣٤	٥	مل	بل	١٣٠	١	كا ٔيه	كآبه
٣٥	١٧	زبط	ربط	١٣١	١١	يدها	بيدها
٣٦	٧	لا تمت	لا تمتّ	١٣٢	١٧	نخصبها	بخصبها
٤٠	٩	وحذل	وخذل	١٣٤	٣	ولكنها	ولكنها
٤١	١٦	وهو يحمّله	وهو يجمّله	١٣٤	٤	لماضي	الماضي
٥٥	٨	ذات نواحي	ذات نواحٍ	١٤٠	١٥	الدباباث	الدبابات
٥٩	٨	ثفيله	ثقيله	١٤٣	٣	الطرت	في الطرق
٦٠	١٤	تمت	تمتّ	١٤٤	٣	نمو سهم	نفو سهم
٧٣	١٦	الاخشيد	الاخشيدي	١٤٥	٧	تذهب	تذهب
٧٦	٨	لاتمت	لاتمتّ	١٥٢	٩	وللفاوضته	وللمفاوضة
٩٦	٦	تفق	تنفق	١٥٧	١٥	كانار	كانار
٩٨	٤	بزيد	يزيد	١٦٦	١٤	وقابله	وقابله
٩٨	٦	اغتيالا	اغتيالاً	١٧٤	٤	مجدة	نجدة
٩٨	١٢	نقلبه	نقبله	١٧٨	١٢	امنيانه	امنياته
١٠٤	٤	وخزن	وحزن	١٧٩	٣	ق اده	فواده

صحيفة	سطر	خطأ	صواب	صحيفة	سطر	خطأ	صواب
١٧٩	٨	نقوم	تقوم	١٩١	١٢	ووآم	ووآم
١٨٠	٣	المز ى	المزري	١٩٤	٩	منبح	منبج
	١٨	١٧٩	١٨٤	٢٠١	٦	الجمول	الجمول
١٨٤	١	ثبونه	نبوته	٢٠٧	٧	المفس	النفس
١٨٦	٢	ماسم	باسم	٢٠٠	٤	بي	بي
١٨٧	١	لقد رأي	لقد رأى	٢١٠	٤	نفسه	نفسه
١٨٧	٣	وراي	ورأى	٢١١	٥	وتزاه	وزراه
١٨٧	١٤	والمثاقفة	والمثاقفة	٢١٦	١٠	الداوي	الذاوي
١٨٨	٥	وعبر	وعبّر	٢١٩	٣	وبوبي	وثوبي
١٨٨	١٠	ينضج	ينضح	٢٢٠	٢	تطاحتها	تطاحنها
١٨٩	١١	رود	برودة	٢٢٠	١١	المذب	المذب
١٨٨	١٦	الأمير وبلته	الاميروونبته	٢٢٢	١٠	أنه	انه
١٨٨	١٧	وقد ظمان	وقدظمآن	٢٢٨	١	عيشه	عبثه








الكيالي، سامي
سيف الدولة وعصر الحمدانيين
AMERICAN UNIVERSITY OF BEIRUT LIBRARIES
01055590

